الفصل السابع:
[النشاط العسكري ما بين الحديبية وفتح مكة]

الأحداث ما بين الحديبية وفتح مكة:

رسائل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى الملوك والأمراء:

لقد كان صلح الحديبية فتحا كبيرا للإسلام، ذلك أنه أتاح الفرصة لتوسيع نطاق الدعوة إلى الله - عز وجل - داخل جزيرة العرب وخارجها، والحبيب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يألُ جهداً لنشر الإسلام خارج حدود الحجاز وكذلك خارج حدود الجزيرة العربية وقد عبّر عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عن هذا المنهج قولاً وعملاً من خلال إرساله عدداً من الرسل والمبعوثين إلى أمراء أطراف الجزيرة العربية وإلى ملوك العالم المعاصر خارج الجزيرة العربية.

وتُعَدَّ هذه الخطوة نقطة تحول هامة في تاريخ العرب والاسلام، ليس لأن الرسول سوف يوحد عرب الجزيرة العربية تحت راية الإسلام فحسب، ولكن لأن هؤلاء العرب بعد أن اعتنقوا الإسلام وتمثلوا رسالة السماء أنيط بهم حمل الدعوة الإسلامية إلى البشرية كافة[1].

ويشير المنهج النبوي في دعوة الزعماء والملوك إلى ما يجب أن تكون عليه وسائل الدعوة، فإلى جانب دعوة الأمراء والشعوب، اختار الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أسلوباً جديداً من أساليب الدعوة وهو مراسلة الملوك ورؤساء القبائل، وكان لأسلوب إرسال الرسائل إلى الملوك والأمراء أثر بارز في دخول بعضهم الإسلام وإظهار الود من البعض الآخر، كما كشفت هذه الرسائل مواقف بعض الملوك والأمراء من الدعوة الإسلامية ودولتها في المدينة وبذلك حققت هذه الرسائل نتائج كثيرة واستطاعت الدولة الإسلامية من خلال ردود الفعل المختلفة تجاه الرسائل أن تنتهج نهجاً سياسياً وعسكرياً واضحاً ومتميزاً[2].

١- كتاب إلى قيصر ملك الروم:

فقد أرسل الحبيب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كتاباً إلي قيصر ملك الروم كتابا هذا نصه: «**بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد عبد الله ورسوله، إلى هرقل عظيم**

(١) د. محمد العقيلي، السفارات النبوية، ص١٥.
(٢) د. سعيد المهجر، العلاقات الخارجية للدولة الإسلامية، ص١١٢.

الروم، سلام على من اتّبع الهدى: أمّا بعد، فإنّي أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرّتين، فإن توليت فإنّما عليك إثم الأريسيّين[1]: ﴿قُلْ يا أَهْلَ الْكِتابِ تَعالَوْا إِلى كَلِمَةٍ سَواءٍ بَيْنَنا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنا بَعْضاً أَرْباباً مِنْ دُونِ اللهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤] »[2].

ولما تسلم هرقل رسالة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ودقق في الأمر وأراد أن ستيقن الحقيقة فأرسل في طلب أحد ممن يعرف الحبيب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيسأله عنه، فروي عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة، عن عبد الله بن عباس، أنه أخبره أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كتب إلى قيصر يدعوه إلى الإسلام وبعث بكتابه إليه مع دحية الكلبي، وأمره رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يدفعه إلى عظيم[3] بصرى ليدفعه إلى قيصر، فدفعه عظيم بصرى إلى قيصر، وكان قيصر لما كشف الله عنه جنود فارس مشى من حمص إلى إيلياء شكرا لما أبلاه الله، فلما أن جاء قيصر كتاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال حين قرأه: التمسوا[4] إلي هاهنا أحدا من قومه لنسألهم عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. قال ابن عباس: فأخبرني أبو سفيان أنه كان بالشام في رجال من قريش قدموا تجارا في المدة التي كانت بين رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبين كفار قريش (بعد صلح الحديبية)، قال أبو سفيان: فوجدنا رسول قيصر ببعض الشام فانطلق بي وبأصحابي حتى قدمنا إيلياء، فأدخلنا عليه، فإذا هو جالس في مجلس ملكه وعليه التاج، وإذا حوله عظماء الروم، فقال لترجمانه: سلهم أيهم أقرب نسبا بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟ قال أبو سفيان: أنا أقربهم إليه نسبا. قال: ما قرابة ما بينك وبينه؟ فقلت: هو ابن عمي. قال: وليس في الركب يومئذ أحد من بني عبد مناف غيري. قال قيصر: أدنوه مني. ثم

---

(١) واختلفوا في المراد بهم على أقوال: أصحها وأشهرها أنهم الأكارون، أي الفلاحون والزراعون. ومعناه إن عليك إثم رعاياك الذين يتبعونك وينقادون بانقيادك. ونبه بهؤلاء على جميع الرعايا لأنهم الأغلب، ولأنهم أسرع انقيادا. فإذا أسلم أسلموا، وإذا امتنع امتنعوا. وهذا القول هو الصحيح. الثاني أنهم اليهود والنصارى، وهم أتباع عبد الله بن أريس الذي تنسب إليه الأروسية من النصارى، ولهم مقالة في كتب المقالات. ويقال لهم: الأروسيون. الثالث أنهم الملوك الذين يقودون الناس إلى المذاهب الفاسدة ويأمرونهم بها.

(٢) مسلم (١٧٧٣).

(٣) عظيم: حاكم أو ملك.

(٤) التمس الشيء: طلبه.

أمر بأصحابي فجعلوا خلف ظهري عند كتفي ، ثم قال لترجمانه: قل لأصحابه: إني سائله عن الذي يزعم أنه نبي ، فإن كذب فكذبوه قال أبو سفيان: والله لولا الحياء يومئذ أن يأثر أصحابي عني الكذب لكذبته عنه حين سألني عنه ، ولكني استحيت أن يأثروا الكذب عني فصدقته عنه ، ثم قال لترجمانه: قل له: كيف نسب هذا الرجل فيكم؟ قال: قلت: فهو فينا ذو نسب [1] قال: فهل قال هذا القول أحد منكم قبله؟ قال: لا . قال: فهل كنتم تتهمونه على الكذب قبل أن يقول ما قال؟ قلت: لا . قال: فهل من آبائه من ملك؟ قال: قلت: لا ، قال: فأشراف الناس يتبعونه أو ضعفاؤهم؟ قال: قلت: بل ضعفاؤهم . قال: فيزيدون أو ينقصون؟ قال: قلت: بل يزيدون . قال: فهل يرتد أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟ قال: قلت: لا . قال: فهل يغدر؟ قلت: لا ، ونحن الآن منه في مدة ونحن نخاف منه أن يغدر . قال أبو سفيان: ولم تمكني كلمة أدخل فيها شيئا أنتقصه بها لا أخاف أن تؤثر [2] عني غيرها . قال: فهل قاتلتموه وقاتلكم؟ قال: قلت: نعم . قال: فكيف كانت حربكم وحربه؟ قال: قلت: كانت دولا وسجالا ، يدال [3] علينا المرة وندال عليه الأخرى . قال: فماذا يأمركم به؟ قال: قلت: يأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئا ، وينهانا عما كان يعبد آباؤنا ، ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والوفاء بالعهد وأداء الأمانة . قال: فقال لترجمانه حين قلت ذلك قل له: إني سألتك عن نسبه فيكم فزعمت أنه ذو نسب ، وكذلك الرسل تبعث في نسب قومها ، وسألتك: هل قال هذا القول أحد منكم قبله؟ فزعمت أن لا ، فقلت: لو كان أحد منكم قال هذا القول قبله قلت رجل يأتم بقول قد قيل قبله ، وسألتك: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فزعمت أن لا ؛ فعرفت أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس ويكذب على الله ، وسألتك: هل كان من آبائه من ملك ، فزعمت أن لا ، فقلت: لو كان من آبائه ملك قلت يطلب ملك آبائه ، وسألتك: أشراف الناس يتبعوه أو ضعفاؤهم؟ فزعمت أن ضعفاءهم اتبعوه وهم أتباع الرسل ، وسألتك: هل يزيدون أو ينقصون؟ فزعمت أنهم يزيدون ، وكذلك الإيمان حتى يتم ، وسألتك: هل يزيد أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟ فزعمت أن لا ، وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب لا يسخطه [4] أحد ،

(١) ذو نسب: صاحب الأصل الشريف الطيب .
(٢) تؤثر: تحكى وتعرف .
(٣) أداله عليه: غلبه عليه وأظفره به .
(٤) السخط: الغضب أو كراهية الشيء وعدم الرضا به .

وسألتك: هل يغدر؟ فزعمت أن لا، وكذلك الرسل لا يغدرون، وسألتك: هل قاتلتموه وقاتلكم؟ فزعمت أن قد فعل، وأن حربكم وحربه يكون دولا يدال عليكم المرة وتدالون [1] عليه الأخرى، وكذلك الرسل تبتلى [2] وتكون لها العاقبة [3]، وسألتك: ماذا يأمركم به؟ فزعمت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا، وينهاكم عما كان يعبد آباؤكم، ويأمركم بالصلاة، والصدق، والعفاف، والوفاء بالعهد، وأداء الأمانة، وهذه صفة نبي قد كنت أعلم أنه خارج، ولكن لم أظن أنه منكم، وإن يكن ما قلت حقا فيوشك أن يملك موضع قدمي هاتين، ولو أرجو أن أخلص إليه لتجشمت [4] لقيه، ولو كنت عنده لغسلت قدميه. قال أبو سفيان: ثم دعا بكتاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأمر به فقرئ، فإذا فيه: بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم سلام على من اتبع الهدى، أما بعد، فإني أدعوك بداعية الإسلام أسلم تسلم، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين، وإن توليت فعليك إثم الأريسيين: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤] قال أبو سفيان: فلما أن قضى مقالته علت أصوات الذين حوله من عظماء الروم وكثر لغطهم [5]، فلا أدري ما قالوا، وأمر بنا فأخرجنا، فلما أن خرجت مع أصحابي وخلوت بهم قلت لهم: لقد أمر أمر ابن أبي كبشة، هذا ملك بني الأصفر يخافه وقال أبو سفيان: والله ما زلت ذليلا مستيقنا بأن أمره سيظهر [6] حتى أدخل الله قلبي الإسلام وأنا كاره [7].

وفي هذا الموقف آيات بينات ودلالات واضحات على نبوته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صادق فيما جاء به ومحل الشاهد من القصة شهادة أبي سفيان بن حرب وهو من أشد أعدائه في ذلك الوقت على - اتصاف الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبل أن يبعثه الله بالصدق وأنهم لا يتهمونه بالكذب وبالوفاء وأنه

---

(١) أدال عليه: غلبه.
(٢) الابتلاء: الاختبار والامتحان بالخير أو الشر.
(٣) طلبه العاقبة: الخاتمة.
(٤) تجشم: تحمل المشقة التعب.
(٥) اللغط: صوت وضجة لا يفهم معناها.
(٦) ظهر: انتشر وساد.
(٧) مسلم (١٧٧٣).

لا يغدر .

٢ – كتاب النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ إلى كسرى ملك الإمبراطورية الفارسية:

وأرسل النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بكتاب إلى كسرى ملك الامبراطورية الفارسية ، مع عبدالله بن حذفة السهمي ، (أمره أن يدفعه إلى عظيم البحرين[١] ، فدفعه عظيم البحرين إلى كسرى ، فلما قرأه مزقه ، فدعا عليهم رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أن يُمَزَّقُوا كلَّ ممزق) [٢] ، ونص الرسالة كما أورده الطبري كالتالي:

(بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله ، إلى كسرى عظيم فارس ، سلام على من اتبع الهدى ، وآمن بالله ورسوله ، وشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله ، إلى الناس كافة ، لينذر من كان حياً ، أسلم تسلم ، فإن أبيت عليك أثم المجوس) [٣] .

ثم كتب كسرى إلى أمير له باليمن يقال له "باذان" أن أبعث إلى هذا الرجل الذي بالحجاز رجلين من عندك جلدين فليأتياني به فبعث "باذان" قهرمانه وهو "بابويه" . وكان كاتبا حاسبا بكتاب فارس وبعث معه رجلا من الفرس يقال له "خرخسر" وكتب معهما إلى رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يأمره أن ينصرف معهما إلى كسرى وقال لبابويه أئت بدل هذا الرجل وكلمه وأتني بخبره فخرجا حتى قدما الطائف فوجدا رجالا من قريش بنخب من أرض الطائف فسألاهم عنه فقالوا هو بالمدينة . واستبشروا بهما وفرحوا وقال بعضهم لبعض أبشروا فقد نصب له كسرى ملك الملوك . كفيتم الرجل فخرجا حتى قدما على رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فكلمه بابويه . فقال إن شاهنشاه ملك الملوك كسرى قد كتب إلى الملك باذان يأمره أن يبعث اليك من يأتيه بك وقد بعثني إليك لتنطلق معي فإن فعلت كتب فيك إلى ملك الملوك ينفعك ويكفه عنك وأن أبيت فهو من قد علمت فهو مهلكك ومهلك قومك ومخرب بلادك . ودخلا على رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ

---

(١) وهو ملك البحرين المنذر بن ساوى كما في شرح المواهب اللدنية للزرقاني (٣/ ٣٤١) ، ولم يرد في صحيح البخاري اسم عظيم البحرين (فتح ٨/ ١٢٨) .

(٢) البخاري – الصحيح (فتح الباري ٨/ ٢٦/ ح/ ٤٤٢٤) وقد ثبت أن الملك كسرى أبرويز بن هرمز هو الذي تسلم رسالة النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ومزقها ، قد مات في مارس ٦٢٨ م بمؤامرة دبرها له ولده شيرويه ، وذلك يطابق ما أوردته النصوص من أن موته كان بعد ذلك ببضعة أشهر . الرواية مطولة في الطبري – تاريخ ٢/ ٦٥٥ – ٦٥٧ ، وانظر ابن سعد – الطبقات ١/ ٢٦٠ .

(٣) تاريخ الطبري (٢/ ٦٥٤ – ٦٥٥) .

وقد حلقا لحاهما وأعفيا شواربهما فكره النظر إليهما . ثم أقبل عليهما فقال: ويلكما من أمركما بهذا؟ قال ربنا . يعنيان كسرى فقال رسول الله: لكن ربي أمرني بإعفاء لحيتي وقص شاربي . ثم قال لها ارجعا حتى تأتياني غدا وأتى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الخبر من السماء أن الله قد سلط على كسرى ابنه (شيرويه) فقتله في شهر كذا وكذا ليلة كذا وكذا من الليل بعدما مضى من الليل سلط عليه ابنه شيرويه فقتله ، فدعاهما فأخبرهما فقالا هل تدري ما تقول أنا قد نقمنا عليك ما هو أيسر من هذا أفنكتب هذا عنك ونخبره الملك؟ قال نعم أخبراه ذلك عني وقولا له إن ديني وسلطاني سيبلغ ما بلغ ملك كسرى وينتهي إلى منتهى الخف والحافر وقولا له إنك إن أسلمت أعطيتك ماتحت يديك وملكتك على قومك من الأبناء . ثم أعطى "خرخسرة" منطقة فيها ذهب وفضة كان أهداها له بعض الملوك فخرجا من عنده حتى قدما على باذان فقال والله ما هذا بكلام ملك وإني لأرى الرجل نبيا كما يقول ولتنظرن ما قد قال فلئن كان هذا حقا ما فيه كلام أنه لنبي مرسل . وإن لم يكن فسنرى فيه رأينا [1] .

وقد تحقق ماأنبأ به رسول الله بكل دقة ، فقد استولى على عرشه ابنه (قباذ) الملقب بـ (شرويه) وقتل كسرى ذليلاً مهاناً بإيعاز منه سنة ٦٢٨م وقد تمزق ملكه بعد وفاته وأصبح لعبة في أيدي أبناء الأسرة الحاكمة ، فلم يعش (شرويه) إلا ستة أشهر ، وتوالى على عرشه مدة أربع سنوات عشرة ملوك ، واضطرب حبل الدولة إلى أن اجتمع الناس على (يزدجرد) وهو آخر ملوك بني ساسان ، وهو الذي واجه الزحف الإسلامي الذي أدى إلى انقراض الدولة الساسانية التي دامت وازدهرت أكثر من أربعة قرون انقراضاً كلياً ، وكان ذلك في سنة ٦٣٧م ، وهكذا تحققت هذه النبوءة في ظرف ثماني سنين [2] .

إسلام باذان:

لم ولم يمض وقت طويل حتى قدم علي باذان كتاب شيرويه يخبره فيه بقتل كسري ويأمره بأخذ البيعة لنفسه ونص الكتاب علي:

أما بعد فإني قد قتلت كسرى ولم أقتله إلاغضبا لفارس لما كان استحل من قتل أشرافهم وتجميرهم في ثغورهم فإذا جاءك كتابي هذا فخذ لي الطاعة ممن

(١) البداية والنهاية ، ٤/ ٣٠٧ ، تاريخ الطبري ، ٢/ ١٣٣ .
(٢) السيرة النبوية للندوي ، ص٣٠٠ .

قبلك وانظر الرجل الذي كان كسرى كتب فيه إليك فلا تهجه حتى يأتيك أمري فيه .

فما انتهى كتاب شيرويه إلى باذان قال إن هذا الرجل لرسول فأسلم وأسلمت الاباء معه من فارس من كان منهم باليمن [1] .

وكان من حكمة الحبيب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه لما أسلم باذان بن ساسان وكان أميراً على اليمن لم يعزله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بل أبقاه أميراً عليها بعد إسلامه ، حين رأى فيه الاداري الناجح والحاكم المناسب ، مما يدلل على أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقدر الكفاءات في الرجال ويضع الرجل المناسب في المكان المناسب ، ومن الجدير بالذكر أن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد ولى ولده شهراً أميراً على اليمن بعد موته [2] .

- كتاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى النجاشي ملك الحبشة:

أما كتاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى النجاشي ملك الحبشة فقد ثبت أنه أرسله مع عمرو بن أمية الضمري ، وقد جاء في الكتاب:

(بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله ، إلى النجاشي ملك الحبشة ، أسلم أنت ، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن ، وأشهد أن عيسى ابن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول [3] الطيبة الحصينة فحملت به ، فخلقه من روحه ونفخه كما خلق آدم بيده وإني أدعوك إلى الله وحده لاشريك له ، والموالاة عن طاعته ، وأن تتبعني وتؤمن بالذي جاءني فإني رسول الله ، وإني أدعوك وجنودك إلى الله - عز وجل - وقد بلغت ونصحت ، فاقبلوا نصيحتي ، والسلام على من اتبع الهدى [4] .

ولما بلغ عمرو بن أمية الضمري كتاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى النجاشي أخذه النجاشي ، ووضعه على عينه ، ونزل عن سريره على الأرض ، وأسلم على يد جعفر بن أبي طالب ، وكتب إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بذلك ، وهاك نصه:

بسم الله الرحمن الرحيم . إلى محمد رسول الله من النجاشي أصحمة ، سلام

---

(١) البداية والنهاية ، ٤/ ٣٠٧ ، تاريخ الطبري ، ٢/ ١٣٣ .

(٢) أبو فارس ، غزوة الحديبية ، ص٢٤٢ .

(٣) البتول: أصل البتل القطع وسميت البتول قيل: لانقطاعها عن نساء زمانها فضْلا ودِينا وحَسَبا . وقيل: لانقطاعها عن الدُّنيَا إلى اللّه تعالى . وقيل: المُنْقَطِعة عن الرجال لا شهوة لها فيهم .

(٤) البداية والنهاية ، لابن كثير ، ٤/ ٢٥٧ ، وتاريخ الطبري ، ٢/ ٢٤٤ ٦٥٧ .

عليك يا نبي الله من الله ورحمة الله وبركاته ، الله الذي لا إله إلا هو ، أما بعد:

فقد بلغني كتابك يا رسول الله فيما ذكرت من أمر عيسي ، فورب السماء والأرض إن عيسي لا يزيد على ما ذكرت ثفْرُوقا[1] ، إنه كما قلت ، وقد عرفنا ما بعثت به إلينا ، وقد قرينا ابن عمك وأصحابك ، فأشهد أنك رسول الله صادقاً مصدقاً ، وقد بايعتك ، وبايعت ابن عمك ، وأسلمت على يديه لله رب العالمين) .

وكان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد طلب من النجاشي أن يرسل جعفراً ومن معه من مهاجري الحبشة ، فأرسلهم في سفينتين مع عمرو بن أمية الضمري ، فقدم بهم على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو بخيبر[2] .

وتوفي النجاشي هذا في رجب سنة تسع من الهجرة بعد تبوك ، ونعاه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم وفاته ، وصلي عليه صلاة الغائب[3] .

- كتاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى المقوقس حاكم مصر:

وكتب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى جُرَيْج بن مَتَّي الملقب بالمُقَوْقِس ملك مصر والإسكندرية:

(بسم الله الرحمن الرحيم من محمد عبد الله ورسوله إلى المقوقس عظيم القبط ، سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد ، فإني أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلم تسلم ، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فإن عليك إثم أهل القبط ،: ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ .

واختار لحمل هذا الكتاب حاطب بن أبي بَلْتَعَة . فلما دخل حاطب على المقوقس قال له: إنه كان قبلك رجل يزعم أنه الرب الأعلى ، فأخذه الله نكال الآخرة والأولى ، فانتقم به ثم انتقم منه ، فاعتبر بغيرك ، ولا يعتبر غيرك بك .

فقال المقوقس: إن لنا دينا لن ندعه إلا لما هو خير منه .

فقال حاطب: ندعوك إلى دين الإسلام الكافي به الله فَقْدَ ما سِواه ، إن هذا

---

(١) ما بين النواة والقمع .

(٢) زاد المعاد في هَدْي خير العباد ، ٣/ ٢٥ ، الطبقات الكبرى ، ١/ ٢٠٧ .

(٣) دلائل البيهقي ج ٢ / ٣٠٩ - ٣١٠ ، عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير ، ٢/ ٣٣٠ .

النبي دعا الناس فكان أشدهم عليه قريش، وأعداهم له اليهود، وأقربهم منه النصاري، ولعمري ما بشارة موسي بعيسي إلا كبشارة عيسي بمحمد، وما دعاؤنا إياك إلى القرآن إلا كدعائك أهل التوراة إلى الإنجيل، فكل نبي أدرك قوماً فهم أمته، فالحق عليهم أن يطيعوه، وأنت ممن أدركه هذا النبي، ولسنا ننهاك عن دين المسيح، ولكنا نأمرك به.

فقال المقوقس: إني قد نظرت في أمر هذا النبي، فوجدته لا يأمر بمزهود فيه. ولا ينهي عن مرغوب فيه، ولم أجده بالساحر الضال، ولا الكاهن الكاذب، ووجدت معه آية النبوة بإخراج الخبء والإخبار بالنجوي، وسأنظر.

وأخذ كتاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فجعله في حُقٍّ من عاج، وختم عليه، ودفعه إلى جارية له، ثم دعا كاتباً له يكتب بالعربية، فكتب إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

(بسم الله الرحمن الرحيم. لمحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط، سلام عليك، أما بعد:

فقد قرأت كتابك، وفهمت ما ذكرت فيه، وما تدعو إليه، وقد علمت أن نبياً بقي، وكنت أظن أنه يخرج بالشام، وقد أكرمت رسولك، وبعثت إليك بجاريتين، لهما مكان في القبط عظيم، وبكسوة، وأهديت بغلة لتركبها، والسلام عليك) [1].

ولما ورد جواب المقوقس إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**ضنّ الخبيث بملكه، ولا بقاء لملكه**» [2].

والجاريتان مارية، وسيرين، والبغلة دُلْدُل، بقيت إلى زمن معاوية، واتخذ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مارية سرية له، وهي التي ولدت له إبراهيم. وأما سيرين فأعطاها لحسان بن ثابت الأنصاري [3].

- وبعث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شجاع بن وهب، أخا بني أسد ابن خزيمة، برسالة إلى المنذر بن الحارث بن أبي شمر الغساني صاحب دمشق، حين عودته والمسلمين من الحديبية وقد تضمن نص الرسالة قوله: سلام على من اتبع

(١) الطبقات الكبرى ١/ ٢٦٠ - ٢٦١، أكرم العمري - السيرة النبوية الصحيحة، ٢/ ٤٥٩، الرحيق المختوم، ص ٣١٥.

(٢) الطبقات الكبرى ١/ ٢٦٠ - ٢٦١،، ابن هشام، السيرة ١/ ٢٤٧، ابن حجر - الإصابة ٣٠٠١، ٣/ ٣٣٥، ٤/ ٤٠٥، ابن كثير - البداية ٥/ ٣٤٠.

(٣) الرحيق المختوم، ص ٣١٥.

الهدى ، وآمن به ، اني أدعوك إلى أن تؤمن بالله وحده لاشريك له يُبْقي لك ملكك[1] .

ولما بلغ الكتاب رمي به وقال: من ينزع ملكي مني؟ أنا سائر إليه ، واستعد ليرسل جيشًا لحرب المسلمين ، وقال لشجاع: أخبر صاحبك بما ترى ، ثم أرسل إلى قيصر يستأذنه في ذلك ، وصادف أن كان عنده دحية بكتاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فكتب قيصر إليه يثنيه عن هذا العزم ويأمره أن يهيئ بإيلياء ما يلزم لزيارته ، فإنه بعد أن قهر الفرس نذر زيارتها ، فلما رأى الحارث كتاب قيصر صرف شجاع بن وهب بالحسنى ، وَوَصَلَه بنفقة وكسوة[2] .

- وعند مقدم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الحديبية أرسل سليط بن عمرو العامري بكتاب إلى هوذة بن علي الحنفي[3] وكان ملكًا على دين النصرانية ، فأكرمه ونزله وكتب إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما أحسن ما تدعو إليه وأجمله وأنا خطيب قومي وشاعرهم فاجعل لي بعض الأمر فأبى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولم يسلم ومات زمن الفتح[4] .

- وأرسل صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ابا العلاء الحضرمي[5] بكتابه إلى المنذر بن ساوى العبدي ، أمير البحرين بعد انصرافه من الحديبية ، ونقلت المصادر التاريخية أن المنذر قد استجاب لكتاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فاسلم ، وأسلم معه جميع العرب بالبحرين ، فأما أهل البلاد من اليهود والمجوس فإنهم صالحوا العلاء والمنذر على الجزية من كل حالم دينار[6] ، ونقل أبو عبيد القاسم بن سلام نص كتاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى المنذر بن ساوى برواية عروة بن الزبير ، وجاء فيه:

(سلام أنت ، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ، أما بعد فإن من صلى

---

(١) الطبري - تاريخ ٢/ ٦٥٢ .

(٢) ابن سعد ، الطبقات ٣/ ٣٥٦ ، ابن سيد الناس - عيون الأثر ٢/ ٢٧٠ - ٧١ ، ابن هشام - السيرة ٤/ ٣٣٩ .

(٣) كان صاحب اليمامة ، ومات بعد فتح مكة بقليل .

(٤) ابن الأثير ، الكامل ، ٢/ ٨٩ ، البلاذري ، فتوح ، ص٩٧ ، الدكتور جواد علي ، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، ٧/ ٢١٣ .

(٥) ابن سيد الناس - عيون الأثر ٢/ ٢٦٦ - ٢٦٧ ، أبو عبيد القاسم - الأموال ص/ ٣٠ ، ابن سعد في الطبقات ١/ ٢٦٣ ، القلقشندي - صبح الأعشى ٦/ ٣٦٨ ، ابن الأثير - الكامل في التاريخ ٢/ ٢٦٥ .

(٦) ابن الأثير - الكامل ٢/ ١٤٦ - ١٤٧ ، ابن سيد الناس - عيون ٢/ ٢٦٦ - ٢٦٧ .

صلاتنا، واستقبل قبلتنا، وأكل ذبيحتنا فذلك المسلم الذي له ذمة الله، وذمة الرسول، فمن أحب ذلك من المجوس فإن آمن ومن أبى فإن الجزية عليه[1].

- وفي ذي القعدة سنة ثمان من الهجرة بعث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عمرو بن العاص بكتابه إلى جيفر وعبد ابني الجلندى الأزديين بعمان[2]. وقد جاء فيه: «من محمّد النّبيّ رسول الله لعباد الله الأسبذيّين ملوك[3] عمان، وأسد عمان[4]، ومن كان منهم بالبحرين إنّهم إن آمنوا وأقاموا الصّلاة، وآتوا الزّكاة وأطاعوا الله ورسوله وأعطوا حقّ النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ونسكوا نسك المؤمنين، فإنّهم آمنون وأنّ لهم ما أسلموا عليه، غير أنّ مال بيت النّار ثنيا للّه ورسوله، وأنّ عشور التّمر صدقة، ونصف عشور الحبّ، وأنّ للمسلمين نصرهم ونصحهم، وأنّ لهم على المسلمين مثل ذلك، وأنّ لهم أرحاءهم يطحنون بها ما شاءوا[5].

وأوردت المصادر بعد ذلك عددا كبيرا من المرويات عن رسائل أخرى بعث بها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولكنها كان مختلف عليها بين المؤرخين كما أنها لم تثبت من الناحية الحديثية منها كتاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ إلى كل من أهل دما[6]، ورعية السّحيمي[7]، ومسيلمة الكذاب[8]، وعظيم بصري[9]، وبكر بن وائل[10]،

---

(١) الأموال لأبي عبيد، ص٢٨.

(٢) ابن طولون، إعلام السائلين، ص/ ٥٨، القلقشندي - صبح الأعشي ٦/ ٣٧٦.

(٣) وهم قوم من المَجُوس قيل أنهم كانوا يعبدون الخيل بالبحرين. انظر: البلاذري، فتوح، ص٨٩، تاج العروس ٢/ ٥٦٤، مادة: السبذة.

(٤) أشد عمان: قبيلة، يقال لها أزد وأسد (بالزاي والسين).

(٥) أبو عبيد - الأموال ص/ ٢٨ - ٢٩، وانظر النص في البلاذري - فتوح ص/ ١/ ٩٦، من حديث ابن عباس - رضي اللّه عنهما -، ونص فيه: «ولم تمجّسوا أولادكم، فلكم ما أسلمتم عليه، غير أن بيت النار للّه ورسوله، فإن أبيتم فعليكم الجزية» والمقصود هو أنّ خزائن بيوت النار التي ألغاها الإسلام تصبح فيئا. انظر: موسوعة نضرة النعيم، ١/ ٣٤٨.

(٦) ابن طولون - إعلام السائلين ص/ ٩٧ - ٩٨، ابن الأثير - الكامل ٢/ ٢٢٥، وعن موضع دما وهي من قرى البحرين، انظر: معجم البلدان ٢/ ٤٦١.

(٧) ابن حجر - الإصابة ١/ ٥١٦، ابن طولون - إعلام السائلين ص/ ٩٩ - ١٠١، وانظر أحمد - المسند ٥/ ٥٨٥.

(٨) ابن سعد - الطبقات ١/ ٢٧٣.

(٩) الواقدي - المغازي ٢/ ٧٥٥ - ٧٥٦.

(١٠) ابن حبان - موارد الظمآن، رقم (١٦٢٦). بسنده إلى أنس بن مالك، ابن طولون - إعلام ص/ ١٣٢، الزيلعي - نصب الراية ٤/ ٤١٩.

وبني عمرو بن حمير [١]، وجبلة بن الأيهم [٢]، وذي الكلاع بن ناكور، وذي عمرو [٣]، ومعد يكرب بن أبرهة [٤]، وأسقف بني الحارث، وأساقفة نجران [٥]، وصاحب أيلة [٦]، وابن ظبيان الأزدي الغامدي [٧]، وزعماء حمير [٨]، ونفاثة بن فروة الدئيلي ملك السماوة [٩]. ومن الممكن أن تكون هذه الرسائل صحيحة من الناحية التاريخية، ولكنها تبقى دون الاحتجاج بها في موضوعات العقيدة والشريعة، وإلى جانب ذلك فإن هذه الرسائل في مجموعها تؤكد على عالمية الإسلام وأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قام بالتبليغ على أوسع نطاق [١٠].

لقد أوضحت تلك الكتب والرسائل التي بعثها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى ذلك العالم "أنّ هذا الدين ليس دين عربٍ أو جزيرة عربية، وإنّما هو دين الإنسان حيثما كان هذا الإنسان، ونداء إلى السلطات الحاكمة أن تستجيب للدعوة أو تسمح - على الأقل - لدعاتها بممارسة نشاطها بحريّة، ولشعوبها في مقابلة هؤلاء الدعاة والاستماع إليهم لكي يختاروا عقيدتهم على بيّنةٍ، بعيداً عن الضغط والقسر والإكراه، وإنذاراً لهذه السلطات بأنها إن لم تُلَبِّ وتستجب، فإنّ جيوش الدعوة الجديدة ستنساح عمّا قريب في مشارق الأرض ومغاربها لكي تسقط التيجان، وتثلُّ العروش، وتنْزل السلطات من مناصبها العليا، وتخرج الناس بذلك وحده من ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن عبادة العباد إلى عبادة الله وحده [١١].

---

(١) ابن سعد - الطبقات ١/ ٢٦٥ من رواية الواقدي.
(٢) ابن سعد - الطبقات ١/ ٢٦٥.
(٣) ابن سعد - الطبقات ١/ ٢٦٥ - ٢٦٦.
(٤) ابن سعد - الطبقات ١/ ٢٦٦.
(٥) ابن سعد - الطبقات ١/ ٢٦٦.
(٦) ابن سعد - الطبقات ١/ ٢٧٧ - ٢٧٨.
(٧) ابن سعد - الطبقات ١/ ٢٨٠.
(٨) ابن سعد - الطبقات ١/ ٢٨٢.
(٩) ابن سعد - الطبقات ١/ ٢٨٤.
(١٠) موسوعة نضرة النعيم، ١/ ٣٤٨.
(١١) عماد الدين خليل، دراسة في السيرة، مؤسسة الرسالة، ودار النفائس، بيروت، الطبعة السادسة ١٤٠٢هـ، ص ٢٨٣ - ٢٨٦، ٢٩٣.

غزوة ذي قرد [1]:

وقعت هذه الغزوة قبل غزوة خيبر بثلاث ليال وهي أول غزوة غزاها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد الحديبية، وقبل خيبر. [2]، فقد أغار عبد الرحمن بن عيينة بن حصن الفزاري على لقاح [3] لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كانت ترعى بذي قرد، فأخذها بعد أن قتل راعيها، وحين علم سلمة بن الأكوع بما حدث فإنه أنذر إخوانه المسلمين وبادر بعد ذلك فلحق بعبد الرحمن الفزاري ورجاله، وأخذ يرميهم بنبله حتى استنقذ اللقاح من أيديهم وتهاربوا عنه حين وصله النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والمسلمون، وقد أردف النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سلمة بن الأكوع خلفه على راحلته تكريما له حتى دخلوا المدينة. [4]

وقد أبدى سلمة بن الأكوع في هذه المعركة بطولة نادرة وخاصة قبل وصول كتيبة الفرسان النبوية، حيث كان من ضمن الرعاة في منطقة الغابة، وظل بمفرده يشاغل المغيرين ويراميهم بالنبل، وكان من أعظم الرماة في عصره، وقد استخلص مجموعة من الإبل المنهوبة قبل قدوم كتيبة الفرسان.

وقد قتل المغيرون ابن أبي ذر وأسرو إمرأته وهي من غطفان أثناء الغارة في الغابة، ولكنها عادت سالمة إلى المدينة بعد أن تمكنت من الإفلات من القوم على ظهر ناقة تابعة لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقد نذرت إن نجاها الله عز وجل لتنحرن تلك الناقة، فلما أخبرت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن نذرها تبسم وقال: «**بئسما جزيتها**» (أي أنها حملتك ونجت بك من الأعداء فيكون جزاؤها النحر) ثم قال لها صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا نذر في معصية الله، ولا فيما لا تملكين**» [5].

وقد عاد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى المدينة بعد أن أمضى خمس ليالٍ خارجها [6].

---

(١) غزوة ذي قرد: موضع قرب المدينة من ناحية الشام فيه أموال لأهل المدينة بينها وبين خيبر، والقرد في الأصل الصوف الردئ ويقال لها غزوة الغابة والغابة الشجر الملتف.

(٢) ابن حجر، الفتح، ٧/ ٤٦٠ (حديث ٤٦٠)، ابن كثير، البداية والنهاية ٤/ ١٧٣.

(٣) جمع لقحه وهي النياق ذات اللبن.

(٤) البخاري - الصحيح (فتح الباري ٤/ ١٧٣، حديث ٤١٩٤)، مسلم - الصحيح ٣/ ١٤٣٢ - ١٤٤١، (حديث ١٨٠٦)، ابن كثير - البداية والنهاية ٤/ ١٧٣.

(٥) البخاري - الصحيح (فتح الباري ٤/ ١٧٣، حديث ٤١٩٤)، مسلم - الصحيح ٣/ ١٤٣٢ - ١٤٤١، (حديث ١٨٠٦)، ابن كثير - البداية والنهاية ٤/ ١٧٣.

(٦) البخاري - الصحيح (فتح الباري ٤/ ١٧٣، حديث ٤١٩٤)، مسلم - الصحيح ٣/ ١٤٣٢ - ١٤٤١، (حديث ١٨٠٦)، ابن كثير - البداية والنهاية ٤/ ١٧٣.

سرية أبان بن سعيد بن العاص:

كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كقائد عسكري يعرف جيداً أن الأعراب الضاربين علي تخوم المدينة يتحينون الفرصة للإنقضاض علي المديبة كما أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يعلم أن إخلاء المدينة تماما بعد انقضاء الأشهر الحرم ليس من الحزم قطعًا، بينما الأعراب ضاربة حولها، تطلب غرة المسلمين للقيام بالنهب والسلب وأعمال القرصنة؛ فقبل أن يخرج إلي خيبر بجيشه أراد أن يرهب كل من تسول له نفسه الهجوم علي المدينة، ولذلك أرسل سرية إلى نجد لإرهاب الأعراب تحت قيادة أبان بن سعيد، بينما ذهب هو إلى خيبر، وقد رجع أبان بن سعيد بعد قضاء ما كان واجبًا عليه، فوافي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بخيبر، وقد افتتحها، والأرجح أن هذه السرية كانت في صفر سنة ٧هـ[1].

غزوة خيبر:

لقد كان يعادي محمدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قوتين كبيرتين تلتف حولهما كل القوى في شبه جزيرة العرب، فأما القوة الأولى فهي قريش في مكة، بما لها من نفوذ أدبي ومادي، وأما القوة الثانية فهي قوة اليهود بما لها من نفوذ وذكاء وقدرة على الدس والوقيعة، وقد اتحدت مصالح القوتين على حربه والقضاء عليه. وقد استطاع محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يثبت أمام القوتين وأن يخرج من حربه معهما - مجتمعين - قويًا، حتى لقد أصبح زمام المبادأة في يده، وقد استطاع ببعد نظره، وحسن سياسته، وما أظهر من مرونة وكياسة أن يعقد مع قريش عهد الحديبية، فأمِن به قريشًا وأمن الجنوب كله؛ لكنه لم يأمن من ناحية الشمال، حيث تجمعت فلول اليهود في خيبر، وأخذت تسعى لتأليف كتلة يهودية منهم، ومن يهود وادي القرى وتيماء لغزو يثرب، وإذا كان اليهود قد استطاعوا تأليف الأحزاب حتى ساقوا لحرب المدينة عشرة آلاف مقاتل في غزوة الخندق؛ فليس ببعيد عليهم ولا ممتنع أن يستعينوا بقبائل الشمال، أو أن يستعينوا بقوى خارجية فارسية أورومية لضرب المسلمين ضربة ساحقة نهائية. واليهود أشد من قريش عداوة لمحمد؛ لأنهم أحرص على دينهم من قريش، ولأنهم أكثر منها مكرًا ودسيسة، وليس من اليسير أن يوادعهم محمد بصلح كصلح الحديبية ولا أن يطمئن إليهم، وقد سبقت بينهم خصومات لم ينتصروا في إحداها؛ فما أجدرهم أن يثأروا لأنفسهم إذا

(١) البخاري - الصحيح (فتح الباري ٧/ ٤٩٨ - ٩، حديث ٤٢٣٨).

وجدوا فرصة مناسبة أو استطاعوا أن يستعينوا بقوى خارجية . وإذن فلا بد من القضاء على قوة اليهود قضاء أخيرًا حتى لا تقوم لهم من بعد قائمة ببلاد العرب ، ولابد من أن يسارع محمد إلى ذلك ، حتى لا يتاح لهم الوقت للاستعانة بغطفان أو بغيرها من القبائل المعادية لمحمد والموالية لهم [١] .

كما كان إجلاء بني النضير عن المدينة ونزول زعمائهم في خيبر حاسما في بلورة موقف معاد ليهود خيبر تجاه المسلمين ، وهو أمر لم يكن ظاهرا قبل ذلك[٢] ، فلم يكن يهود خيبر يُظهرون العداء للمسلمين حتى نزل فيهم زعماء بني النضير ، الذي حز في نفوسهم إجلاؤهم عن ديارهم ، ولم يكن الإجلاء كافياً لكسر شوكتهم ، فقد غادروا المدينة ومعهم النساء والأبناء والأموال وخلفهم القيان يضربن الدفوف والمزامير بزهاء وفخر مارئي مثله في حي من الناس في زمانهم ، وكان من أبرز زعماء بني النضير الذين نزلوا في خيبر سلام بن أبي الحقيق وكنانة بن أبي الحقيق ، حيي بن أخطب فلما نزلوا دان لهم أهلها[٣] .

فحين نزل سلّام بن أبي الحقيق وابن أخيه كنانة بن الربيع ، وحيي بن أخطب خيبر فقد دان لهم أهلها بالولاء والطاعة [٤] ، وكان لذلك أثره في تصدي يهود خيبر للصراع ضد الإسلام والمسلمين ، حيث جرهم قادتهم الجدد إلى التصدي للإسلام بغية الانتقام وبدافع حقدهم الدفين على المسلمين ، ورغبتهم العارمة في استعادة ديارهم ومواقعهم ومصالحهم في المدينة ولذلك فقد أجلوا منها . وهكذا فقد قام يهود خيبر وزعماؤهم الجدد بدور بارز في تجميع الأحزاب وحشدهم ضد المسلمين ، بل إنهم أنفقوا أموالهم ، واستغلوا علاقاتهم مع يهود بني قريظة من أجل نصرة الأحزاب . وطعن المسلمين في ظهورهم [٥] ، وهكذا أصبحت خيبر

---

(١) مكة والمدينة في الجاهلية وعهد للرسول ، ص ٣٩٣ .

(٢) ينقل ابن هشام في السيرة (٣/ ٢٧٢) ما يفيد بأن حادثة إجلاء بني النضير عن المدينة لم يكن كافيا لكسر شوكتهم فقد غادروا المدينة ومعهم النساء والأولاد والأموال بل وحتى القيان ، وأنهم خرجوا في تظاهرة اعتداد بالنفس غريبة ، فقد «كانت العازفات خلفهم يضربن بالدفوف ويزمرن بالمزامير وهم يغادرون بخيلاء وفخر واعتداد بالنفس لم يحصل مثله في حي من الناس في زمانهم» .

(٣) السيرة النبوية الأصلية ، ١/ ٣١٩ .

(٤) ابن هشام في السيرة (٣/ ٢٧٢) .

(٥) ابن هشام – السيرة ٣/ ٢٥٣ – ٢٥٥ ، وكان ذلك سببا في العقوبة الرادعة التي أنزلت ببني قريظة بعد فشل غزوة الأحزاب ، وكذلك في إرسال سرية عبد الله بن عتيك لقتل سلام

مصدر خطر كبير على المسلمين ودولتهم النامية[1].

وقد تفرغ المسلمون بعد صلح الحديبية لتصفية خطر يهود خيبر الذي أصبح يهدد أمن المسلمين، ولقد تضمنت سورة الفتح التي نزلت بعد الحديبية وعدا إلهيًا بفتح خيبر وحيازة أموالها غنيمة، قال تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً * وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللهُ عَزِيزاً حَكِيماً * وَعَدَكُمُ اللهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً * وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللهُ بِهَا وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً﴾ [الفتح: ١٨ - ٢١] وقد ذهب كثير من المفسرين إلى أن الإشارة في قوله تعالى: ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ﴾ تعني فتح خيبر[2].

وقد كانت غزوة خيبر في المحرم من السنة السابعة للهجرة على أرجح الأقوال[3] رغم الخلاف بين مؤلفي كتب السيرة والمغازي حول ذلك[4].

فبعد الحديبية لم يقم الحبيب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالمدينة إلا قليلا حتى أمر الناس بالتجهز لغزو خيبر على ألا يغزو معه إلا من شهد الحديبية إلا أن يكون غازيًا متطوعًا ليس له من الغنيمة شيء[5].

وقد حرص محمد على ذلك حتى لا يكون معه أحد غير مطمئن إلى قوة نفسه وسمو روحه، وبعد تفكيره عن الكسب المادي؛ فليس الغنيمة قصده، وأن ما

بن أبي الحقيق (البخاري - الصحيح، فتح الباري - كتاب المغازي ٧/ ١٣٤٠).

(١) نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، ١ / ٣٤٩.

(٢) ابن كثير - التفسير ٧/ ٣٢٢، ابن حجر - فتح الباري ٧/ ٤٦٤.

(٣) سيرة ابن هشام ٢/ ١٣٠، الواقدي - مغازي ٢/ ٦٣٤، ابن حجر - فتح الباري ٧/ ٤٦٤.

(٤) يكمن مرد الخلاف في الأصل إلى الاختلاف في تحديد بداية السنة الهجرية الأولى فقد احتسب بعضهم الأشهر بين محرم وربيع الأول وهو شهر الهجرة مما نجم عن احتساب إضافة سنة واحدة كاملة إلى تواريخ الحوادث بسبب أن السنة الهلالية الشرعية تبدأ من المحرم، ومنهم من امتنع عن ذلك واهملها معتبرا ربيع الأول بداية التقويم، وبذلك فإنه أسقط تسعة أشهر من تاريخ الحوادث، وفي هذه المناسبة ذهب كل من الزهري ومالك إلى أن خيبر وقعت في المحرم من السنة السادسة (ابن عساكر - تاريخ دمشق ١/ ٣٣) في حين ذهب محمد بن سعد إلى أنها وقعت في جمادى الأولى سنة ٧ هـ (الطبقات ٢/ ١٠٦) في حين اعتبرها شيخه الواقدي في صفر أو ربيع الأول السنة السابعة (المغازي ٢/ ٦٣٤).

(٥) مغازي الواقدي ٣١٢، طبقات ابن سعد ٣/ ١٥٢.

ينتظر من قتال أمام حصون خيبر لا تثبت له إلا النفوس المطمئنة المؤمنة، التي تسامت عن المادة والرغبة فيها، فإن النفوس المتعلقة بالمادة لا تثبت أمام الامتحان العسير. ولقد كانت تجربة الأحزاب كافية ليدرك الناس أن النفوس لا تباع رخيصة أمام متاع الحياة، فإن غطفان وغيرها من الأعراب يوم الأحزاب لم يثبتوا على حصار يثرب، فقد كانوا يريدون غنيمة سهلة، فلما لم يستطيعوا تحقيقها، أو لما بدا لهم أن تحقيقها أمر يحتاج إلى الصبر وبذل النفس، تضعضعت قلوبهم، وتفرقت كلمتهم، ورضوا أن يعودوا من الغنيمة بالإياب، ومحمد لا يريد أن يضم إلى صفوفه مثل هؤلاء الناس من طلاب الغنيمة، وهو يتوقع الحصار الطويل، والقتال أمام خيبر أشد القتال.

وقاد الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جيش المسلمين وكان عدده ألفا وأربعمائة مقاتل فيهم مائتا فارس، ولم يغب عن المشاركة في غزوة خيبر أحد من أصحاب بيعة الرضوان في الحديبية سوى جابر بن عبد الله [1] سار الجيش إلى خيبر بروح إيمانية عالية على الرغم من علمهم بمنعة حصون خيبر وشدة بأس رجالها وعتادها الحربي وكانوا يكبرون ويهللون بأصوات مرتفعة، فطلب منهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يرفقوا بأنفسهم: قائلاً: «**أيها الناس تدعون سميعاً قريباً وهو معكم**» [2].

وكان سيره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالجنود ليلاً، فقد قال سلمة بن الأكوع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: خرجنا مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى خيبر فسرنا ليلاً [3] وكان عامر بن الأكوع يحدو بالقوم ويقول:

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ::: ولا تصدقنا ولا صلينا
وألقين سكينة علينا ::: وثبت الاقدام إن لاقينا
فأغفر فداء لك ما اتقينا ::: إنا إذا صيح بنا أتينا
وبالصياح عولوا علينا [4]

فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من هذا السائق؟**» قالوا عامر بن الأكوع.

---

(١) أبو داود - السنن، كتاب الخراج والفيء والأمارة ٣/ ٤١٣، الحاكم - المستدرك، ٢/ ١٣١، وكان غياب جابر بعذر مشروع (ابن هشام - السيرة النبوية ٣/ ٤٦٧).
(٢) البخاري، كتاب الدعوات رقم ٦٣٨٤.
(٣) البخاري، كتاب المغازي رقم ٤١٩٦.
(٤) البخاري، كتاب المغازي رقم ٤١٩٦.

قال: «يرحمه الله» .

قال رجل (وهو عمر بن الخطاب) [1] من القوم: وجبت يانبي الله ، لولا متعتنا به[2] .

وعندما وصل الجيش الإسلامي بالصهباء - وهي من أدنى خيبر - صلى العصر ، ثم دعا بالأزواد ، فلم يؤت إلا السويق ، فأمر به فثري ، فأكل وأكل معه الصحابة ، ثم قام إلى المغرب فمضمض ثم صلى بالصحابة ولم يتوضأ[3] .

وكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد بعث عباد بن بشر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في سرية استطلاعية يتلقط أخبار العدو ، ويستطلع إن كان هناك كمائن ، فلقي في الطريق عيناً لليهود من أشجع ، فقال: من أنت؟ قال: باغ ابتغي أبعرة ضلت لي ، أنا على إثرها . قال عباد: ألك علم بخيبر؟ قال: عهدي بها حديث ، فيم تسألني عنه؟ قال: عن اليهود؟ قال: نعم ، كان كنانة بن أبي الحقيق وهوذة بن قيس ساروا في حلفائهم من غطفان ، فاستنفروهم وجعلوا لهم ثمر خيبر سنة ، فجاءوا معدين مؤيدين بالكراع والسلاح يقودهم عتبة بن بدر ، ودخلوا معهم في حصونهم ، وفيهم عشرة آلاف مقاتل ، وهم أهل الحصون التي لا ترام ، وسلاح وطعام كثير لو حصرو لسنين لكفارهم ، وماء وأتى يشربون في حصونهم ، ما أرى لأحد بهم طاقة ، فرفع عباد بن بشر السوط فضربه ضربات ، وقال: ماأنت إلا عين لهم ، أصدقني وإلا ضربت عنقك! فقال الأعرابي: القوم مرعوبون منكم خائفون ، وجلون لما صنعتم بمن كان بيثرب من اليهود . . . وقال لي كنانة: اذهب معترضاً للطريق فإنهم لايستنكرون مكانك ، واحزرهم لنا ، وادن منهم كالسائل لهم ماتقوى به ، ثم ألق إليهم كثرة عددنا ومادتنا ، فإنهم لن يدعوا سؤلك ، وعجل الرجعة إلينا بخبرهم[4] .

وعندما وصل جيش المسلمين إلى مشارف خيبر ، قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأصحابه: قفوا . ثم قال: اللهم رب السماوات وما أظللن ، ورب الأرضين وماأقللن ، ورب الشياطين ومأأظللن ، ورب الرياح وما ذرين ، فإنا نسألك خير هذه القرية ، وخير أهلها وخير مافيها ، ونعوذ بك من شرها وشر

(١) انظر: فتح الباري (٧/ ٤٦٦) .
(٢) البخاري ، كتاب المغازي رقم ٤١٩٦ .
(٣) الصراع مع اليهود (٢/ ٣٠) .
(٤) مغازي الواقدي ، ٢/ ٦١٠ - ٦٤١ .

أهلها، وشر مافيها، أقدموا باسم الله، وكان يقولها لكل قرية دخلها[1].

ولما أدرك رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الليل أمر الجيش بالنوم على مشارف خيبر، ثم استيقظوا مبكرين، وضربوا خيامهم ومعسكرهم بوادي الرجيع، وهو وادي يقع بين خيبر وغطفان، حتى يقطعوا المدد عن يهود خيبر من قبيلة غطفان، وكانت قبيلة غطفان قد حاولت نجدة حلفائها اليهود، ولكنهم لم يشتركوا في القتال خوفا من أن يهاجم المسلمون ديارهم[2].

والحقيقة أن يهود خيبر كانوا يتوقعون من جانبهم أن يغزوهم محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولذلك كانوا دائمي النشاط والتدبير، ولقد عرض بعضهم أن يسارعوا إلى تكوين كتلة يهودية منهم ومن يهود وادي القرى وتيماء، ويهاجموا المدينة مستميتين دون اعتماد على البطون العربية التي فشلت من قبل في اقتحامها، وعرض آخرون أن يدخلوا في حلف مع محمد لعل ذلك يمحو ما ثبت من كراهيتهم في نفوس المسلمين والأنصار منهم بنوع خاص بعد ما قام به حيي واليهود من تأليب العرب للقضاء على المدينة؛ لكن النفوس من الجانبين كانت ملأى، حتى لقد سبق المسلمون قبل الخروج لخيبر بقتل سلام بن أبي الحقيق واليسير بن رزام من زعماء خيبر تمهيدًا للغزو، وحرمانًا لليهود من زعيمين كبيرين لهما رأي وتدبير، ولذلك كان اليهود على اتصال دائم بغطفان، وكان هؤلاء حلفاء دائمين لهم كحلف قريش مع الأحابيش، ولذلك استعانوا بهم أول ما ترامى إليهم اعتزام محمد غزوهم، ولكن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان سريعًا إلى الحيلولة دون اتصال غطفان باليهود، فقد سارعت جيوش المسلمين، فحالت بين غطفان وبين خيبر، على أن غطفان كانت قد بدأت تعيد النظر في موقفها من عداء محمد بعد الأحزاب، وبعد أن تأكد لديها أن الموقف قد تحول إلى جانبه وبخاصة بعد الحديبية حيث سالمته قريش، فلم يكن زعماء غطفان جادين في معاونة خيبر، ولم يعودوا حريصين على الارتباط بها، كذلك كانت القبائل

---

(١) المستدرك، ٢/ ١٠٠.

(٢) ذكر ابن إسحاق أنهم تجمعوا وساروا نحو خيبر وبعد أن قطعوا مرحلة، سمعوا خلفهم في أموالهم وأهليهم حسا فظنوا أن المسلمين قد خالفوا إليهم فرجعوا وخلوا بين الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبين خيبر (ابن هشام - السيرة ٣/ ٤٣٨)، ويقرر الواقدي وصول غطفان إلى حصون خيبر وينفرد بالقول أنهم رفضوا عرضا من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بمنحهم تمر خيبر لذلك الموسم مقابل انسحابهم، ولا يصح الاعتماد على هذه المعلومات لضعف الواقدي وعدم ورود ذلك من طرق أخرى (الواقدي - مغازي ٣/ ٦٥٠).

العربية كلها في منطقة الحجاز ونجد قد بدأت تنظر إلى الموقف نظرة جديدة ، وكان موقفها في غزوة خيبر موقف تربص وانتظار لما تسفر عنه نتيجة المعركة ، فلقد انتصر محمد على قريش وثَبَتَ لها ولكل حلفائها ، وأجبرها آخر الأمر على قبول الأمر الواقع وتوقيع صلح الحديبية . ومهما بدت قريش في ثوب من العزة بأن حالت بين محمد وبين دخول مكة ؛ فإنها قد انكشفت حين اشترطت على نفسها أن تخلي له مكة من العام القادم ثلاثة أيام يطوف بالبيت فيها ، ولم يبق من عدو شديد البأس غير خيبر ذات الحصون المنيعة[1] .

ولما أصبح الصبح خرجت اليهود بمساحيهم[2] ومكاتلهم[3] ، فلما رأوا جيش المسلمين قالوا: محمد والله ، محمد والخميس ، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الله أكبر، خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين**»[4] .

وكانت خيبر مكونة من ثلاث مناطق حربية: منطقة الوطيح والسلالم وفيها أدخل اليهود أموالهم وعيالهم ، ومنطقة الكتيبة وأدخلوا فيها ذخائرهم ، ومنطقة النطاة وفيها دخل المقاتلة ورجال الحرب وحولهم دار القتال الأول .

واستبسل اليهود استبسالًا عظيمًا في القتال ، ولم يرتدوا عن شبر من الأرض بعد قتال شديد عنيف ، واستمر القتال أيامًا عديدة حتى قلَّت المئونة عند المسلمين وأجهدوا إجهادًا شديدًا ، مما جعل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتجه إلى الحصون التي بها الأموال والمؤن ، وفي هجمات قوية استطاع أن يوفر لرجاله ما هم في حاجة شديدة إليه من التموين بفتح بعض الحصون مثل حصن الصعب بن معاذ ، فقد وجدوا فيه كثيرًا من التموينات أغنت المسلمين ومكنتهم من مواصلة القتال[5] ، وهرب اليهود إلى حصونهم وحاصرهم المسلمون ، وأخذوا في فتح حصونهم واحداً تلو الآخر ، وكان أول ماسقط من حصونهم ناعم والصعب بمنطقة النطاة وأبى النزار بمنطقة الشق ، وكانت هاتان المنطقتان في الشمال الشرقي من خيبر ، ثم حصن القموص المنيع في منطقة الكتيبة ، وهو حصن ابن أبي الحقيق ، ثم

(١) مكة والمدينة في الجاهلية وعهد للرسول ، ص ٣٩٣ .
(٢) المساحي: جمع ومفردها مسحاة ، والمسحاة المجرفة من الحديد .
(٣) المكاتل: جمع مكتل ، وهو المقطف الكبير .
(٤) البخاري ، كتاب المغازي ، رقم ٤٢١٠ .
(٥) مكة والمدينة في الجاهلية وعهد للرسول ، ص ٣٩٤ .

أسقطوا حصني منطقة الوطيح والسلالم[1].

وقد واجه المسلمون مقاومة شديدة وصعوبة كبيرة عند فتح بعض هذه الحصون، منها حصن ناعم الذي استشهد تحته محمود بن مسلمة الأنصاري، حيث ألقى عليه مرحب رحى من أعلى الحصن، والذي استغرق فتحه عشرة أيام[2]، فقد حمل راية المسلمين عند حصاره أبو بكر الصديق، ولم يفتح الله عليه، وعندما جهد الناس، قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنه سيدفع اللواء غداً إلى رجل يحبه الله ورسوله ويحب الله ورسوله، لا يرجع حتى يفتح له**»، فطابت نفوس المسلمين، فلما صلى فجر اليوم الثالث دعا علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ودفع إليه اللواء فحمله فتم فتح الحصن على يديه[3]، وكان علي يشتكي من رمد في عينيه عندما دعاه الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فبصق رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في عينيه ودعا له، فبرئ[4] ولقد أوصى الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علياً بأن يدعو اليهود إلى الإسلام قبل أن يداهمهم، وقال له: «**فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من أن تكون لك حمر النعم**»[5]. وعندما سأله علي: يارسول الله على ماذا أقاتل الناس؟ قال: «**قاتلهم حتى يشهدوا أن لاإله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فإذا فعلوا ذلك منعوا منك دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله**»[6].

وعندما حاصر المسلمين لهذا الحصن برز لهم سيده وبطلهم مرحب، وكان سبباً في استشهاد عامر بن الأكوع، ثم بارزه علي فقتله، مما أثر سلبياً في معنويات اليهود ومن ثم هزيمتهم[7].

وتوجه المسلمون إلى حصن الصَّعْب بن مُعاذ بعد فتح حصن ناعم، وأبلى حامل رايتهم الحباب بن المنذر بلاء حسناً حتى افتتحوه بعد ثلاثة أيام، ووجدوا فيه الكثير من الطعام والمتاع، يوم كانوا في ضائقة من قلة الطعام، ثم توجهوا بعده إلى حصن قلعة الزبير الذي اجتمع فيه الفارون من حصن ناعم والصعب

(١) السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، ص٥٠١.
(٢) مغازي الواقدي (٢/ ٦٥٧).
(٣) المستدرك (٣/ ٣٧)، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.
(٤) مسلم (٤/ ١٨٧٢) رقم ٢٤٠٦.
(٥) مسلم (٢/ ١٨٧١) رقم ٢٤٠٤، ٢٤٠٥.
(٦) مسلم (٢/ ١٨٧٢) رقم ١٤٠٥.
(٧) السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، ٥٠٢.

وبقية مافتح من حصون يهود - فحاصروه وقطعوا عنه مجرى الماء الذي يغذيه، فاضطروهم إلى النزول للقتال، فهزموهم بعد ثلاثة أيام وبذلك تمت السيطرة على آخر حصون منطقة النَّطاة التي كان فيها أشد اليهود[1].

وانتقل المسلمون بعد ذلك من معسكرهم في الرجيع، وعسكروا في منطقة المنزلة بعد أن تخلصوا من أهل النطاة الذين كانوا أشد وأشرس اليهود، وقد ارتفعت معنويات المسلمين كثيرا بسبب انتصاراتهم المتكررة على عدوهم وحيازتهم طعامه ومتاعه، في الوقت الذي انحطت فيه معنويات يهود خيبر الآخرين، إضافة إلى ما أصابهم من رعب وقنوط وهم يشاهدون حصون منطقة النطاة وهي تتهاوى تحت ضربات المسلمين وحصارهم.

وتوجه المسلمون لفتح منطقة الشق التي تحتوي على عدد من حصون اليهود أهمها حصن أبيّ، وحصن النزار، وبعد مبارزات فردية هجم المسلمون على حصن أبي فاقتحموه وحازوا ما فيه من طعام ومتاع، وتمكن بعض مقاتلة اليهود من الانتقال إلى حصن نزار، فدعموا مقاومته بوجه الهجوم الإسلامي، وقاتلوا بالنبال والحجارة، غير أنهم سرعان ما تهاوت مقاومتهم، وكتب الله النصر للمسلمين، وفتح الحصن، وفر من تمكن من مقاتلته إلى منطقة الكتيبة حيث تحصنوا في حصن القموص المنيع، كما التحق بعضهم بمن كان في حصني الوطيح والسلالم. وقد حاصرهم المسلمون أربعة عشر يوما، حتى طلبوا الصلح دون أن يحصل قتال[2]. وكان القتال عند حصن نزار في منطقة الشق هو آخر قتال ليهود خيبر، فقد انهارت بعد ذلك مقاومتهم، فاقتصروا على التحصن في قلاعهم وآطامهم وحصونهم وكانوا دائما ينزلون على الصلح والثابت أن يهود حصن القموص سألوا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الصلح ثم نكثوا العهد فحاز أموالهم[3]، وتواترت الروايات الصحيحة على أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد فتح خيبر عنوة فقد غلب على الأرض والنخل وألجأهم إلى حصونهم التي قاتلهم عليها أو صالحهم

(١) الواقدي - المغازي ٢/ ٦٦٣ - ٦٧٠.

(٢) الواقدي - المغازي ٦٥٨ - ٦٧١.

(٣) وكان صلحهم على أن للمسلمين ما كان عندهم من ذهب وفضة وسلاح ودروع «الصفراء والبيضاء والحلقة»، وأن لهم ما حملت ركابهم، على ألّا يكتموا ولا يغيبوا شيئا فإن فعلوه فلا ذمة لهم ولا عهد، فغيبوا مسكا لحيي بن أخطب، وحين سئلوا عنه أنكروا وجوده وادعوا أنه إنما أذهبته الحروب والنفقات، فوجد المسلمون المسك عندهم مما أسقط ذمتهم وعهدهم (أبو داود - السنن ٣/ ٤٠٨).

فنكثوا العهد [1].

ولقد أيقن يهود حصني الوطيح والسلالم بعدم جدوى المقاومة بعد أن سقطت حصونهم الشمالية المنيعة: النطاة والشق والقموص، ولذلك فإنهم سألوا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يسيّرهم وأن يحقن دماءهم، وقد وافق النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على ذلك [2]. وبذلك فقد سقطت سائر منطقة خيبر أرضها وزروعها ومياهها وحصونها بيد المسلمين [3].

فدك:

ولما بلغ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى خيبر، بعث مُحَيِّصَة بن مسعود إلى يهود فَدَك، ليدعوهم إلى الإسلام، فأبطؤوا عليه، فلما فتح الله خيبر قذف الرعب في قلوبهم، فبعثوا إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يصالحونه على النصف من فدك بمثل ما عامل عليه أهل خيبر، فقبل ذلك منهم، فكانت فدك لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خالصة؛ لأنه لم يُوجِف عليه المسلمون بخيل ولا ركاب [4].

وادي القري:

ولما فرغ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من خيبر، انصرف إلى وادي القري، وكان بها جماعة من اليهود، وانضاف إليهم جماعة من العرب.

فلما نزلوا استقبلتهم يهود بالرمي، وهم على تعبئة، فقتل مِدْعَم - عَبْدٌ لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فقال الناس: هنيئا له الجنة، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**كلا، والذي نفسي بيده، إن الشَّمْلَة [5] التي أخذها يوم خيبر من**

---

(١) البخاري - الصحيح (فتح الباري ٣/ ٣٢ حديث ١٣٦٥)، مسلم الصحيح ٣/ ١٤٢٧ (حديث ١٣٦٥)، أبو داود - السنن ٣/ ٤٠٨ - ٤١٠، كتاب الخراج (حديث ٣٠٠٩) بإسناد صحيح وقد جزم ابن القيم في زاد المعاد ٣/ ٣٥٢ - ٣٥٤ أنها فتحت عنوة، وبه قال ابن عبد البر - الدرر ص/ ٢١٤.

(٢) ابن هشام - السيرة ٣/ ٤٤٩.

(٣) لقد صح عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه أبقى يهود خيبر فيها على أن يعملوا في زراعتها وينفقوا عليها من أموالهم ولهم نصف ثمارها على أن للمسلمين حق إخراجهم منها متى ما أرادوا ذلك، وكان هذا الاتفاق بمبادرة من يهود أنفسهم انظر: البخاري - الصحيح (باب معاملة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أهل خيبر) ٧/ ٤٩٦، مسلم - الصحيح - كتاب المساقاة ٣/ ١١٨٦ - ١١٨٧، أبو داود - السنن، كتاب البيوع ٣/ ٦٩٧.

(٤) انظر: مغازي الواقدي (٢/ ٦٩٩).

(٥) الشملة: كساء يُتَغَطَّى به ويُتلفَّف فيه.

الغنائم [1]، **لم تصبها المقاسم، لتشتعل عليه نارًا**»، فلما سمع بذلك الناس جاء رجل إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بشِرَاك أو شراكين[2]، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**شراك من نار أو شراكان من نار**» [3].

ثم عَبَّأ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أصحابه للقتال، وصَفَّهم، ودفع لواءه إلى سعد بن عبادة، ورواية إلى الحُبَاب بن المنذر، ورواية إلى سهل بن حُنَيْف، ورواية إلى عباد بن بشر، ثم دعاهم إلى الإسلام فأبوا، وبرز رجل منهم، فبرز إليه الزبير بن العوام فقتله، ثم برز آخر فقتله، ثم برز آخر فبرز إليه علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقتله، حتى قتل منهم أحد عشر رجلاً، كلما قتل منهم رجل دعا من بقي إلى الإسلام.

وكانت الصلاة تحضر هذا اليوم، فيصلي بأصحابه، ثم يعود، فيدعوهم إلى الإسلام وإلى الله ورسوله، فقاتلهم حتى أمسوا، وغدا عليهم فلم ترتفع الشمس قيد رمح حتى أعطوا ما بأيديهم، وفتحها عنوة، وغَنَّمَهُ اللهُ أموالهم، وأصابوا أثاثا ومتاعًا كثيرًا.

وأقام رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بوادي القري أربعة أيام. وقسم على أصحابه ما أصاب بها، وترك الأرض والنخل بأيدي اليهود، وعاملهم عليها - كما عامل أهل خيبر- [4].

تَيْمَاء:

ولما بلغ يهود تيماء خبر استسلام أهل خيبر ثم فَدَك ووادي القُرَي، لم يبدوا أي مقاومة ضد المسلمين، بل بعثوا من تلقاء أنفسهم يعرضون الصلح، فقبل ذلك منهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأقاموا بأموالهم. وكتب لهم بذلك كتابا وهاك نصه: هذا كتاب محمد رسول الله لبني عاديا، أن لهم الذمة، وعليهم الجزية، ولا عداء ولا جلاء، الليل مد، والنهار شد، وكتب خالد بن سعيد[5].

وبذلك تساقطت سائر الحصون اليهودية أمام قوات المسلمين وقد بلغ قتلى

---

(١) الغنائم: جمع الغنيمة، وهي ما يؤخذ من المحاربين في الحرب قهرا.
(٢) الشراك: أحد السيور من الجلد والتي تمسك بالنعل على ظهر القدم.
(٣) أخرجه البخاري ١١ / ٥٩٢ (٦٧٠٧) ومسلم ١ / ١٠٨ (١٨٣ / ١١٥).
(٤) انظر: الطبري ٣/ ٩١، وفتوح البلدان: ص ٤١، وابن سيد الناس ٢/ ١٤٣، وابن كثير ٤/ ٢١٢، وزاد المعاد ٢/ ٣٥٤، والإمتاع: ص٣٣٢، وتاريخ الخميس ٢/ ٥٨.
(٥) طبقات ابن سعد، ١/ ٢٧٩، زاد المعاد، ٣/ ٣٥٤، ٣٥٥، الرحيق المختوم، ص٣٧٦.

اليهود في معارك خيبر ثلاثة وتسعين رجلاً، وسبيت النساء والذراري، منهن صفية بنت حيي بن أخطب فأعتقها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتزوجها[1].

استشهد من المسلمين خلال هذه المعارك عشرون رجلا [2]، في حين بلغ عدد قتلى يهود في معارك خيبر ثلاثة وتسعين رجلا [3]، وذلك من خذلان الله تعالى ليهود، حيث كانوا يقاتلون من خلف حصونهم وهم يدافعون عنها، في حين كان المسلمون في حالة هجوم وهم بدون حواجز أو سواتر سوى عصمة الله تعالى[4].

قسمة الغنائم:

وقد نزلت آية من الذكر الحكيم، أوضحت بأن غنائم خيبر هي خاصة بمن شهد الحديبية من المسلمين لا يشاركهم فيها أحد، قال تعالى: ﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الفتح: ١٥].

ولم يُجْلِ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أهل خيبر عنها بل أبقاهم للقيام على زراعة أرضها مناصفة؛ لأنه لم يكن لديه من العمال الزراعيين من يقوم على زراعة أرضها، وكانت منطقة غنية خصيبة، ولا شك أن اليهود أقدر على زراعتها والقيام على استثمارها، ثم إن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان في حاجة إلى رجاله؛ لأن الدولة مازالت تحوطها المخاطر وهي في أشد الحاجة إلى كل قادر على حمل السلاح. كما أنه لا يصح أن تترك مثل هذه الأرض الخصبة بدون استغلال، بينما الدولة في حاجة إلى المؤونة والمال، ثم إن قوة اليهود قد قضى عليها بعد هذا النصر، ولم تعد لهم شوكة يخاف منها.

---

(١) مسلم، كتاب النكاح (٢/ ١٠٤٥).

(٢) أورد ابن هشام في السيرة ٢٠/ ٨٠٤ - ٨٠٥ قائمة بأسماء الشهداء في خيبر، أما الواقدي فقد ذكر أنهم خمسة عشر شهيدا (المغازي ٢/ ٧٠٠).

(٣) الواقدي - المغازي ٢/ ٦٩٩، وقد سبيت نساؤهم، وكانت أم المؤمنين صفية بنت حيي بن أخطب - رضي الله عنها - أصلا ضمن سبي خيبر وقعت في سهم دحية الكلبي، فاشتراها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأعتقها ثم تزوجها في طريق العودة إلى المدينة (البخاري - الصحيح) فتح الباري حديث ٤٢١١)، وعنده أنه اصطفاها لنفسه، وانظر مسلم - الصحيح ٢/ ١٠٤٥ - ١٠٤٦ (حديث ١٣٦٥)، الحاكم - المستدرك ٤/ ٢٨.

(٤) نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ١/ ٣٥٣.

فقد سالم يهود فدك ، ويهود وادي القرى ، على ما سالم عليه يهود خيبر ، أما يهود تيماء فقد أذعنوا وقبلوا دفع الجزية بدون قتال ، وبذلك دانت اليهود كلها لسلطان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وانتهى كل ما كان لهم من سلطان في شبه الجزيرة[1] .

وقسم أرض خيبر على ستة وثلاثين سهمًا ، جمع كل سهم مائة سهم ، فكانت ثلاثة آلاف وستمائة سهم ، فكان لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والمسلمين النصف من ذلك وهو ألف وثمانمائة سهم ، لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سهم كسهم أحد المسلمين ، وعزل النصف الآخر ، وهو ألف وثمانمائة سهم ، لنوائبه وما يتنزل به من أمور المسلمين ، وإنما قسمت على ألف وثمانمائة سهم لأنها كانت طعمة من الله لأهل الحديبية من شهد منهم ومن غاب ، وكانوا ألفا وأربعمائة ، وكان معهم مائتا فرس ، لكل فرس سهمان ، فقسمت على ألف وثمانمائة سهم ، فصار للفارس ثلاثة أسهم ، وللراجل سهم واحد [2] .

وبالرغم من أن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد أبقى يهود خيبر في أرضهم على أن يعملوا في زراعتها وينفقوا عليها من أموالهم ولهم نصف ثمارها ، ولكن على أن للمسلمين حق إخراجهم منها متى أرادوا .

وهنا تظهر براعة سياسية جديدة في عقد الشروط ، فإن بقاء اليهود في الأرض يفلحونها يوفر للمسليمن الجنود المجاهدين في سبيل الله ، ومن جهة أخرى فإن اليهود هم أصحاب الأرض ، وهم أدرى بفلاحتها من غيرهم ، فبقاؤهم فيها يعطي ثمرة أكثر وأجود وبخاصة وأنهم لن يأخذوا أجراً ، ولكنهم سيأخذون نصف مايخرج من الأرض قلّ أو كثر .

وقد ضمن الرسول بشرط إجلائهم متى شاء المسلمون إخضاعهم وكسر شوكتهم ، لأنهم يعلمون إذا فعلوا شيئاً يضر بالمسلمين يطردونهم منها ، ولا يعودون إليها أبداً .

وقد حدث ذلك فعلاً في عهد سيدنا عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حيث اعتدوا على عبدالله بن عمر ففدعوا يديه من المرفقين ، وكانوا قبل ذلك في عهد الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اعتدوا على عبدالله بن سهل فقتلوه فلما تحقق عمر من غدرهم

---

(١) ابن هشام ٣/ ٣٧٨ - ٤١٠ . الواقدي ٣١٢ - ٣٢٠ . ابن سعد ٣/ ١٥٢ - ١٦٣ . إمتاع ١/ ٣١٠ - ٣٣٢ .

(٢) أبو داود - السنن ٣/ ٤١٣ ، الحاكم - المستدرك ٢/ ١٣١ ، البخاري - الصحيح - كتاب فرض الخمس ٦/ ٢٣٧ ، مسلم - الصحيح كتاب فضائل الصحابة ٤/ ١٩٤٦) .

وخيانتهم أمر بإجلائهم[1].

ولقد أحدث فتح خيبر وفدك ووادى القرى وتيماء دويًا هائلا في الجزيرة العربية بين مختلف القبائل، وقد أصيبت قريش بالغيظ والكآبة إذ لم تكن تتوقع ذلك، وهي تعلم مدى حصانة قلاع يهود خيبر، وكثرة مقاتلتهم، ووفرة سلاحهم ومتاعهم ومئونتهم[2]، أما القبائل العربية الأخرى المناصرة لقريش فقد أدهشها خبر هزيمة يهود خيبر، وخذّلها انتصار المسلمين الساحق، ولذلك فإنها جنحت إلى مسالمة المسلمين وموادعتهم بعد أن أدركت عدم جدوى استمرارها في عدائهم، مما فتح الباب واسعا لنشر الإسلام في أرجاء الجزيرة العربية، بعد أن تعززت مكانة المسلمين في أعين أعدائهم إلى جانب ما تحقق لهم من خير وتعزيز لوضعهم الاقتصادي[3].

وبانتهاء سلطان اليهود تغير الموقف تغيرًا نهائيًا في جزيرة العرب لصالح المسلمين، وأتم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خطته لإحكام الحصار حول مكة، والحقيقة أن مكة بعد غزوة خيبر أصبحت كالثمرة الناضجة تستعد للسقوط.

قدوم جعفر بن أبي طالب ومن معه من الأشعريين من الحبشة:

وفي نفس وقت فتح خيبر عاد مهاجرة الحبشة إلى المدينة، وتوجهوا إلى خيبر حين علموا بأمر غزوة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إليها، غير أنهم وصلوا إليها بعد الفتح وكان عددهم يتراوح بين ٥٢ - ٥٣ بقيادة جعفر بن أبي طالب، فقبل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بين عيني جعفر بن أبي طالب والتزمه وقال: «**ما أدري بأيهما أنا أسر بفتح خيبر أم بقدوم جعفر**»، وكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد أرسل في طلبهم من النجاشي، عمرو بن أمية الضمري، فحملهم في سفينتين ووافق قدومهم عليه يوم فتح خيبر، وقد رافق جعفر في قدومه أبو موسى الأشعري ومن كان بصحبته من الأشعريين، فعن أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: بلغنا مخرج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ونحن باليمن، فخرجنا مهاجرين إليه أنا وأخوان لي أنا أصغرهم

---

(١) رواه البخاري مختصراً في صحيحه، كتاب الديات، باب القسامة ٨/ ٤٢، ومسلم في كتاب القسامة والمحاربين والقصاص والديات، باب القسامة حديث [١٦٦٩] ٢/ ١٢٩١، وانظر أيضا: السيرة النبوية لابن هشام، ٤/ ٣٢٧، تاريخ الطبري، ٢/ ١٤٠، السيرة النبوية الصحيحة (١/ ٣٢٦).

(٢) أحمد - المسند ٣/ ١٣٨، الهيثمي - موارد الظمآن ص/ ١٤٣.

(٣) نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ١/ ٣٥٣.

أحدهم أبو بردة، والآخر أبو رهم، إما قال: في بضع، وإما قال في ثلاثة وخمسين أو اثنين وخمسين رجلاً من قومي، فركبنا السفينة فألقتنا سفينتنا إلى النجاشي بالحبشة، فوافقنا جعفر بن أبي طالب فأقمنا جميعاً، فوافقنا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين افتتح خيبر[1].

وقد أشركهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في مغانم خيبر بعد أن استأذن من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمُ الذين شاركوا في فتحها[2].

لقد مكث جعفر وإخوانه في الحبشة بضعة عشر عاماً، نزل خلالها قرآن كثير، ودارت معارك شتى مع الكفار، وتقلب المسلمون قبل الهجرة العامة وبعدها في أطوار متباينة، حتى ظن البعض أن مهاجري الحبشة - وقد فاتهم هذا كله - أقل قدراً من غيرهم[3].

فعن أبي موسى: . . . كان أناس يقولون لنا سبقناكم بالهجرة، ودخلت أسماء بنت عميس على حفصة زوج النبي زائرة - وكانت هاجرت إلى النجاشي فيمن هاجر - فدخل عمر على حفصة وأسماء عندها، فقال حين رأى أسماء: من هذه؟ قالت أسماء ابنة عميس. قال عمر: الحبشية هذه؟ البحرية هذه؟ قالت: أسماء: نعم! قال عمر: سبقناكم بالهجرة فنحن أحق برسول الله منكم! فغضبت وقالت: كلا والله، كنتم مع رسول الله يطعم جائعكم ويعظ جاهلكم. وكنا في أرض البعداء البغضاء بالحبشة! وذلك في الله وفي رسول الله، وايم الله لا أطعم طعاماً ولا أشرب شراباً حتى أذكر ماقلت لرسول الله وأسأله، والله لا أكذب ولا أزيغ ولا أزيد عليه. فلما جاءت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالت: كذا وكذا. قال: أليس بأحق بي منكم، وله ولأصحابه هجرة واحدة ولكم أنتم - أهل السفينة - هجرتان[4].

فأخذت أسماء هذا الوسام ووزعته على جميع أعضاء الوفد حيث كانوا[5] كما قالت: يأتوني أرسالاً يسألونني عن هذا الحديث، مامن الدنيا شيء هم به

---

(١) البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة خيبر رقم ٤٢٣٠، ٤٢٣١.

(٢) البخاري - الصحيح - كتاب فرض الخمس ٦/ ٢٣٧، مسلم - الصحيح كتاب فضائل الصحابة ٤/ ١٩٤٦).

(٣) فقه السيرة للغزالي، ص٣٥٠.

(٤) البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة خيبر، رقم ٤٢٣١.

(٥) فقه السيرة للغضبان، ص٥٣٥.

أفرح ولا أعظم في نفوسهم مما قال لهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ [1].

- مشاهد من غزوة خيبر:

- إن تصدق الله يصدقك:

صح أن أعرابيًا شهد فتح خيبر وأراد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أثناء المعركة أن يقسم له قسما وكان غائبا، فلما حضر أعطوه ما قسم له، فجاء به إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: ما على هذا اتبعتك، ولكني اتبعتك على أن أرمى ههنا - أشار إلى حلقه - بسهم فأدخل الجنة. قال: «**إن تصدق الله يصدقك**». فلبثوا قليلا، ثم نهضوا في قتال العدو فأتى به يحمل قد أصابه سهم حيث أشار، فكفنه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بجبته وصلى عليه ودعا له، فكان مما قال: «**اللّهمّ هذا عبدك خرج مهاجرا في سبيلك فقتل شهيدا، وأنا عليه شهيد**» [2].

إن هذا الموقف شاهد قوي على ما يبلغه الإيمان من نفس أعرابي ألف حياة الغزو والسلب والنهب في الجاهلية فإذا به لا يقبل ثمنا لجهاده إلّا الجنة، فكيف يبلغ الإيمان إذا من نفوس الصفوة من أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟.

- الراعي الأسود:

جاء عبد حبشي أسود من أهل خيبر كان في غنم لسيده فلما رأى أهل خيبر قد أخذوا السلاح سألهم ما تريدون؟ قالوا: نقاتل هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي، فوقع في نفسه ذكر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأقبل بغنمه حتى عهد لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلما جاءه قال: ماذا تقول، وماذا تدعو إليه؟ قال: «**أدعو إلى الإسلام وأن تشهد أن لا إله إلا الله وأني محمد رسول الله وأن لا نعبد إلا الله**» قال العبد: فماذا إلي إن أنا شهدت وآمنت بالله؟ قال: «**لك الجنة إن مت على ذلك**» فأسلم، قال: يا نبي الله، إن هذه الغنم عندي أمانة، قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أخرجها من عسكرنا وارمها بالحصباء**[3] **فإن الله سيؤدي عنك أمانتك**» ففعل فرجعت الغنم إلى سيدها، فعرف اليهودي أن غلامه قد أسلم، فقام رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الناس، فوعظهم وحضهم على الجهاد، فلما

---

(١) مسلم، فضل الصحابة، رقم ٢٥٠٢، ٢٥٠٣.

(٢) أخرجه النسائي (٤/ ٦٠)؛ الطحاوي في شرح معاني الآثار (١/ ٢٩١)؛ والحاكم (٣/ ٥٩٥)؛ والبيهقي (٤/ ١٥، ١٦)؛ وإسناده صحيح نقلا عن زاد المعاد (٣/ ٣٢٤).

(٣) الحصباء: الحجارة الصغيرة.

التقى المسلمون واليهود قتل فيمن قتل العبد الأسود واحتمله المسلمون إلى معسكرهم فأدخل في الفسطاط [1] فزعموا أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اطلع في الفسطاط، ثم أقبل على أصحابه، وقال: «**لقد أكرم الله هذا العبد، وساقه إلى خيبر، ولقد رأيت عند رأسه اثنتين من الحور العين**[2]**، ولم يصل لله سجدة قط**»[3].

- بطل لكنه إلى النار:

كان في جيش المسلمين بخيبر رجل لايدع للمشركين شاذة ولا فاذة[4] إلا أتبعها يضربها بسيفه، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أما إنه من أهل النار**». فقالوا: أينا من أهل الجنة إن كان من أهل النار؟ فقال رجل: والله لايموت على هذه الحال أبداً، فاتبعه حتى جرح، فاشتدت جراحته واستعجل الموت، فوضع سيفه بالأرض وذبابه [5] بين ثديه، ثم تحامل عليه فقتل نفسه. فجاء رجل إلى رسول الله فقال: أشهد إنك رسول الله، قال: «وماذاك» فأخبره. فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس، وإنه من أهل النار، وإنه ليعمل بعمل أهل النار فيما يبدو للناس وإنه لمن أهل الجنة**»[6].

- أرأيت إن وجدناه عندك أقتلك؟:

وعلى رغم المعاهدة التي عقدها يهود خيبر مع الحبيب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلا أن ابنا أبي الحقيق غيبا مالا كثيرا، غيبا مَسْكًا [7] فيه مال وحُلي لحيي بن أخطب، كان احتمله معه إلى خيبر حين أجليت النضير.

قال ابن إسحاق: وأتي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بكِنانة الربيع، وكان عنده كنز بني النضير، فسأله عنه، فجحد أن يكون يعرف مكانه، فأتي رجل من اليهود فقال: إني رأيت كنانة يطيف بهذه الخربة كل غداة [8]، فقال رسول الله

---

(١) الفسطاط: بيت من شعر، وضرب من الأبنية، والجماعة من الناس.
(٢) الحور العين: نساء أهل الجنة.
(٣) زاد المعاد (٣/ ٣٢٣، ٣٢٤)، السيرة الحلبية (٣/ ٣٩).
(٤) الشاذ: الذي يفارق الجماعة، الفاذ: الذي لم يختلط بالجماعة.
(٥) ذبابُ السَّيْف: حَدُّ طَرَفِه الذي بين شَفْرَتَيْهِ وما حَوْلَه من حَدَّيْهِ.
(٦) البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة خيبر رقم ٤٢٠٢، ٤٢٠٧.
(٧) المسك: الجلد عامة أو جلد السلخة خاصة (السلخة ولد الشاة).
(٨) الغداة: ما بين الفجر وطلوع الشمس.

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لكنانة: «أرأيت إن وجدناه عندك أأقتلك؟» قال: نعم، فأمر بالخربة، فحفرت، فأخرج منها بعض كنزهم، ثم سأله عما بقي، فأبي أن يؤديه. فدفعه إلى الزبير، وقال: عذبه حتى نستأصل ما عنده، فكان الزبير يقدح بزند في صدره حتى أشرف على نفسه، ثم دفعه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى محمد بن مسلمة، فضرب عنقه بمحمود بن مسلمة - وكان محمود قتل تحت جدار حصن ناعم، ألقي عليه الرحي، وهو يستظل بالجدار فمات -[1].

- بهذا قامت السماوات والأرض:

وبعد الاتفاق الذي تم بين رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويهود خيبر على إصلاح الأرض جعل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عبدالله بن رواحة يأتيهم كل عام فيخرصها عليه ثم يضمّنهم الشطر. فشكوا إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شدة خرصه[2]، وأرادوا أن يُرْشُوه فقال: ياأعداء الله تطعموني السُّحت؟ والله لقد جئتكم من عند أحب الناس إلي، ولأنتم أبغض الناس إليَّ من عدتكم من القردة والخنازير، ولا يحملني بغضي إياكم وحبي إياه على أن لا أعدل عليكم. فقالوا: بهذا قامت السماوات والأرض[3].

قال الحافظ بن عبد البرّ: وفيه أنّ المؤمن وإن أبغض في الله لا يحمله بغضه على ظلم من أبغضه».

لقد امتثل عبد الله بن رواحة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ للمنهج الرّبانيّ الّذي يكفل العدل بين النّاس، والّذي يعطي كلّ ذي حقّ حقّه من المسلمين وغير المسلمين. ففي هذا الحقّ يتساوى عند الله المؤمنون وغير المؤمنين. قال تعالى: ﴿فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً﴾ [النساء: ١٣٥]. وقد أقرّ اليهود صنيع عبد الله بن رواحة لعلمهم أنّ العدل قد أمر الله عزّ وجلّ - به النّاس جميعا، لأنّه واجب لكلّ أحد على كلّ أحد في جميع الأحوال. والظّلم لا يباح منه شيء بحال، ولذا قالوا لعبد الله بن رواحة: (هذا الحقّ به تقوم السّماء والأرض): أي بهذا الحقّ والعدل قامت السماوات فوق الرّؤوس بغير عمد،

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ٢/ ٣٣٦، تاريخ الطبري، ٢/ ١٣٨.

(٢) الخرص: الحَرز والحدس والتخمين. وخرصّ العدد قدره تقديراً بظن لا إحاطة.

(٣) أحمد (٣/ ٣٦٧)، الهيثمي، مجمع الزوائد (٤/ ١٢١)، موطأ مالك (٤٣٩)، وأبي داود (٣٤٧)، وابن ماجة (١/ ٥٥٧ - ٥٥٨).

والأرض استقرّت على الماء تحت الأقدام [1].

فالعداوة بين المسلمين واليهود قائمة، وكيد اليهود للمسلمين قائم واضح للعيان.

إلّا أنّ الإسلام ما جاء ليظلم أحد! وما جاء ليجاري الجاهليّات فيما تقع فيه من انحراف. وإنّما جاء لينشأ الإنسان الصّالح في الأرض.

إنّها ليست حادثا عارضا يمرّ فينسى، إنّها درس هائل في التّربية على الأفق الأعلى لا يقدّمه إلّا الإسلام، ولا يقدر عليه إلّا المسلمون. وإنّه لدرس في التّطبيق العمليّ للإنصاف الإلهيّ والعدل الرّبّانيّ الّذي لم تعرفه أمة في التّاريخ، إلّا الأمّة الّتي ربّاها القرآن الكريم.

- زواج رسول الله من صفية بنت حيي بن أخطب:

لما فتح المسلمون القموص - حصن بني أبي الحقيق - كانت صفية في السبي، فأعطاها دِحية الكلبي، فجاء رجل إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال يارسول الله: أعطيت دحية صفية بنت حيي سيدة قومها، وهي ماتصلح إلا لك، فاستحسن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ماأشار به الرجل، وقال لدحية، خذ جارية من السبي غيرها، ثم أخذها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأعتقها وجعل عتقها صداقها، ثم تزوجها بعد أن طهرت من حيضتها وبعد أن أسلمت[2].

ولم يخرج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من خيبر حتى طهرت صفية من حيضها، فحملها وراءه، فلما صار إلى منزل على ستة أميال من خيبر مال يريد أن يعرّس بها فأبت عليه، فوجد في نفسه، فلما كان بالصهباء نزل بها هناك فمشطتها أم سليم، وعطرتها، وزفتها إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبنى بها، فسألها: «**ماحملك على الامتناع من النزول أولاً**» فقالت: خشيت عليك من قرب اليهود، فعظمت في نفسه[3].

فهي تعرف قومها ومكرهم.. فخشيت على رسول الله من مكرهم.. وهذا التصرف الذي أبدته صفية، انتبه له عقلاء الصحابة.. فقد روى ابن هشام في

---

(١) عون المعبود شرح سنن أبي داود (٣/ ٢٧٣).

(٢) البخاري ٧/ ٣٦٠ في المغازي: باب غزوة خيبر، صحيح مسلم ٤/ ١٤٥ - ١٤٦ كتاب النكاح، السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ٣٨٣).

(٣) السيرة - ابن هشام ٣/ ٣٥٠.

السيرة: أن أبا أيوب الأنصاري بات يقظان ساهرا متوشحا بسيفه ، يطيف بالقبة التي دخل فيها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على صفية ، فلما أصبح رسول الله سمع حركته ورأى مكانه فسأله: مالك يا أبا أيوب؟

أجاب: (يا رسول الله خفت عليك من هذه المرأة ، قد قتلت أباها وزوجها وقومها ، وكانت حديثة عهد بكفر ، فخفتها عليك) .

فدعا له الرسول وقال: «**اللهم احفظ أبا أيوب كما بات يحفظني**» [1] .

وينظر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في وجه صفية فيرى بعينها خضرة (سوادا) فقال لها: «**ما هذه الخضرة بعينيك؟**» قالت: (قلت لزوجي كنانة بن الربيع - في ليلة عرسي - إني رأيت فيما يرى النائم كأن قمرا وقع في حجري ، فلطمني) . وقال: «**أتريدين ملك يثرب؟**» [2] .

لقد صدق الله رؤيا صفية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ، وأكرمها بالزواج من رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وأعتقها من النار ، وجعلها أماً للمؤمنين ، وزوجاً في الجنة لخاتم الأنبياء والمرسلين [3]

ولقد كان لصفية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا مكانا في قلب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فروي عنها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنها بلغها عن عائشة وحفصة أنهما قالتا: نحن أكرم على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من صفية ، نحن أزواجه وبنات عمه ، فدخل عليها صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأخبرته ، فقال: «**ألا قلت وكيف تكونا خيراً مني، وزوجي محمد، وأبي هارون، وعمي موسى**» [4] .

- الحجاج بن علاط السلمي وارجاع أمواله من مكة:

عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : قال: لما افتتح رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خيبر قال الحجاج بن علاط: يارسول! إن لي بمكة مالا وإن لي بها أهلاً ، وإني أريد أن أكتبهم ، فأنا في حل [5] إن أنا نلت منك؟ [6] وقلت شيئاً؟ فأذن له رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يقول مايشاء ، فأتى امرأته حين قدم ، فقال: اجمعي لي ماكان

---

(١) السيرة - ابن هشام ٣/ ٣٥٠ .
(٢) السيرة - ابن هشام ٢/ ١٦٥ . السنن الكبرى (٩/ ١٣٨) .
(٣) الصراع مع اليهود (٣/ ١٢٢) .
(٤) شرح المواهب اللدنية (٢/ ٢٣٣) .
(٥) فلان في حل: أبرأ ذمته وليس عليه لوم .
(٦) نال من غيره: ذكره بسوء من سب أو شتم .

عندك، فإني أريد أن اشتري من غنائم [1] محمد وأصحابه، فإنهم قد استبيحوا [2]، أو أصبت أموالهم، قال: ففشا ذلك في مكة فانقمع المسلمون، وأظهر المشركون فرحاً وسروراً، قال: وبلغ الخبر العباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فعقر، وجعل لايستطيع أن يقوم.

قال معمر: فأخبرني عثمان الجزري عن مقسم قال: فأخذ ابناً له يشبه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقال له قثم، فاستلقى فوضعه على صدره وهو يقول:

حبِّي قثم، حبِّي قثم ::: شبيه ذي الأنف الأشم [3]

نبي رب ذي النعم ::: برغم أنف من رغم

قال ثابت بن أنس: ثم أرسل غلاماً له إلى الحجاج: ويلك [4] ماجئت به؟ وماذا تقول؟ فما وعد الله خير مما جئت به، قال: فقال الحجاج بن علاط لغلامه: اقرأ على أبي الفضل السلام، وقل له: فيخل لي في بعض بيوته لآتيه، فإن الخبر على مايسره، فجاءه غلامه، فلما بلغ باب الدار قال: أبشر يا أبا الفضل، قال: فوثب العباس فرحاً، حتى قبل بين عينيه، فأخبره بما قال الحجاج، فأعتقه. قال: ثم جاء الحجاج فأخبره أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد افتتح خيبر، وغنم أموالهم، وجرت سهام الله في أموالهم، واصطفى [5] رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صفية بنت حيي، فأخذها لنفسه وخيرها أن يعتقها، وتكون زوجته، ولكني جئت لمالي، وإني استأذنت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأذن لي، فأخف عليّ يا أبا الفضل ثلاثاً، ثم اذكر ماشئت. فجمعت امرأته ماكان عندها من حلي ومتاع [6] فجمعه، فدفعته إليه ثم انشمر به، فلما كان بعد ثلاث أتى العباس امرأة الحجاج، فقال: مافعل زوجك؟ فأخبرته أنه ذهب يوم كذا وكذا، وقالت: لايخزيك الله يا أبا الفضل، لقد شق علينا [7] الذي بلغك، قال: أجل، لايخزيني الله، ولم يكن بحمد الله إلا ماأحببنا، فتح الله خيبر على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وجرت فيها سهام

---

(١) الغنائم: جمع الغنيمة، وهي ما يؤخذ من المحاربين في الحرب قهرا.
(٢) استبيحوا: انتهكت حرماتهم وأموالهم.
(٣) الأشم: المرتفع الأنف مع طوله.
(٤) الويل: الحزن والهلاك والعذاب وقيل وادٍ في جهنم.
(٥) اصطفى: فضّل واختار.
(٦) المتاع: كل ما يُنْتَفَعُ به وَيُسْتَمْتَعُ، أو يُتَبَلَّغُ بِهِ ويتزَوَّدُ من سلعة أو مال أو زوج أو أثاث أو ثياب أو مأكل وغير ذلك.
(٧) شق: صعب.

الله، واصطفى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صفية بن حيي لنفسه، فإن كانت لك حاجة في زوجك فالحقي به، قالت: أظنك والله صادقاً، قال فإني صادق، الأمر على ماأخبرتك فقال: ثم ذهب حتى أتى مجالس قريش، وهم يقولون إذ امر بهم: لا يصيبك إلا خير يا أبا الفضل، قال لهم: لم يصبني إلا خير بحمدالله، قد أخبرني الحجاج بن علاط أن خيبر قد فتحها الله على رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وجرت فيها سهام الله، واصطفى صفية لنفسه، وقد سألني أن أخفي عليه ثلاثاً، وإنما جاء ليأخذ ماله، وماكان له من شيء هاهنا، ثم يذهب، قال: فرد الله الكآبة التي كانت بالمسلمين على المشركين، وخرج المسلمون ومن كان دخل بيته مكتئباً حتى أتوا العباس، فأخبرهم الخبر وسر المسلمون، ورد الله - تبارك وتعالى - ماكان من كآبة أو غيظ أو حزن على المشركين[1].

وفي هذا الخبر فقه غزير منه:

- جواز كذب الإنسان على نفسه وعلى غيره، إذا لم يتضمن ضرر ذلك الغير إذا كان يُتوصل بالكذب إلى حقه، كما كذب الحجاج بن علاط على المسلمين، حتى أخذ ماله من مكة من غير مضرة لحقت المسلمين من ذلك الكذب، وأما مانال من بمكة من المسلمين من الأذى والحزن، بمفسدة يسير في جنب المصلحة التي حصلت بالكذب، ولاسيما تكميل الفرح والسرور، وزيادة الايمان الذي حصل بالخبر الصادق بعد هذا الكذب، فكان الكذب سبباً في حصول هذه المصلحة الراجحة[2].

- قصة الشاة المسمومة:

قال أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لما فتحت خيبر، أهديت لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شاة فيها سم، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اجمعوا لي من كان هاهنا من اليهود**»، فجمعوا له، فقال لهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إني سائلكم عن شيء فهل أنتم صادقي عنه؟**».

فقالوا: نعم يا أبا القاسم. فقال لهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من أبوكم؟**». قالوا: أبونا فلان. فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**كذبتم بل أبوكم**

---

(١) أخرجه أحمد في المسند: (٣/ ١٣٨ - ١٣٩)؛ عبدالرزاق في المصنف رقم ٩٧٧١، وأبو يعلى برقم ٣٤٧٩، والبيهقي في السنن (٩/ ١٥١)؛ والدلائل (٤/ ٥٢٦٦ - ٥٢٦٧).
(٢) السيرة النبوية - دروس وعبر في تربية الأمة وبناء الدولة، ٢ / ٤٠٠.

فلان» . فقالوا: صدقت وبررت . فقال: «هل أنتم صادقي عن شيء إن سألتكم عنه؟» . فقالوا: نعم يا أبا القاسم ، وإن كذبناك عرفت كذبنا كما عرفته في ابينا . قال لهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «من أهل النار؟» .

فقالوا: نكون فيها يسيراً ثم تخلفوننا .

فقال لهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أخسؤوا فيها والله لانخلفكم فيها أبداً» .

ثم قال لهم: «فهل أنتم صادقي عن شيء إن سالتكم عنه؟» .

قالوا: نعم . فقال: «هل جعلتم في هذه الشاة سماً» .

فقالوا: نعم . فقال: «ماحملكم على ذلك؟» .

فقالوا: اردنا إن كنت كاذباً نستريح منك ، وإن كنت نبياً لم يضرك[1] .

قال: صاحب بلوغ الأماني عن الشاة المسمومة: أهدتها إليه زينب بنت الحارث اليهودية امرأة سلام بن مشكم ، وكانت سألت أي عضو من الشاة أحب إليه؟ فقيل: الذراع ، فاكثرت فيها من السم ، فلما تناول الذراع لاك منها مضغة ، ولم يسغها ، وأكل منها معه بشر بن البراء فأساغ لقمة ومات منها[2] .

وفي رواية: فتناول الذراع فأنتهش منها ، وتناول بشر عظماً آخر ، فانتهش منه ، فلما أرغم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ارغم بشر مافي فيه ، فقال رسول الله: «ارفعوا أيديكم، فإن كتف الشاة تخبرني أني قد بغيت فيها» ، فقال بشر بن البراء: والذي أكرمك لقد وجدت ذلك في أكلتي التي أكلت ، ولم يمنعني أن ألفظها إلا أني كرهت أن أنغص طعامك ، فلما أكلت مافي فيك لم أرغب بنفسي عن نفسك ، ورجوت أن لا تكون رغمتها وفيها بغي[3] .

وقال ابن القيم: وجيء بالمرأة إلى رسول الله ، فقالت: أردت قتلك ، فقال: «ماكان الله ليسلطك علي» ، قالوا: ألا تقتلها؟ قال: «لا» ، ولم يتعرض لها ، ولم يعاقبها ، واحتجم على الكاهل ، وأمر من أكل منها فاحتجم ، فمات بعضهم[4] .

---

(١) البخاري ، كتاب الجهاد والسير (٤/ ٧٩) رقم ٣١٦٩ .

(٢) بلوغ الأماني بحاشية الفتح الرباني (٢١/ ١٢٣) .

(٣) البيهقي في الدلائل ٤ / ٢٦٣ ، مغازي رسول الله ، لعروة بن الزبير ، ص١٩٨ ، الطبقات الكبرى لابن سعد ٢/ ٢٠١ - ٢٠٣ .

(٤) زاد المعاد (٣/ ٣٣٦) .

لقد كان السم الذي وضعته اليهودية قوياً جداً إذ مات بشر بن البراء فوراً، وبقي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعاوده ألم السم حتى انتقل إلى الرفيق الأعلى بعد أن بلّغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة وتركها على المحجة البيضاء ليلها كنهارها، وقد روى الإمام البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ في صحيحه عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول في مرض موته الذي مات فيه: «**ياعائشة، ما أزال أجد ألم الطعام الذي أكلت بخيبر، فهذا أوان وجدت انقطاع أبهري**[1] **من ذلك السم**»[2].

وما تزال هذه حالهم وهذه طبيعتهم في المجتمع الإسلامي على مدار التاريخ. على الرغم من أن المجتمع الإسلامي هو المجتمع الوحيد الذي آواهم، ورفع عنهم الاضطهاد، وعاملهم بالحسنى، ومكن لهم من الحياة الرغيدة فيه، ولكنهم كانوا دائماً كما كانوا في عهد الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عقارب وحيات وثعالب وذئاباً تضمر المكر والخيانة.. ولا يتوانون لحظة عن المكر والغدر إن قدروا على التنكيل الظاهري بالمسلمين فعلوا، وإلا لجؤوا في حال ضعفهم إلى المؤامرات والدسائس ونصبوا الشباك للمسلمين وأقاموا لهم المصائد، وتآمروا مع كل عدو للإسلام والمسلمين، لينزلوا بهم المصائب ويتحينون الفرص للانقضاض عليهم قساة جفاة لا يرحمون ولا يرعون فيهم عهداً ولا ميثاقاً.. هذه هي حقيقة اليهود.

غزوة ذات الرقاع:

ولما فرغ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من كسر جناحين قويين من أجنحة الأحزاب الثلاثة تفرغ تمامًا للالتفات إلى الجناح الثالث، أي إلى الأعراب القساة الضاربين في فيافي نجد، والذين ما زالوا يقومون بأعمال النهب والسلب بين آونة وأخري.

ولما كان هؤلاء البدو لا تجمعهم بلدة أو مدينة، ولم يكونوا يقطنون الحصون والقلاع، كانت الصعوبة في فرض السيطرة عليهم وإخماد نار شرهم تمامًا تزداد بكثير عما كانت بالنسبة إلى أهل مكة وخيبر؛ ولذلك لم تكن تجدي فيهم إلا حملات التأديب والإرهاب، وقام المسلمون بمثل هذه الحملات مرة بعد أخري.

ولفرض الشوكة - أو لاجتماع البدو الذين كانوا يتحشدون للإغارة على

(١) ابهري: عرق مستبطن بالظهر متصل بالقلب إذا انقطع مات صاحبه.
(٢) صحيح البخاري بشرح فتح الباري (٩/ ١٥٩ - ١٩٦).

أطراف المدينة - قام رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بحملة تأديبية عرفت بغزوة ذات الرقاع [١].

وعامة أهل المغازي يذكرون هذه الغزوة في السنة الرابعة، ولكن حضور أبي موسى الأشعري وأبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في هذه الغزوة يدل على وقوعها بعد خيبر، والأغلب أنها وقعت في شهر ربيع الأول سنة ٧ هـ[٢].

وسبب الغزوة ماظهر من الغدر لدى كثير من قبائل نجد بالمسلمين، ذلك الغدر الذي تجلى في مقتل أولئك الدعاة السبعين الذين خرجوا يدعون إلى الله تعالى فخرج عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قاصداً قبائل محارب وبني ثعلبة، وذكر أن قادماً قدم المدينة فأخبر المسلمين أن بني محارب وبني ثعلبة من غطفان قد جمعوا الجموع لحرب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فما كان منه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلا أن سار إليهم في عقر دارهم على رأس أربعمائة مقاتل وقيل سبعمائة مقاتل، واستعمل على المدينة أبا ذر أو عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وسار فتوغل في بلادهم حتى وصل إلى موضع يقال له: نخل، على بعد يومين من المدينة، ولما وصل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى ديارهم خافوا وهربوا إلى رؤوس الجبال، تاركين نساءهم وأطفالهم وأموالهم، ولم يكن بينهم قتال، ولما حضرت الصلاة خاف المسلمون أن يغيروا عليهم، فصلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صلاة الخوف [٣].

وقد صلى المسلمون صلاة الخوف بمنطقة نخل التي تبعد يومين عن المدينة [٤]

وصفة هذه الصلاة أن طائفة صفت معه، وطائفة في وجه العدو. فصلى بالتي معه ركعة ثم ثبت قائماً، وأتموا لأنفسهم، ثم انصرفوا فصفوا وجاه العدو، وجاءت الطائفة الأخرى فصلى بهم الركعة التي بقيت في صلاته، ثم ثبت جالساً وأتموا لأنفسهم ثم سلم بهم [٥].

---

(١) الرحيق المختوم، ص ٣٧٩.

(٢) البخاري - الصحيح (فتح الباري حديث ٤١٢٨) وكذلك عند أبي معشر مما ذكره ابن حجر، وهو الراجح عند ابن حجر أيضا. وذهب ابن إسحاق أنها سنة ٤ هـ بعد الخندق (ابن هشام - السيرة ٣/ ٢٨٢)، وعند الواقدي وابن سعد أنها كانت في أول السنة الخامسة من الهجرة (مغازي ١/ ٣٩٥، الطبقات ٢/ ٦١).

(٣) البخاري - الصحيح (فتح الباري ٧/ ٤١٦ - ٤٢١).

(٤) البخاري - الصحيح (فتح الباري ٧/ ٤١٦ - ٤٢١).

(٥) السيرة في ضوء المصادر الأصلية، ص٤٢٥.

وفي رواية أنه صلى بطائفة ركعتين ثم تأخروا وصلى بالطائفة الأخرى ركعتين، فكانت لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أربع ركعات وللقوم ركعتان[1].

ودّل تشريع صلاة الخوف على أهمية الصلاة، فحتى في قلب المعركة لايمكن التساهل فيها، ولايمكن التنازل عنها، مهما كانت الظروف وبذلك تندمج الصلاة والعبادة بالجهاد وفق المنهاج النبوي في تربية الأمة الذي استمد من كتاب الله تعالى، فلايوجد أي انفصال أو انفصام بين العبادة والجهاد[2].

وسميت هذه الغزوة بذات الرقاع لأن المسلمون كانوا يربطون على أرجلهم من الخرق والرقاع اتقاء الحر، وقيل لأنهم رقعوا راياتهم، وقيل لشجرة كانت اسمها ذات الرقاع، وقيل لأن المسلمين نزلوا في أرض كان فيها بقع بيض وسود مختلفة، فسميت لذلك والصحيح: لأنهم كانوا يربطون على أرجلهم من الخرق، فقد روي البخاري عن عن أبي موسى الأشعريّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: خرجنا مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في غزاة، ونحن ستّة نفر بيننا بعير نعتقبه [3]، قال: فنقبت أقدامنا [4]، فنقبت قدماي، وسقطت أظفاري، فكنّا نلفّ على أرجلنا الخرق، فسمّيت غزوة ذات الرّقاع [5]، لما كنّا نعصّب على أرجلنا من الخرق، قال أبو بردة: فحدّث أبو موسى بهذا الحديث، ثمّ كره ذلك قال: كأنّه كره أن يكون شيئًا[6] من عمله أفشاه به) [7].

وقد حققت هذه الحملة العسكرية أغراضها وتمكنت من تشتيت الحشد الذي قامت به غطفان لغزو المدينة فأرهب تلك القبائل وألقى عليها درساً بأن المسلمين ليسوا قادرين فقط على سحق من تحدّثه نفسه بالاقتراب من المدينة بل قادرين على نقل المعركة إلى أرض العدو نفسه وضربه في عقر داره[8].

---

(١) مسلم (٢/ ٥٧٦) رقم ٣١١.

(٢) التربية القيادية (٣/ ٣٠٣، ٣٠٤).

(٣) نعتقبه أي نتعاقب عليه في الركوب بحيث يركب كل واحد نوبة ثم ينزل فيركب الآخر وهكذا.

(٤) نقبت أي تقرحت من الحفاء وكثرة المشي.

(٥) ما ذكر هنا الصحيح في سبب التسمية، وهناك آراء أخرى منها: أنها سميت بذلك باسم جبل هناك، وقيل باسم شجرة، وقيل لأنه كانت ألويتهم رقاع، ويحتمل أنها سميت بمجموع ذلك، انظر هامش ٣ في صحيح مسلم (١٤٤٩).

(٦) في رواية البخاري شيء بالرفع على أنه فاعل تكون التامة.

(٧) البخاري - الفتح ٧ (٤١٢٨)، ومسلم (١٨١٦)، واللفظ له.

(٨) محمد أحمد باشميل، غزوة الأحزاب، ص٧٧، ٧٨.

وعندما قفل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من غزوة ذات الرقاع أدركته القائلة في واد كثير العضاة، فنزل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتفرق الناس يستظلون الشجر، ونزل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تحت شجرة علق بها سيفه، وجاءه رجل فأخذ سيفه الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأراد أن يتعرض له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولكنه كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في عناية الله فعن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ قال: غزونا مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غزوة قبل [1] نجد. فأدركنا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في واد كثير العضاه [2]. فنزل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تحت شجرة. فعلّق سيفه بغصن من أغصانها. قال: وتفرّق النّاس في الوادي يستظلّون بالشّجر. قال: فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنّ رجلا أتاني وأنا نائم، فأخذ السّيف فاستيقظت وهو قائم على رأسي، فلم أشعر إلّا والسّيف صلتا [3] في يده. فقال لي: من يمنعك منّي؟ قال: قلت: الله. ثمّ قال في الثّانية من يمنعك منّي؟ قال قلت: الله. قال فشام السّيف [4] فها هو ذا جالس. ثمّ لم يعرض له رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**»[5].

وفي رواية: فسقط السيف من يده، فأخذه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: «**من يمنعك مني؟**» قال: كن خير آخذ، قال: «**تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله؟**» قال الأعرابي: أعاهدك على ألا أقاتلك، ولا أكون مع قوم يقاتلونك، قال: فخلي سبيله، فجاء الرجل إلى قومه: (واسمه غَوْرَث بن الحارث) [6]، فقال: جئتكم من عند خير الناس [7].

إن في هذا الموقف دليل على نبوة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وفرط شجاعته وقوة يقينه وصبره على الأذى وحلمه على الجهال، وفيها جواز تفرق العسكر في النزول ونومهم إذا لم يكن هناك مايخافون منه [8].

وهذه القصة تكشف عن مدى رعاية الباري جلّ جلاله وحفظه لنبيه

---

(١) قبل نجد: أي ناحية نجد.
(٢) العضاه: هي كل شجرة ذات شوك.
(٣) صلتا: بفتح الصاد وضمها. أي مسلولا.
(٤) فشام السيف: معناه غمده ورده في غمده.
(٥) رواه البخاري. انظر الفتح ٦ (٢٩١٠) ومسلم برقم (٨٤٣).
(٦) البخاري - الصحيح (فتح الباري ٧/ ٤١٦ - ٤٢١).
(٧) القاضي عياض، الشفا بتعريف حقوق المصطفى، ١ / ١٠٧، دلائل النبوة للبيهقي، ٣/ ٤٥٦.
(٨) فتح الباري (١٥/ ٣١٧).

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ثم هي تزيدك يقيناً بالخوارق التي أخضعها الله جل جلاله له عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مما يزيدك تبصراً ويقيناً بشخصيته النبوية ، فقد كان من السهل الطبيعي بالنسبة لذلك المشرك ، وقد أخذ السيف ورفعه فوق النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو أعزل غارق في غفلة النوم - أن يهوي به عليه فيقتله ، وإنك لتلمس من ذلك المشرك هذا الاعتداد بنفسه والزهو بالفرصة الذهبية التي أمكنته من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في قوله: من يمنعك مني؟ فما الذي طرأ بعد ذلك حتى عاقه عن القتل؟ [1] .

ليس هذا تفسير إلا العناية الإلهية ، والإعجاز الإلهي ، الذي يتخطى العادات والسنن ، ويتجاوز قوى الناس ، لنصرة نبيه ، والذود عن دعوته [2] ، فقد كانت العناية الإلهية كافية لأن تملأ قلب المشرك بالرعب وأن تقذف في ساعديه تياراً من الرجفة ، فيسقط من يده السيف ثم يجلس متأدباً مطرقاً بين يدي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وماحدث مصداق لقوله تعالى: ﴿ يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ والله يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ الله لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ [المائدة: ٦٧] فليست العصمة المقصودة في الآية ، أن لايتعرض الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأذى أو محنة من قومه ، إذ تلك هي سنة الله في عباده كما قد علمت ، وإنما المراد من العصمة أن لاتطول إليه أي يد تحاول اغتياله وقتله لتُغتال فيه الدعوة الإسلامية التي بعث لتبليغها [3] .

وفي مرجع المسلمون من هذه الغزوة سبوا امرأة من المشركين ، فنذر زوجها ألا يرجع حتى يهريق دما في أصحاب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فجاء ليلاً وقد جعل الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رجلين على الحراسة أثناء نومهم ، وهما عبّاد بن بشر ، وعمار بن ياسر ، فضرب عباداً بسهم وهو قائم يصلي فنزعه ، ولم يقطع صلاته ، حتى رشقه بثلاث سهام ، فلم ينصرف منها حتى سلم ، فأيقظ صاحبه ، فقال: سبحان الله ، هلا نبهتني ، فقال كنت في سورة أقرؤها فلم أحب أن أقطعها ، فلما تابع على الرمي ركعت فآذنتك ، وايم الله ، لولا أن أضيع ثغراً أمرني رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بحفظه ، لقطع نفسي قبل أن أقطعها أو أنفذها [4] .

---

(١) فقه السيرة للبوطي ، ص٢٠٠ .
(٢) دورس وعبر من الجهاد النبوي في المدينة ، ص١٧٨ .
(٣) فقه السيرة للبوطي ، ص٢٠٠ .
(٤) السيرة النبوية لابن هشام ، ٤/ ١٦٤ ، تاريخ الطبري ، ١/ ٤٩٨ .

ومن هذه الحادثة يمكننا أن نستخلص دروساً وعبراً منها:

أ - اهتمام النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأمن الجنود ويظهر ذلك في اختياره رجلين من خيار الصحابة لحراسة الجيش ليلاً.

ب - تقسيم الحراسة ونلاحظ أن الرجلين الذين أنيطت بهما حراسة الجيش قد اقتسما الليل نصفين، نصفاً للراحة ونصفاً للحراسة، إذ لابد من راحة جسم الجندي بعض الوقت.

جـ - التعلق بالقرآن الكريم وحب تلاوته: فقد كان حبه للتلاوة قد أنساه آلام السهام التي كانت تنغرس في جسمه وتثج الدم منه بغزارة[1].

د - الشعور بمسؤولية الحراسة: فلم يقطع عبّاد صلاته لألم يشعر به وإنما قطعها استشعاراً بمسؤولية الحراسة التي كلف بها وهذا درس بليغ في مفهوم العبادة والجهاد[2].

هـ - مكان الحراسة استراتيجي: اختار النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فم الشعب مكان إقامة الحرس وكان هذا الاختيار في غاية التوفيق، لأنه المكان الذي يتوقع العدو منه لمهاجمة المعسكر.

و - قرب مهجع الحرس من الحارس: ولذلك استطاع الحارس أن يوقظ أخاه النائم، ولو كان المهجع بعيداً عن الحارس لما تمكن من إيقاظ أخيه، وبالتالي يحدث مالا تحمد عقباه[3].

لقد كان لهذه الغزوة أثر في قذف الرعب في قلوب الأعراب القساة، وإذا نظرنا إلى تفاصيل السرايا بعدالغزوة نري أن هذه القبائل من غطفان لم تجترئ أن ترفع رأسها بعد هذه الغزوة، بل استكانت شيئاً فشيئاً حتى استسلمت، بل وأسلمت، حتى نري عدة قبائل من هذه الأعراب تقوم مع المسلمين في فتح مكة، وتغزو حُنَيْناً، وتأخذ من غنائمها، ويبعث إليها المصدقون فتعطي صدقاتها بعد الرجوع من غزوة الفتح، فبهذا تم كسر الأجنحة الثلاثة التي كانت ممثلة في الأحزاب، وساد المنطقة الأمن والسلام، واستطاع المسلمون بعد ذلك أن يسدوا

(١) غزوة الأحزاب لأبي فارس، ص٣٠، ٣١.

(٢) السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، ٤٢٨، السيرة النبوية - دروس وعبر في تربية الأمة وبناء الدولة ٢/ ٤٠٥.

(٣) غزوة الأحزاب لأبي فارس، ص٣٢.

بسهولة كل خلل وثلمة حدثت في بعض المناطق من بعض القبائل، بل بعد هذه الغزوة بدأت التمهيدات لفتوح البلدان والممالك الكبيرة؛ لأن الظروف في داخل البلاد كانت قد تطورت لصالح الإسلام والمسلمين [1].

السرايا بين غزوة خيبر وعمرة القضاء:

وبعد الرجوع من هذه الغزوة أقام رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى شوال سنة ٧ هـ، وبعث في خلال ذلك عدة سرايا. وهاك بعض تفصيلها:

- سرية عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى تربة:

كان أول تلك السرايا، هي سرية عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذي بعثه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في ثلاثين راكبا إلى تربة[2] القريبة من الطائف، وحينما علمت بطون هوازن الساكنة في تربة بذلك هربوا، فرجع عمر بأصحابه إلى المدينة، وكان ذلك في شعبان السنة السابعة من الهجرة. [3]

- سرية بشير بن سعد:

ثم أرسل بشير بن سعد الأنصاري لقتال بني مرّة بناحية فدك، فلما ورد بلادهم لم ير منهم أحدًا، فأخذ نَعَمَهم وانحدر إلى المدينة، أما القوم فكانوا في الوادي، فجاءهم الصريخ فأدركوا بشيرًا ليلاً وهو راجع فتراموا بالنبل، ولما أصبح اقتتل الفريقان قتالًا شديدًا حتى قتل غالب المسلمين، وجرح بشير جرحًا شديدًا حتى ظن أنه مات، ولما انصرف عنه العدو تحامل حتى جاء إلى رسول الله وأخبره الخبر[4].

- سرية غالب بن عبد الله:

وفي رمضان سنة سبع [5] وعندما علم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بخبر سرية

---

(١) الرحيق المختوم، ص ٣٨١.

(٢) وتُربة هذه: واد قرب مكة يبعد يومين منها.

(٣) الواقدي - مغازي - رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ٢/ ٧٢٢، ابن سعد - الطبقات ٢/ ١١٧ معلقا.

(٤) محمد بن عفيفي الخضري، نور اليقين في سيرة سيد المرسلين، ١ / ١٥٤.

(٥) ابن سعد، طبقات، ٢/ ١١٩.، ابن سيد الناس، عيون ٢/ ١٩٠، ١٩٧، القسطلاني، المواهب ١/ ٥٣٨، الحلبي، سيرة ٣/ ١٩٢ - ١٩٣، ١٩٧، ولم يذكر لها الواقدي تاريخا - وذلك خلاف عادته -، وذكرها مباشرة بعد سرية بشير بن سعد إلى فدك، بل إنه لم يجعل

بشير بن سعد، ومصابها هيأ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الزبير بن العوام، وقال له: "سِر حتَّى تنتهي إلى مُصاب أصحاب بشير بن سعد، فإن أظفرك الله بهم فلا تبق فيهم، وهيأ معه مائتي رجل، وعقد له لواء"[1].

فقدم غالب بن عبد الله من سرية قد ظفَّره الله عليهم، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للزبير بن العوام: "اجلس، وبعث غالب بن عبد الله في مائتي رجل[2]، فخرج أُسامة بن زيد في السرية حتى انتهى إلى مصاب بشير وأصحابه، وخرج معه علبة بن زيد"[3]. و"عقبة بن عمرو أبو مسعود، وكعب بن عجرة". وأبو سعيد الخدري".

فلمَّا دنا غالب منهم بعث الطلائع، فبعث علبة بن زيد في عشرة ينظر إلى جماعة محالهم، حتى أوفى على جماعة منهم، ثُمَّ رجع إلى غالب، فأخبره فأقبل غالب يسير حتَّى إذا كان منهم بمنظر العين ليلاً، وقد اجتلبوا وعطَّنوا[4]، وهدأوا، قام فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثُمَّ قال: "أمَّا بعد، فإني أوصيكم بتقوى الله وحده لا شريك له، وأن تطيعوني ولا تخالفوا لي أمراً، فإنَّه لا رأي لمن لا يُطاع، ثُمَّ ألَّف بينهم[5] فقال: "يا فلان أنت وفلان، يا فلان أنت وفلان، لا يفارق كلّ رجل زميله"[6].

فلمَّا كان قرب الفجر انقضوا عليهم في هجوم فجري خاطف، وهم يتصايحون بشعارهم المُتَّفَق عليه مسبقاً: "أمت! أمت!"[7].

وارتبك الأعراب بادئ الأمر، إلاَّ أنَّهم تمالكوا أنفسهم بعضاً من الوقت حيث أبدوا بعض المقاومة، فخرج الرجال فقاتلوا ساعة، وكان منهم رجل من

لها عنواناً مستقلاً، وإنَّما تحدَّث عنها بعد فراغه من سرية بشير، وكأنه يرى أنَّها متعلّقة بها، وأنَّها كانت في نفس التاريخ. وتابعه في ذلك ابن كثير. انظر: الواقدي، مغازي ٢/ ٧٢٣، ابن كثير، البداية ٤/ ٢٢٢.

(١) طبقات ابن سعد ٢/ ١٢٦).

(٢) ذكر خليفة بن خياط (تاريخ ٧٨) أنهم كانوا ستين فقط.

(٣) مغازي الواقدي ٢/ ٧٢٣).

(٤) أي سقوا الإبل ثُمَّ أناخوها وحبسوها عن الماء. (لسان العرب ١٧/ ١٥٨).

(٥) في رواية أُخرى للواقدي ذكر فيها أنَّ أمير السرية آخى بينهم. (مغازي ٢/ ٧٢٥).

(٦) الواقدي، مغازي ٢/ ٧٢٤).

(٧) مغازي الواقدي، ٢/ ٧٢٤).

أشدِّهم ، فكان: إذا شاء أن يقصد إلى رجل من المسلمين ، قصد له فقتله[١] ، حتَّى أوجع في المسلمين ، غير أنَّ قوة وتنظيم المسلمين في هجومهم المباغت ، وهول المفاجأة من ذلك الهجوم الفجري غير المتوقَّع أفقد الأعراب توازنهم ، فانهزموا هاربين ، ووضع المسلمون سيوفهم فيهم حيث شاءوا[٢] .

يقول أُسامة - رضي الله تعالى عنه - في وصف ذلك:

فصبَّحنا القوم فهزمناهم فكان منهم رجلٌ إذا أقبل القوم كان من أشدِّهم ، وإذاأدبروا كان حاميتهم ، قال: "فغشيته أنا ورجلٌ من الأنصار[٣] .

فلمَّا غشيناه قال: "لا إله إلاَّ الله ، فكفَّ الأنصاري ، فطعنته برمحي فوقع في نفسي من ذلك[٤] .

ثُمَّ تمكَّن المسلمون من السيطرة على الأعراب بسرعة ، حيث استحوذوا على حاضر القوم بعد أن قتلوا منهم مَن قتلوا ، وهَرَبَ الباقون أمامهم فاستاقوا:

النَّعم والشاء والذرية ، وكانت سهامهم عشرة أبعرة لكل رجل ، أو عدلها من الغنم ، وكان يحسب الجزور بعشرة من الغنم "[٥]" . وكان ذلك القتال يعدّ أوَّل تجربة عسكرية قتالية لأُسامة بن زيد - رضي الله تعالى عنهما ، حِبِّ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ، فلمَّا جاء البشير بخبر النَّصر والفتح إلى رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ تهلَّل وجهه فرحاً ، وازداد فرحه صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ حينما أخبره البشير عن شِدَّة بأس أُسامة ، واستبساله في القتال ، ولكنَّه حينما أخبره بخبر الرجل الذي قتله أُسامة تغيَّر وجه رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ، وبعث إلى أُسامة".

"فدعاه فسأله ، فقال: "لِمَ قتلته؟ قال: "يا رسول الله! أوجَعَ في المسلمين ، وقتل فلاناً وفلاناً ، وسمَّى له نفراً ، وإني حملت عليه ، فلمَّا رأى السيف قال: "لا إله إلاَّ الله". قال رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**أقتلته؟**»قال: "نعم". قال: «**كيف تصنع بلا إله إلاَّ الله إذا جاءت يوم القيامة؟**» قال: "يا رسول الله استغفر لي". قال: «**وكيف تصنع بلا إله إلاَّ الله إذا جاءت يوم القيامة؟**» قال: "فجعل لا يزيده على أن يقول: «**كيف تصنع بلا إله إلاَّ الله إذا جاءت يوم القيامة**» .

---

(١) مسلم (الصحيح ١/ ١٣٦) .
(٢) الواقدي: مغازي ٢/ ٧٢٤ .
(٣) أخرجه البخاري (الصحيح٣/ ٨٨) ، ، وأحمد (المسند ، حديث رقم: ٢١٧٣٩) .
(٤) أخرجه البخاري ومسلم (الصحيح ١/ ١٣٤) .
(٥) الواقدي (مغازي ٢/ ٧٢٥) .

قال أُسامة: فما زال يكررها حتى تمنيت أني لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم"[1].

بعض لأحكام المستنبطة والعبر والدروس المستفادة:

- قال الخطابي: "فيه من الفقه أنَّ الكافر إذا تكلَّم بالشهادة وإن لم يصف الإيمان وَجَبَ الكَفُّ عنه والوقوف عن قتله سواء أكان بعد القدرة أم قبلها[2]".

وقال ابن التين تعليقاً على قول النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأُسامة: «**أقتلته بعدما قال: لا إله إلا الله؟**» - في هذا اللوم تعليم وإبلاغ في الموعظة حتى لا يقدم أحَد على قتلِ مَنْ تلفَّظ بالتوحيد[3]".

وقال القرطبي: "تكريره ذلك والإعراض عن قبول العذر زجر شديد عن الإقدام على مثل ذلك[4]".

وقال النووي: "وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أفلا شققت عن قلبه**»، فيه دليل للقاعدة المعروفة في الفقه والأُصول أنَّ الأحكام يعمل فيها بالظواهر، والله يتولَّى السرائر[5]".

وقال ابن حجر: "وفيه دليل على ترتُّب الأحكام على الأسباب الظاهرة دون الباطنة[6]".

والحقيقة إنَّ أسامة - رضي الله تعالى عنه - كان في ذلك الوقت صغيراً في السنِّ، وأنَّ ما حمله على قتل ذلك الرجل هو قِلَّة خبرته الفقهية، وبخاصَّة فقه الجهاد، باعتبار أنَّها أوَّل مشاركة جهادية، كما ورد في رواية ابن سعد[7]، ولأجل ذلك عذره النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولكنَّه أبلغ في اللوم والعتاب عليه سدّاً للذريعة، والتثبُّت، وبخاصَّة وأنَّ الأمر يتعلَّق بحياة إنسان بدت منه شبهة تدرأ عنه القتل". والله تعالى أعلم"[8].

---

(١) البخاري (الصحيح٣/ ٨٨)، مسلم (الصحيح ١/ ١٣٦)، الواقدي: مغازي ٢/ ٧٢٤.
(٢) الخطابي: حاشية سنن أبي داود ٣/ ١٠٢.
(٣) ابن حجر: فتح ١٢/ ١٩٥.
(٤) ابن حجر: فتح ١٢/ ١٩٥.
(٥) النووي على مسلم ٢/ ١٠٧.
(٦) فتح الباري ١٢/ ١٩٦.
(٧) مغازي الواقدي، ٢/ ٧٢٤).
(٨) بريك بن محمد بريك أبو مايلة العمري، غزوة مؤتة والسرايا والبعوث النبوية الشمالية، ص ١٧٠.

- وفيها من العبر والدروس المستفادة:

- إنَّ حُبَّ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأسامة بن زيد - ولأبيه من قبله - رضي الله تعالى عنهما - لم يشفع له عند رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عندما أخطأ، فكان اللوم والتقريع والمحاسبة الشديدة على الخطأ".

وفي ذلك دليل على أنه لا محاباة، ولا محسوبيات في دين الإسلام، فالكل سواسية أمام الشارع، يحاسبهم على أخطائهم، لا فرق بين قريب أو بعيد، ولا غني أو فقير".

- استمرار سياسة النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ العسكرية ضد الأعراب مِمَّا أدَّى إلى حصد النتائج السريعة المتوخاة من تلك السياسة العسكرية المتبعة ضدَّهم، نصر، وغنائم، وتأديب، ورعب".

- كان الشعار في المعركة من مبتكرات النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في غزواته وبعوثه وسراياه وتتضح أهمية الشعار في القتال الليلي، أو الفجري الخاطف، وبخاصّةً إذا علمنا أنَّ العرب في ذلك الوقت يتشابهون فيما بينهم في اللباس والملامح، حيث لم تكن هنالك بزَّات[1] عسكرية خاصّةً لكل جيش كما هو الحال اليوم في المؤسسات العسكرية الحديثة، فكان الشعار ينوب مناب اللباس الخاص للتفريق بين المسلمين وأعدائهم في ميدان المعركة، كما أنَّه يبث روح الحماس في نفوس الجند وهم يتصايحون به أثناء الانقضاض على العدوّ، كما حدث في هذه السرية". والله تعالى أعلم.

- اتَّبع المسلمون الهجوم الفجري ضد الأعراب" فكان هذا الهجوم مباغتة كاملة أثَّرت على معنوياتهم، وأجبرتهم على الفرار".

- إنَّ الهجوم فجراً يؤمِّن المباغتة، لأنَّ العدوَّ يكون بين نائم لا يفيد في القتال، أو مستيقظٍ غير مُتَهَيِّئٍ له، وهؤلاء جميعاً غير متهيئين للقتال، ولا جدوى منهم للنهوض بأعباء الحرب".

ولكن الهجوم فجراً يحتاج إلى قوة مددية تستطيع معرفة أهدافها، فلا يصطدم بعضها ببعض، فيؤدي ذلك إلى خسائر في الأرواح دون مبرر، مِمَّا يدل على تدريب المسلمين تدريباً متميزاً على فنون القتال، كما يحتاج الهجوم فجراً إلى قيادة

(١) جمع بزة: وهي البدلة العسكرية.

مسيطرة وإلى ضبط شديد لتنفيذ الأوامر"[1]".

وذلك واضح في الخطاب الذي ألقاه قائد السرية عليهم، وتأكيده على الضبط العسكري، ومبدأ طاعة الأوامر، ثُمَّ في تأليفه بين الجند ومؤاخاته بينهم، والحثّ على الاجتماع وعدم التفرُّق، وترك الإمعان في العمق دون مبرِّر".

"إنَّ نجاح المسلمين بهذا الهجوم معناه وصولهم إلى درجة عالية في التدريب والضبط، وهما أهمّ عناصر الجيش القوي الرصين"[2].

سرية بشير بن سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى الجناب:

وفي شوال سنة سبع من الهجرة[3] بعث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بشير بن سعد على رأس سرية من ثلاثمائة رجل وعقد له اللواء وأرسله إلي الجناب[4].

وذكر أهل المغازي الذين رووا أخبار هذه السرية أنَّ السبب الذي أهاج هذه السرية، هو ذلك التقرير المهم الذي جاء به عين النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في منطقة خيبر وما جاورها، ودليله إليها من قبل، حُسَيْل بن نويرة الأشجعي، عن التحرُّكات العدوانية التي يقوم بها زعيم قوي ومؤثِّر من زعماء قبيلة غطفان، هو عُيَيْنة بن حصن الفزاري، ومحاولته حشد جمع من غطفان في منطقة الجناب القريبة من خيبر، استعداداً للزَّحف إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أو الإغارة على بعض

---

(١) خطَّاب: الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ القائد ٢١٧.

(٢) خطَّاب: الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ القائد ٢١٧، غزوة مؤتة والسرايا والبعوث النبوية الشمالية، ص ١٧٢.

(٣) أرَّخها الواقدي بسنة سبع من الهجرة، ولم يحدِّد الشهر الذي انطلقت فيه، وتابعه نقلاً عنه كُلٌّ من: الطبري، والبيهقي، وابن كثير، والذهبي، أمَّا ابن سعد فحدَّدها بشهر شوَّال من نفس السنة، وتابعه في ذلك البلاذري، وابن سيد الناس، والقسطلاني، والشامي. والراجح هو رواية الواقدي الأكثر تفصيلاً للأحداث من رواية ابن سعد، وبها قرائن تُقوِّي تحديد ابن سعد لها بشهر شوَّال من السَّنة السابعة أي بعد غزوة خيبر". فقوله مثلاً في بداية روايته: "قدم رجل من أشجع، يُقال له حُسَيْل ابن نويرة، وقد كان دليل النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى خيبر... إلخ".
انظر: الواقدي، مغازي ٢/ ٧٢٨، الطبري، تاريخ ٣/ ٢٣، البيهقي: دلائل ٤/ ٣٠١، ابن كثير: بداية ٤/ ٢٢٣، ابن سعد، طبقات ٢/ ١٢٠، البلاذري: أنساب ٣٧٩، ابن سيد الناس: عيون ٢/ ١٩١، القسطلاني: المواهب ١/ ٥٣٩، الشامي: سبل ٦/ ٢١٣.

(٤) قال ياقوت: "وقيل: "هو مِن منازل بني مازن، وقال نصر: "الجناب من ديار بني فزارة بين المدينة وفَيْد، وقال ابن حبيب: "الجناب مِن بلاد فزارة، والحضارم من ناحية اليمامة". معجم البلدان ٢/ ١٦٤ - ١٦٥.

أطراف الدولة الإسلامية[1].

وبما أنَّ عُيَيْنَة بن حصن قد كانت له سابقة من قبل مع المسلمين، كانت سبباً في غزوة ذي قَرَد[2]، لذلك أخذ رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تقرير حُسَيْل مأخذ الجد، وسارع ببعث هذه السرية لضرب ذلك الحشد في عُقْرِ داره، قبل أن تستكمل استعداداتهم للتحرُّك ثُمَّ الهجوم، كما فعلوا من قبل"[3].

ففي شهر شوَّال من السنة السابعة من مُهَاجر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قدم رجل من أشجع، يُقال له، حُسَيْل بن نويرة، وقد كان دليل النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى خيبر، فقال له رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "من أين يا حُسيل؟ قال: "قدمت من الجناب، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "ما وراءك؟ قال: "تركت جمعاً من غطفان بالجناب، وقد بعث إليهم عُيَيْنة يقول لهم: "إمَّا تسيروا إلينا وإمَّا نسير إليكم، فأرسلوا إليه أن سِرْ إلينا حتَّى نزحف إلى محمَّدٍ جميعاً، وهم يريدونك، أو بعض أطرافك"[4]".

وكعادته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في استباق الأحداث، وسياسته المتبعة مع الأعداء عامَّة، والأعراب خاصَّة، بالتحرُّك سريعاً للقضاء على قُوَّة العدو، ووئدها في مهدها، قبل أن تستفحل وتنتشر، ولأنَّ لِعُيَيْنَة سابقة من هذا النوع من قبل، سارع النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ باستدعاء صاحبيه، ووزيريه أبي بكر الصديق، وعمر الفاروق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وشاورهما في الأمر فقالا جميعاً: "ابعَث بشير بن سعد! فدعا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بشيراً، فعقد له لواء، وبعث معه ثلاثمائة رجل، وأمرهم أن يسيروا الليل، ويكمنوا النَّهار، وخرج معهم حُسيل بن نويرة دليلاً[5]".

فساروا الليل، وكمنوا النهار، حتَّى أتوا إلى يمن وجبار، وهي نحو الجناب، والجناب يعارض سلاح، وخيبر ووادي القرى، فنزلوا بسلاح[6]، ثُمَّ دنوا

---

(١) الواقدي: مغازي ٢/ ٧٢٨، ابن سعد: طبقات ٢/ ١٢٠، الطبري: تاريخ ٣/ ٢٣.

(٢) في السنة السادسة أغار عُيَيْنَة بن حصن، وابنه عبد الرحمن في فوارس من غطفان على لقاح النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ التي كانت في الغابة، فقتلوا أحَد الرَّعاة، واستاقوا اللقاح، فنذر بهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبعض الصحابة، ولحقوا بهم واستنقذوا اللقاح.

(٣) انظر: غزوة مؤتة والسرايا والبعوث النبوية الشمالية، ص ٢٠٧.

(٤) الواقدي، مغازي ٢/ ٧٢٨، الطبري، التاريخ ٣/ ٢٣، البيهقي، الدلائل ٤/ ٣٠١، ابن كثير، البداية ٤/ ٢٢٣.

(٥) مغازي ٢/ ٧٢٨.

(٦) قال ياقوت: "سلاح كأنه على وزن قطام، موضع أسفل من خيبر، وسلاح - أيضاً، ماء

من القوم[1]".

فقال لهم الدَّليل: "بينكم وبين القوم ثُلُثا نهار أو نصفه، فإن أحببتم كمنتم[2]، وخرجت طليعة لكم حتى آتيكم بالخبر، وإن أحببتم سرنا جميعاً". قالوا: "بل نقدِّمك، فقدَّموه فغاب عنهم ساعة، ثُمَّ كرَّ[3] عليهم، فقال: "هذا أوائل سرحهم، فهل لكم أن تغيروا عليهم؟ فاختلف أصحاب النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال بعضهم: "إنْ أغرنا الآن حذِرَنَا الرجال والعَطَن[4]". وقال آخرون: "نغنم ما ظهر لنا ثُمَّ نطلب القوم[5]".

ثُمَّ إنَّهم أغاروا على سرح القوم، فأصابوا نعماً كثيرة ملأوا منها أيديهم[6]" وتفرَّق الرعاء فحذَّروا الجمع، فتفرَّقوا ولحقوا بعلياء بلادهم، وخرج بشير بن سعد في أصحابه حتَّى أتوا محالَّهم فيجدها وليس فيها أحد"[7]".

فرجع بالنعم حتَّى إذا كانوا بسلاح راجعين لقوا عَيْناً[8] لعُيينة فقتلوه، ثُمَّ لقوا جمع عيينة، وعيينة لا يشعر بهم، فناوشوهم، ثُمَّ انكشف جمع عيينة، وتبعهم أصحاب النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأصابوا منهم رجلاً أو رجلين فأسروهما أسراً[9]".

ونفَّذ عُيينة بجلده هارباً، بعد أن دخله الرعب من المسلمين، فانهزم على فرس له عتيق يعدو به عدواً سريعاً، لا يلوي على شئ، حتَّى إنَّ حليفة الحارث بن عوف المري لمَّا استوقفه ليسأله عن شأنه، ردَّ عليه:

لا ما أقدرُ! الطلب خلفي! أصحاب محمَّد! وهو يركض". قال الحارث بن عوف: "أما لك بعد أن تبصر ما أنت عليه؟ إنَّ محمَّداً قد وطئ البلاد وأنت مُوضِعٌ في غير شيء". قال الحارث: "فتنحيت عن سَنَن[10] خيل محمَّد حتَّى أراهم ولا

لبني كلاب شبكة ملحة لا يشرب منه أحد إلاَّ سلح" (معجم ٣/ ٢٣٣).

(١) ابن سعد، طبقات ٢/ ١٢٠.

(٢) كمن له: استخفى، والكمين: القوم يكمنون في الحرب. (القاموس: كمن).

(٣) كرَّ عليه: عطف. (القاموس: كرَّ).

(٤) مالعَطَن - محرَّكة - وطن الإبل ومبركها حول الحوض، ومربض الغنم حول الماء.

(٥) مغازي ٢/ ٧٢٨.

(٦) ابن سعد، طبقات ٢/ ١٢٠.

(٧) ابن سعد، طبقات ٢/ ١٢٠.

(٨) العين: الجاسوس.

(٩) ابن سعد، طبقات ٢/ ١٢٠.

(١٠) سَنَنُ الطريق، مثلثة وبضمتين: نهجه وجهته. (القاموس: سن).

يروني ، فأقمت من حين زالت الشمس إلى الليل ، ما أرى أحداً - وما طلبوه إلاَّ الرعب الذي دخله". قال: "فلقيته بعد ذلك ، فقال الحارث: "فلقد أقمت في موضع حتى الليل ، ما رأيت من طلب". قال عيينة: "هو ذاك ، إني خفتُ الإسار ، وكان أثري عند محمَّدٍ ما تعلم في غير موطن". قال الحارث: "أيُّها الرجل ، قد رأيت ورأينا معك أمراً بيِّناً في بني النضير ، ويوم الخندق ، وقريظة ، وقبل ذلك قينقاع ، وفي خيبر ، إنَّهم كانوا أعزّ يهود الحجاز كُلِّه ، يُقِرُّون لهم بالشجاعة والسَّخاء ، وهم أهل حُصون منيعة ، وأهل نخل ، واللهِ إن كانت العرب لتلجأ إليهم فيمتنعون بهم ، لقد سار حارثة بن الأوس حيث كان بينهم وبين قومهم ما كان فامتنعوا بهم من النَّاس ، ثُمَّ قد رأيت حيث نزل بهم كيف ذهبت تلك النجدة وكيف أُديل عليهم". فقال عيينة: "هو واللهِ ذاك ، ولكنَّ نفسي لا تُقِرّني". قال الحارث: "فادخل مع محمَّد ، قال: "أصير تابعاً! قد سبق قومٌ إليه فهم يزرُون[1] بمن جاءَ بعدهم يقولون: "شهدنا بدراً وغيرها". قال الحارث: "وإنَّما هو على ما ترى ، فلو تقدَّمنا إليه لكُنَّا من عِلِيَة أصحابه ، قد بقي قومُه بعدهم منه في مُوادعَة وهو مُوقِعٌ بهم وقعةً ، ما وُطِئَ له الأمْرُ". قال عُيينة: "أرى واللهِ ! فاتَّعدا يُريدان الهجرة والقدوم على النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى أن مرَّ بهما فروة بن هبيرة القُشَيْري يُريد العُمرة وهما يتقاولان ، فأخبراه بما كانا فيه وما يُريدان". قال فروة: "لو استأنيتم حتى تنظروا ما يصنع قومه في هذه المُدَّة التي هُم فيها وآتيكم بخبرهم! فأخَّروا القدوم على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ومضى فَرْوَة حتَّى قدم مكة فتحسَّب من أخبارهم ، فإذا القوم على عداوة النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، لا يريدون أن يدخلوا طائعين أبداً ، فخبَّرهم بما أوقع محمَّد بأهل خيابر[2]". قال فروة: وقد تركت رؤساء الضاحية على مثل ما أنتم عليه من العداوة لمُحَمَّد". قالت قريش: "فما الرأي ، فأنت سيِّد أهل الوبر؟ قال: "نقضي هذه المدَّة التي بينكم وبينه ، ونستجلب العرب ، ثُمَّ نغزوه في عُقْرِ داره ، وأقام أياماً يجول في مجالس قريش ، ويسمع به نَوْفَل ابن معاوية الدِّيلِيِّ ، فنَزل من باديته فأخبره بما قال لقُرَيْش ، فقال نَوْفَل: "إذاً لأجِدُ عندكم شيئاً! قدمت الآن لمقدمك حيث بلغني ، ولنا عدوٌّ قريبٌ دارُه ، وهم عَيْبَة نُصْح محمَّد لا يغيبون عليه حرفاً من أُمورنا ، قال: "من هُم؟ قال: خُزاعة ، قال: "قَبُحَت خزاعة ؛ قعدت بها يمينها! قال فروَة: "فماذا؟ قال:

(١) زرى عليه زرياً وزراية ومزرية ومزراة وزُرياناً بالضم: عابه ، وعاتبه . (القاموس: زرى) .
(٢) خيبر .

"استنصرْ قُرَيْشاً أن يعينونا عليهم، قال فروة: "فأنا أكفيكم". فلقي رؤساءَهم، صفوان بن أُمَيَّة، وعبد الله بن أبي ربيعة، وسُهَيْل بن عمرو، فقال: "ألا ترون ماذا نزل بكم! إنَّكم رضيتم أن تدافعوا مُحَمَّداً بالراح". قالوا: "فما نصنع؟ قال: "تُعينون نَوْفَل بن مُعاوية على عدوِّه وعدوِّكم". قالوا: "إذاً يغزونا محمَّدٌ فيما لا قِبَلَ لنا به فيوطئنا غَلَبَةً، وننْزل على حُكْمِهِ، ونحن الآن في مُدَّة وعلى ديننا". فلقي نوفل ابن معاوية، فقال: "ليس عند القوم شيء، ورجع فلقي عيينة والحارث فأخبرهم، وقال: "رأيت قومه قد أيقنوا عليه فقاربوا الرجل وتدبَّروا الأمر، فقدَّموا رِجْلاً وأخَّروا أُخرى[1]".

الأحكام المستنبطة والدروس المستفادة:

- مشروعية اتخاذ الأدلاَّء من غير المسلمين وإغرائهم بالمال لمساعدة المسلمين، وفي قصة الهجرة، وقصة هذه السرية، وفتح خيبر دليلٌ على ذلك.

- مشروعية اتخاذ العيون للتجسس على الأعداء، وتزويد المسلمين بأخبارهم وتحركاتهم ضد المسلمين، وقصة هذه السرية، وفتح مكة، وغير ذلك من قصص السرايا والغزوات والأخبار التي تصل تباعاً إلى النَّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن تحرُّكات الأعداء وحشودهم دليلٌ على ذلك.

- إنَّ استخدام المسير الليلي كمسير اقترابي[2] إلى أرض العدو، واتخاذ الدليل طليعةً في أرض العدو، يُعَدُّ من الأُسس العملية المهمَّة للمباغتة، وهي أساليب تُعَدُّ من مبتكرات الرسول القائد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

- استمرار نجاح سياسة النَّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ العسكرية الهجومية في حربه مع أعدائه من الأعراب بضرب حشودهم في قواعدها، والإغارة عليهم قبل استكمال استعداداتهم، مِمَّا كان له أبلغ الأثر في تلك النتائج المدهشة من إدخال الرعب في قلوبهم، والقضاء على مخططاتهم العدوانية - التي كانت موجَّهة ضد المسلمين - في مهدها، وبسط نفوذ المسلمين على أراضيهم، وبالتالي التمهيد للانطلاق فيما وراء ذلك لتحقيق أهداف المسلمين واستراتيجياتهم بعيدة المدى من نشر الإسلام خارج نطاق الجزيرة العربية فيما وراء مناطق نفوذ الأعراب.

- وضح من خلال هذه السرية، والسرايا قبلها، ذلك الترتيب الذكي الذي

---

(١) مغازي الواقدي ٢/٧٢٨، غزوة مؤتة والسرايا والبعوث النبوية الشمالية، ص ٢١٣.

(٢) المسير الاقترابي: هو الحركة من القاعدة إلى الهدف. (خطَّاب: الرسول القائد ١١٦).

كان يتبعه القائد الملهم، الخبير بخبايا الحرب وأمورها الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وذلك من خلال اختياره الرجل المناسب للمهمَّة المناسبة في المنطقة المناسبة، ذلك الاختيار كان يتم وفق معايير خاصّة تتعلّق بقدرات الرجل المختار، وخبرته في المنطقة المبعوث إليها، ومعرفته التامة بها وبأهلها". فكما رأينا في هذه السرية وما قبلها من السرايا في منطقة خيبر وما حولها، كان المبعوث على رأسها في غالب الأحيان هو بشير بن سعد الأنصاري، - رضي الله تعالى عنه، - فالتركيز على بشير دون غيره من الصحابة". وغالب بن عبد الله الليثي - رضي الله تعالى عنه، وغيرهما من القادة لم يكن من فراغ، وإنَّما كان بناءً على ما كان يتمتع به أولئك من قدرات أهليتهم لذلك مِمَّا ذكرنا، والله تعالى أعلم.

- إنَّ في استشارة النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لصاحبيه أبي بكر الصِّدِّيق - رضي الله تعالى عنه، وعمر بن الخطَّاب - رضي الله تعالى عنه، لها أكثر من دلالة!. فمن كون ذلك يدل على فضلهما ومكانتهما ومنْزلتهما الرفيعة عند النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حتَّى إنَّهما كانا بمثابة وزيرين له، وكانا من ألصق النَّاس به في كلِّ أموره، في سفره وإقامته، في سلمه وحربه، وكان دائم الاستشارة لهما، المصاحب لهما في كلِّ الأوقات، وكان دائم الحديث عنهما، كما يقول علي بن أبي طالب - رضي الله تعالى عنه: "وحسبت أني كثيراً أسمع النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: "ذهبت أنا وأبو بكر وعمر، ودخلت أنا وأبو بكر وعمر، وخرجت أنا وأبو بكر وعمر"[(١)]". وقد عرف الصحابة - رضي الله تعالى عنهم - ذلك لهما، فكان أن قدَّموهما على غيرهما في الخلافة.

- أيضاً يدل ذلك على مكانة الشورى في الإسلام، باعتبار أنَّ المُشَرِّع صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يُطَبِّقها في كل زمان ومكان، وذلك تنفيذٌ لأمر الباري - عزَّ وجلَّ - له: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]. وتعليمٌ لأمَّته من بعده بتطبيق هذا المبدأ الهام والحيوي في حياتهم بمختلف شؤونها، وما أصاب المسلمين من الضياع وتسلُّط الأعداء إلاَّ عندما تركوا هذا المبدأ، واستبدَّ قادتهم بالرأي دونهم، فكان ذلك وبالاً على الأُمةِ بأسرها.

- كذلك يدل على ما كان يتمتَّع به الشيخان الجليلان - رضي الله تعالى عنهما، من الحنكة والمعرفة بأمور الحرب والسياسة، حيث نصحا النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالإسراع بإرسال سرية إلى تلك المنطقة، يقودها رجلٌ مُحَنَّك ذو

(١) البخاري، الصحيح: ٤/ ١٩٩.

خبرة ومعرفة بأحوالها وأهلها[1].

عمرة القضاء:

وفي ذي القعدة في السنة السابعة من الهجرة خرج الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى مكة قاصداً العمرة، كما اتفق مع قريش في صلح الحديبية، وقد بلغ عدد من شهد عمرة القضاء ألفين سوى النساء والصبيان ولم يتخلف من أهل الحديبية إلا من استشهد في خيبر أو مات قبل عمرة القضاء[2].

وقد اتجه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه الكرام من المدينة باتجاه مكة المكرمة في موكب مهيب يشق طريقه عبر القرى والبوادي، وكان كلما مر الموكب النبوي بمنازل قوم من الذين يسكنون على جانبي الطريق بين مكة والمدينة خرجوا وشاهدوا منظر لم يألفوه من قبل حيث المسلمين بزي واحد من الأحرام وهم يرفعون أصواتهم بالتلبية ويسوقون هديهم في علاماته وقلائده في مظهر بهي لم تشهد المنطقة له مثيلاً[3].

وأصطحب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ معه السلاح الكامل، ولم يقتصر على السيوف، تحسباً لكل طارئ قد يقع، خاصة وأن المشركين في الغالب لا يحافظون على عهد قطعوه، ولا عقد عقدوه[4].

وما أن وصل خبر مسير النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومعه هذا العدد الضخم، وهذه الأسلحة المتنوعة، وفي مقدمة القافلة مائتا فارس بقيادة محمد بن مسلمة حتى أرسلت إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مكرز بن حفص في نفر من قريش، ليستوضحوا حقيقة الأمر، فقابلوه في بطن يأجج[5] بمر الظهران فقالوا له: يامحمد! والله ماعرفناك صغيراً ولا كبيراً بالغدر! تدخل بالسلاح الحرم على قومك، وقد شرطت ألا تدخل إلا على العهد وأنه لن يدخل الحرم غير السيوف في أغمادها فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لاتدخلها إلا كذلك**» ثم رجع مكرز مسرعاً

---

(١) غزوة مؤتة والسرايا والبعوث النبوية الشمالية، ص ٢١٦.

(٢) ابن حزم - جوامع السيرة ص/ ٢١٩، ابن حجر - فتح ٧/ ٥٠٠، البيهقي - دلائل النبوة ٤/ ٣١٣ - ٣١٤.

(٣) منهج الإعلام الإسلامي في صلح الحديبية، ص٣١٠.

(٤) فتح الباري ٧/ ٤٤٩ - ٥٠٠، البيهقي - دلائل ٤/ ٣١٤، ابن سعد - الطبقات ٢/ ١٢١.

(٥) موضع يقع على ثمانية أميال من مكة، ياقوت - معجم ٥/ ٤٢٤.

بأصحابه إلى مكة فقال: إن محمداً لايدخل بسلاح وهو على الشرط الذي شرط لكم[1].

ووضع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ السلاح خارج الحرم قريباً منه تحسباً لكل طارئ، وأبقى عنده مائتي فارس بقيادة محمد بن مسلمة يحرسونه وينتظرون أمر الرسول ليتحركوا في أي جهة وينفذوا أي أمر، ويقاتلوا متى دعت الضرورة لذلك[2].

إن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يأمن غدر مشركي قريش وخيانتهم فقد تسول لهم أنفسهم أن ينصبوا كميناً أو أكثر للمسلمين ويشنوا عليهم هجوماً مباغتاً ولذلك احتاط وأخذ الحذر ووفى بعهده ووعده لقريش وعلّم الأمة لكي تحذر من أعدائها[3]، وفي بقاء كوكبة من الصحابة في حراسة الأسلحة والعتاد لكي يراقبوا الموقف بدقة وتحفز معنى من معاني العبادة في هذا الدين[4].

دخل الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والمسلمون مكة في موكب مهيب وهم يلهجون بالتكبير والتلبية، وأورد الترمذي رواية حسنة غريبة جاء فيها أن عبد الله بن رواحة كان يمشي بين يدي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو ينشد:

خلّوا بني الكفار عن سبيله ::: اليوم نضربكم على تنزيله
ضربا يزيل الهام عن مقيله ::: ويذهل الخليل عن خليله[5]

طاف المسلمون مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالبيت العتيق وأظهروا القوة والجلد في طوافهم وسعيهم كما أمرهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[6]، ردًا على إشاعة قريش عنهم بأنهم ضعفاء «قد وهنتهم حمى يثرب» فقد أرملوا وسارعوا بالعدو في الأشواط الثلاثة الأولى من الطواف، كما هرولوا في السعي ليظهروا للمشركين مدى قوتهم وجلدهم.[7] وكانت قريش قد خرجت من مكة وتجمعت على جبل قعيقعان المواجه للركنين الأسود واليماني من البيت العتيق ينظرون إلى المسلمين في

(١) مغازي الواقدي، ٣/ ٧٣٤؛ طبقات ابن سعد، ٢/ ١٢١.
(٢) فتح الباري ٧/ ٤٤٩ - ٥٠٠، البيهقي - دلائل ٤/ ٣١٤، ابن سعد - الطبقات ٢/ ١٢١.
(٣) فتح الباري ٧/ ٤٤٩ - ٥٠٠، البيهقي - دلائل ٤/ ٣١٤، ابن سعد - الطبقات ٢/ ١٢١.
(٤) فتح الباري ٧/ ٤٤٩ - ٥٠٠، البيهقي - دلائل ٤/ ٣١٤، ابن سعد - الطبقات ٢/ ١٢١.
(٥) فتح الباري ٧/ ٥٠٢ وقال الترمذي: حديث حسن غريب.
(٦) البخاري - الصحيح (فتح الباري ٧/ ٥٠٨ - ٥٠٩)، مسلم - الصحيح ٢/ ٩٢٣ (حديث ١٢٦٦).
(٧) أحمد - المسند ٤/ ٢٣٩، رقم (٣٥٣٦).

طوافهم وسعيهم ويتعجبون من قوتهم ويلومون بعضهم بعضا بشأن الزعم بأن حمى المدينة قد أوهنتهم [1].

وقد قصد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بهذه الطريقة التي فعلها عند دخوله المسجد الحرام، وهي الاضّطباع، والهرولة، ورفع الأصوات بالتلبية، أن يرهب قريشاً، وأن يظهر لها قوة المسلمين وعزيمتهم وتمسكهم بدينهم، ومناعة جبهتهم وقد أثر هذا الأسلوب في نفوس المشركين وبهذا الأسلوب النبوي الكريم أغاظ الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المشركين وكايدهم، فقد كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتقرب إلى الله بمكايدتهم وإغاظتهم، ففي غزوة أحد أذن صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأبي دجانة أن يمشي متبختراً أمام المشركين لاظهار عزة المؤمن ولأن ذلك يغيظ المشركين، وزيادة في اغاظتهم كان يلبس العصابة الحمراء دون أن ينكر الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذلك وفي غزوة الحديبية ساق رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الهدي جمل أبي جهل الذي غنمه في بدر، ليراه المشركون فيزداود غيظاً حين يذكرون مصارع قتلاهم وذل أسراهم وهاهو ذا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يأمر المسلمين في عمرة القضاء باظهار التجلد والهرولة لاغاظتهم ومكايدتهم ورد كيدهم في نحورهم [2]، وقد ذكر ابن القيم: (بأن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يكيد المشركين بكل مايستطيع) [3].

فهذه حرب نفسية شنها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على المشركين وقد أتت أكلها ولقد أقام الرسول في مكة ثلاثة أيام، ومعه المسلمون يرفعون راية التوحيد، ويطوفون بالبيت العتيق، ويرفعون الأذان ويقيمون الصلاة، ويصلي بهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الصلوات الخمس في جماعة، وكان بلال بن رباح بصوته الندي يرفع الأذان من علا ظهر الكعبة، فكان وقعه على المشركين كالصاعقة [4].

والتلبية الجماعية التي كانت تعج بها أصوات المسلمين، والتي لم تنقطع منذ أن احرموا واستمرت حتى دخلوا مكة، فقد كان للتلبية مغزى ومعنى، فهي تعلن التوحيد وترفع شعاره، وتعني ابطال الشرك واسقاط رايته، وتعلن الحمد والثناء على الله الذي مكنهم من أداء هذا النسك فهذه بعض معاني تلبية المسلم بقوله:

---

(١) البخاري - الصحيح (فتح الباري ٧/ ٥٠٨ - ٥٠٩، حديث ٤٢٥٦، ٤٢٥٧)، مسلم - الصحيح ٢/ ٩٢٣ (حديث ١٢٦٦)، أحمد - المسند ٤/ ٢٣٩.

(٢) صلح الحديبية لأبي فارس، ص٢٨٢.

(٣) زاد المعاد (٣/ ٣٧١).

(٤) صلح الحديبية لأبي فارس، ص٢٧٠.

لبيك اللهم لبيك لبيك لا شريك لك لبيك إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك[1].

لقد كان مظهراً دعوياً مؤثراً عندما بدأ الموكب النبوي الكريم يقترب من بيوت مكة المكرمة وأبنيتها شاقاً طريقه باتجاه الكعبة المشرفة وهم في مظهرهم المهيب، وأصواتهم تشق عنان السماء بالتلبية، فقد ذكرت معظم كتب السير والمغازي أن قسماً من أهالي مكة خرج إلى رؤوس الجبال لينظر إلى المسلمين من الأماكن العالية، والقسم الأكبر وقف عند دار الندوة المجاورة للكعبة الشريفة آنذاك، ليشاهدوا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابة الكرام أثناء دخولهم مكة المكرمة وبيت الله الحرام[2].

وبعد أن أدى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مناسك العمرة هو ومن معه، وجه جماعة من أصحابه إلى موضع سلاحهم في ياجج ليتيحوا الفرصة لإخوانهم الذين كانوا يحرسون السلاح لأداء نسكهم وقضاء عمرتهم، ففعلوا[3].

لقد كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتعامل مع نفوس يدرك حقيقة شوقها لبيت الله الحرام، وماجاءت للمرة الثانية وقطعت هذه المسافة الشاسعة إلا لتنال هذا الشرف، وتبل هذا الظمأ، فتطوف مع الطائفين وتسعى مع الساعين، فعمل صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على مراعاة النفوس، وساعادها ولبى مطالبها من أجل أصلاحها والرقي بها؛ أنه من منهج النبوة في التربية[4].

ثم دخل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الكعبة المشرفة ومكث فيها إلى الظهر، وأورد ابن سعد رواية غير صحيحة جاء فيها أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمر بلالا فأذن على ظهر الكعبة[5].

ولما انقضت الأيام الثلاثة على إقامة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والمسلمين في مكة، جاء المشركون من قريش إلى علي بن أبي طالب وقالوا له: «قل لصاحبك: اخرج عنا فقد مضى الأجل»، فخرج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من مكة في اليوم الرابع ونزل

(١) صلح الحديبية، ص٢٧٧، السيرة النبوية - دروس وعبر في تربية الأمة وبناء الدولة، ٨ / ١٧٠.
(٢) منهج الأعلام الإسلامي في صلح الحديبية، ص٣١٤.
(٣) ابن سعد - الطبقات ٢/ ١٢٢.
(٤) صلح الحديبية لأبي فارس، ص٢٧٧.
(٥) ابن سعد - الطبقات ٢/ ١٢٢.

بسرف فأقام بها إلى أن تتامّ الناس، ثم انصرف بهم إلى المدينة [1]، وقد نزل في عمرة القضاء هذه قوله تعالى: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحاً قَرِيباً﴾ [الفتح: ٢٧].

ولما بلغ رسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منطقة سرف[2] تزوّج رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ميمونة بنت الحارث الهلاليّة وكانت ميمونة، أخت أم الفضل، زوجة العباس بن عبدالمطلب، فتاة في السادسة والعشرين، قد جعلت أمر زواجها بعد وفاة زوجها أبو رهم بن عبدالعزى إلى أختها أم الفضل، فجعلته أم الفضل إلى زوجها العباس، فزوجها العباس من ابن أخيه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأصدقها عنه أربعمائة درهم، وهي خالة عبدالله بن عباس، وخالد بن الوليد ولما أنقضت الثلاثة أيام، التي نص عليها عهد الحديبية، أراد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يتخذ من زواجه من ميمونة وسيلة لزيادة التفاهم بينه وبين قريش، فجاءه سهيل بن عمرو، وحويطب بن عبدالعزى، موفدين من نفر من قريش فقالوا: إنه قد انقضى أجلك، فأخرج عنا، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما ذكر ابن إسحاق: «**وماعليكم لو تركتموني، فأعرست بين أظهركم، وصنعنا لكم طعماً فحضرتموه؟**».

قالوا: لاحاجة لنا في طعامك فاخرج عنا[3].

فخرج، وخلف أبا رافع مولاه على ميمونة، حتى أتاه بها في بسرف فبنى بها هناك، وهي آخر من تزوج الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من نسائه وآخر من مات من نسائه بعده، وأنه ماتت ودفنت بسرف، فمكان عرسها هو مكان دفنها، ف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وأرضاها [4].

ولما أراد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الخروج من مكة تبعتهم ابنة حمزة تنادي: يا عم يا عم فتناولها علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فأخذ بيدها وقال لفاطمة دونك ابنة

---

(١) البخاري - الصحيح، فتح الباري ٧/ ٤٩٩ (حديث ٤٢٥١)، ابن سعد - الطبقات ٢/ ١٢٢، ابن هشام - السيرة ٤/ ٢٢ - ٢٣.

(٢) سرف: - بفتح أوله وكسر ثانيه - موضع على ستة أميال من مكة، تزوج به رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ميمونة بنت الحارث وهناك بنى بها، وهناك توفيت.

(٣) السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ١٩).

(٤) البخاري - الصحيح (فتح الباري، حديث ٤٢٥٩)، ابن القيم - زاد المعاد (٣/ ٣٧٢ - ٤)، أبو داود - السنن ٢/ ٤٢٥، البيهقي - دلائل (٤/ ٣٣٢ - ٦)، مسلم - الصحيح (٢/ ١٠٣٢ حديث ١٤١١).

عمك فحملتها فاختصم فيها علي وزيد وجعفر فقال علي: أنا أخذتها وهي ابنة عمي وقال جعفر ابنة عمي وخالتها تحتي وقال زيد ابنة أخي فقضى بها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لخالتها: وقال: الخالة بمنزلة الأم وقال لعلي: أنت مني وأنا منك وقال لجعفر: أشبهت خَلْقي وخُلُقي وقال لزيد: أنت أخونا ومولانا وقال علي: ألا تتزوج بنت حمزة. قال: إنها ابنة أخي من الرضاعة[1].

وفي هذه القصة دورس وعبر وأحكام وفوائد منها:

١ - الخالة بمنزلة الأم.

٢ - الخالة تقدم على غيرها في الحضانة إذا لم يوجد الأبوان.

٣ - تزكية رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لجعفر بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ووصفه له بقوله: أشبهت خُلقي وخَلقي.

٤ - منقبة علي تأمل قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أنت مني وأنا منك، والمعنى أنت مني وأنا منك في النسب والصهر، والسابقة والمحبة.

٥ - منقبة زيد بن حارثة: يقول له الرسول أنت أخونا مولانا لأنه كان أخاً لحمزة بن عبدالمطلب فقد آخى الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بينهما، وهو باجتهاده يريد أن يكون عليه ماعلى الأخ الشقيق من واجبات والواجب هنا أن يكون ولياً على بنت حمزة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٦ - الخالة تقدم على العمة في الحضانة: لقد حكم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى زوجة جعفر بالحضانة وعمتها صفية بنت عبدالمطلب حية موجودة.

٧ - زواج المرأة لايسقط حقها في الحضانة: فقد حكم الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالحضانة لخالة بنت حمزة وهي متزوجة من جعفر بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٨ - لابد من موافقة الزوج على حضانة زوجته لابنة أختها، لأن الزوجة محتسبة لمصلحته ومنفعته، والحضانة قد تفوت هذه المصلحة جزئياً، فلابد من استئذانه، ونلاحظ هنا أن جعفر بن أبي طالب قد طالب بحضانة بنت عمه حمزة لخالتها وهي زوجة له، فدل على رضاه بذلك.

٩ - إن الطفل إذا رضع مع عمه يصبح أخاً له في الرضاعة، وتصبح بناته

(١) البخاري - الصحيح (فتح الباري، حديث ٤٢٥٩)، ابن القيم - زاد المعاد (٣/ ٣٧٢ - ٤)، أبو داود - السنن ٢/ ٤٢٥، البيهقي - دلائل (٤/ ٣٣٢ - ٦)، مسلم - الصحيح (٢/ ١٠٣٢ حديث ١٤١١).

كلها بنات أخيه في الرضاعة ، فيحرم عليه نكاحهن[1] .

لقد أثرت عمرة القضاء في هذه الفترة على معنويات قريش تأثيراً كبيراً ، فقد وقف الكثير من قريش عند دار الندوة بمكة ، كما عسكر آخرون فوق الهضاب المحيطة بها ليشهدوا دخول الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه ، فلما دخل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المسجد اضطجع بردائه وأخرج عضده اليمنى ثم قال: «**رحم الله امرأً اراهم اليوم من نفسه قوة**» ، ثم استلم الركن وأخذ يهرول وأصحابه معه . فلم يكد يترك الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مكة ، حتى وقف خالد بن الوليد يقول في جمع من قريش لقد استبان لكل ذي عقل أن محمداً ليس بساحر ولا شاعر وأن كلامه من كلام رب العالمين ، فحق كل ذي لب أن يتبعه ، وسمع أبوسفيان بما كان من قول خالد بن الوليد ، فبعث في طلبه ، وسأله عن صحة ماسمع فأكد له خالد صحته فاندفع أبو سفيان إلى خالد في غضبه ، فحجز عنه عكرمة ، وكان حاضراً ، وقال: مهلاً يا أباسفيان ، فوالله خفتُ للذي خفت أن أقول مثل ماقال خالد وأكون على دينه ، أنتم تقتلون خالداً على رأي رآه . وهذه قريش كلها تبايعت عليه ، والله لقد خفت ألا يحول الحول حتى يتبعه أهل مكة كلهم: وأسلم من بعد خالد بن الوليد عمرو بن العاص ، وحارس الكعبة نفسها عثمان بن طلحة ؛ بل وظهر الإسلام في كل بيت من قريش سراً وعلانية ، وبهذه النتيجة الطيبة يمكننا القول بأن عمرة القضاء هذه قد فتحت أبواب قلوب أهل مكة قبل أن يفتح المسلمون أبواب مكة نفسها)[2] .

وسميت هذه العمرة بعمرة القضاء ؛ إما لأنها كانت قضاء عن عمرة الحُدَيْبِيَة ، أو لأنها وقعت حسب المقاضاة - أي المصالحة - التي وقعت في الحديبية ، والوجه الثاني رجحه المحققون ، وهذه العمرة تسمي بأربعة أسماء: القضاء ، والقَضِيَّة ، والقصاص ، والصُلح .

السرايا والأحداث بين عمرة القضاء وغزوة فتح مكة:

وقد وقعت عدد من الأحداث والسرايا بعد رجوع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من هذه العمرة ، وهي كما يلي:

---

(١) زاد المعاد ، (٣/ ٣٧٤ ، ٣٧٥) ؛ صلح الحديبية لأبي فارس ، ٢٨٦ ، ٢٨٧ .

(٢) خطاب ، الرسول القائد ، ص٢٠٩ ، ٢١٠ .

- سرية ابن أبي العوجاء السلمي رضي الله تعالى عنه إلى بني سليم :

بعث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد عودته من عمرة القضاء سرية من خمسين فارسا إلى بني سليم جعل عليها ابن أبي العرجاء السلمي ، فلما فصلوا من المدينة ، خرج عين لبني سليم كان معهم إلى قومه فحذرهم ، فجمّعوا واستعدوا للقتال ؛ وحين وصلت السرية ، ودعوا إلى الإسلام رفضوا واستكبروا وأحدقوا بالسرية فقتلوا عامة من فيها وأصيب ابن أبي العرجاء وسقط بين القتلى ثم تحامل ومن عاد إليه من بقايا سريته حتى بلغوا المدينة في شهر صفر سنة ٨ هـ [١] .

- اسلام عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ :

وفي الأول من شهر صفر من السنة الثامنة للهجرة خرج عمرو بن العاص عامدا إلى الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليسلم ، فلقيه خالد بن الوليد وهو في الطريق إلى المدينة ، يريد ما يريد عمرو ، فقدما سويا على الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبايعاه على الإسلام [٢] .

يقول عمرو بن العاص عن قصة إسلامه: لما انصرفنا مع الأحزاب عن الخندق جمعت رجالاً من قريش ، كانوا يرون رأيي ويسمعون مني ، فقلت لهم: تعلمون والله إني أرى أمر محمد يعلو الأمور علواً منكراً ، وإني قد رأيت أمراً ، فما ترون فيه؟ قالوا: وماذا رأيت؟ قال: رأيت أن نلحق بالنجاشي ، فنكون عنده ، فإن ظهر محمد على قومنا كنا عند النجاشي ، فإنا أن نكون تحت يديه أحب إلينا من أن نكون تحت يدي محمد ، وإن ظهر قومنا ، فنحن من قد عرفوا ، فلن يأتينا منهم إلا خير ، قالو: إن هذا الرأي ، قلت: فاجمعوا لنا مانهديه له ، وكان أحب مايهدى إليه من أرضنا الأدم [٣] ، فجمعنا له أدماً كثيراً ثم خرجنا حتى قدمنا عليه ، فوالله إنا لعنده إذ جاءه عمرو بن أمية الضمري ، وكان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد بعثه إليه في شأن جعفر وأصحابه ، قال: فدخل عليه ، ثم خرج من عنده ، قال: فقلت لأصحابي: هذا عمرو بن أمية الضمري ، لو دخلت على النجاشي ، وسألته إياه فأعطانيه ، فضربت عنقه ، فإذا فعلت ذلك رأت قريش أني أجزأت عنها [٤] ، حيث قتلت رسول محمد ،

---

(١) الواقدي - مغازي ٢/ ٧٤١ بإسناده إلى الزهري ، ابن سعد - الطبقات ٢/ ١٢٣ ، البيهقي - دلائل ٤/ ٣٤١ .

(٢) الفتح الرباني ٢١/ ١٣٣ - ١٣٦ ، ابن هشام في السيرة (٣/ ٣٨٤ - ٨٦) ، الواقدي ، مغازي (٢/ ٧٤١/ ٥٠) ، ابن سعد - الطبقات ٤/ ٢٥٢ .

(٣) الأدم: الجلد .

(٤) اجزأت عنها: كفيتها .

قال: فدخلت عليه، فسجدت له كما كنت أصنع، فقال: مرحباً صديقي، أهديت إلي من بلادك شيئاً؟ قال: قلت: نعم، أيها الملك، قد أهديت إليك أدماً كثيراً، قال: ثم قربته إليه فأعجبه واشتهاه ثم قلت له: أيها الملك إني قد رأيت رجلاً خرج من عندك، وهو رسول رجل عدو لنا، فأعطينه لأقتله، فإنه قد أصاب من أشرافنا وخيارنا، قال: فغضب، ثم مد يده، فضرب بها أنفه ضربة ظننت أنه قد كسره، فلو انشقت لي الأرض لدخلت فيها فرقاً منه، ثم قلت له: أيها الملك، والله لو ظننت أنك تكره هذا ماسألتكه، قال: أتسألني أن أعطيك رسول رجل يأتيه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى لقتله قال: قلت: أيها الملك، أكذلك هو؟ قال: ويحك ياعمرو أطعني واتبعه، فإنه والله لعلى الحق، وليظهرن على من خالفه كما ظهر موسى على فرعون وجنوده، قال: قلت: أفتبايعني له على الإسلام؟ قال: نعم، فبسط يده فبايعته على الإسلام، ثم خرجت إلى أصحابي، وقد حال رأيي عما كان عليه، وكتمت على أصحابي إسلامي ثم خرجت عامداً إلى رسول الله لأسلم، فلقيت خالد بن الوليد، وذلك قبيل الفتح، وهو مقبل من مكة، فقلت: أين يا أبا سليمان؟ قال: والله لقد استقام المنسم[1]، وإن الرجل لنبي، أذهب والله فأسلم، فحتى متى، قال: قلت: والله ماجئت إلا لأسلم. قال: فقدمنا المدينة على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فتقدم خالد بن الوليد، فأسلم، وبايع، ثم دنوت، فقلت: يارسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إني أبايعك على أن يغفر لي ماتقدم من ذنبي، ولا أذكر ماتأخر. قال: فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ياعمرو، بايع، فإن الإسلام يجب ماكان قبله، وإن الهجرة تجب ماكان قبلها**»، قال: فبايعته ثم انصرفت[2]. وفي رواية قال: . . . فلما جعل الله الإسلام في قلبي أتيت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقلت: ابسط يمينك فلأبايعك. فبسط يمينه، قال: فقبضت يدي، قال: «**مالك ياعمرو؟**» قال: قلت: أردت أن اشترط. قال: «**تشترط بماذا؟**» قلت: أن يغفر لي. قال: «**أما علمت أن الإسلام يهدم ماكان قبله، وأن الهجرة تهدم ماكان قبلها، وأن الحج يهدم ماكان قبله؟...**»[3].

---

(١) استقام المنسم: تبين الطريق ووضح.

(٢) صحيح السيرة النبوية، ص٤٩٤.

(٣) مسلم، كتاب الإيمان، باب كون الإسلام يهدم ماقبله رقم ١٢١، الفتح الرباني ٢١/ ١٣٣-١٣٦، ابن هشام، السيرة (٣/ ٣٨٤ - ٨٦)، الواقدي، مغازي (٢/ ٧٤١/ ٥٠)، ابن سعد - الطبقات ٤/ ٢٥٢.

- إسلام خالد بن الوليد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ :

ويقول خالد بن الوليد عن قصة إسلامه: (. . . لما أراد الله بي من الخير ماأراد قذف في قلبي حُبّ الإسلام وحضرني رشدي ، وقلت: قد شهدت هذه المواطن كلها على محمد ، فليس موطنٌ أشهده إلا أنصرف وأنا أرى في نفس أني مُوضع في غير شيء وأن محمداً سيظهر ، فلما خرج رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى الحديبية خرجت في خيل المشركين فلقيت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أصحابه بعُسْفان ، فقمت بإزائه وتعرضت له ، فصلى بأصحابه الظهر آمناً منا ، فهممنا أن نغير عليه ، ثم لم يُعزَم لنا - وكانت فيه خيرة - فاطلع على مافي أنفسنا من الهموم فصلى بأصحابه صلاة العصر صلاة الخوف ، فوقع ذلك مني موقعاً وقلت: الرجل مَمنوع! وافترقنا وعدل عن سَنَن خلينا وأخذ ذات اليمين ، فلما صالح قريشاً بالحديبية ودافعته قريش بالرّواح قلت في نفسي: أي شيء بقي؟ أين المذهب إلى النجاشي؟ فقد اتبع محمداً ، وأصحابه آمنون عنده ، فأخرج إلى هرقل؟ فأخرج من ديني إلى نصرانية أو يهودية ، فأقيم مع عجم تابعاً ، أو أقيم في داري فيمن بقى؟ فأنا على ذلك إذ دخل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عُمرة القضيَّة ، فتغيبت فلم أشهد دخوله ، وكان أخي الوليد بن الوليد قد دخل مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في عُمرة القضية ، فطلبني فلم يجدني فكتب إليَّ كتاباً فإذا فيه: بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد: فإني لم أرَ أعجب من ذهاب رأيك عن الإسلام وعَقْلُك عَقْلُك! ومثل الإسلام جَهَله أحد؟ وقد سألني رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عنك فقال: «**أين خالد؟**» فقلت: يأتي الله به؟ فقال: مامثله جهل الإسلام! ولو كان جعل نكايته وجدَّه مع المسلمين على المشركين ، لكان خيراً له ، ولقدمناه على غيره ، فاستدرك ياأخي مافاتك ، فقد فاتتك مواطن صالحة .

قال: فلما جاءني كتابه نشطت للخروج ، وزادني رغبة في الإسلام وسرني مقالة رسول الله . قال خالد: وأرى في النوم كأني في بلاد ضيقة جديبة ، فخرجت إلى بلد أخضر واسع ، فقلت إن هذه لرؤيا . . . فلما قدمت المدينة قلت: لأذكرنَّها لأبي بكر . قال: فذكرتها فقال: هو مخرجك الذي هداك الله للإسلام ، والضيق الذي كنت فيه من الشرك ، فلما أجمعت للخروج إلى رسول الله قلت: من أصاحب إلى رسول الله؟ فلقيت صفوان بن أمية فقلت: يا أبا وهب ، أما ترى مانحن فيه؟ إنما نحن أكَلَةُ رأس[1] ، وقد ظهر محمد على العرب والعجم ، فلو

(١) أي هم قليل يشبعهم رأس واحد ، وهو جمع آكل .

قدمنا على محمد فاتبعناه فإن شرف محمد على العرب ، فابى أشدَّ الإباء وقال: لو لم يبق غيري من قريش ماتبعته أبداً . فافترقنا وقلت: هذا رجل موتور يطلب وتراً ، قد قتل أبوه وأخوه ببدر . فلقيت عكرمة بن أبي جهل فقلت له مثل الذي قلت لصفوان ، فقال لي مثل ماقال صفوان ، قلت: فاطو ماذكرت من قتل من أبائه فكرهتُ أذكّره ، ثم قلت: وماعليَّ وأن راحل من ساعتي . فذكرت له ماصار الأمر إليه فقلت: إنما نحن بمنزلة ثعلب في جُحر ، لو صُبَّ عليه ذَنوب[1] من ماء لخرج . قال: وقلت له نحو مما قلت لصاحبيه ، فأسرع في الاجابة وقال: لقد غدوت اليوم وأنا أريد أن أغدو ، وهذه راحلتي بضحّ مناخة . قال: فاتّعدت أنا وهو بيأجج ، إن سبقني أقام وإن سبقته أقمت عليه . قال: فادّلجنا سحراً فلم يطلع الفجر حتى التقينا بيأجج ، فغدونا حتى انتهينا إلى الهَدَّة ، فنجد عمرو بن العاص بها فقال: مرحباً بالقوم! فقلنا: وبك! قال: مسيركم؟ قلنا: ماأخرجك؟ قال: فما الذي أخرجكم؟ قلنا: الدخول في الإسلام واتباع محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . قال: وذلك الذي أقدمني .

قال: فاصطحبْنا جميعاً حتى قدمنا المدينة فانخنا بظاهر الحرّة ركابنا ، فأخبر بنا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فسُرَّ بنا ، فلبست من صالح ثيابي ، ثم عمدت إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فلقيني أخي فقال: أسرع فإن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد أخبر بك فسُرَّ بقدومك وهو ينتظركم . فأسرعت المشي فطلعت عليه ، فما زال يتبسم إليّ حتى وقفت عليه ، فسلمت عليه بالنبوة فرد علي السلام بوجه طلق ، فقلت: إني اشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله . فقال: الحمدلله الذي هداك! قد كنت أرى لك عقلاً رجوت ألا يسلمك إلا إلى الخير . قلت: يارسول الله قد رأيت ماكنت أشهد من تلك المواطن عليك معانداً عن الحق فادع الله أن يغفرها لي فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الإسلام يجُب ماكان قبله**» ، قلت: يارسول الله ، على ذلك؟ فقال: «**اللهم اغفر لخالد كلّ ما أوضع فيه من صدٍّ عن سبيلك**» . قال خالد: وتقدم عمرو ، وعثمان ، فبايعا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وكان قدومنا في صفر سنة ثمان ، فوالله ماكان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من يوم أسلمت يعدل لي أحد من أصحابه فيما حَزَبه[2] .

وفي إسلام عمرو بن العاص وخالد بن الوليد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ دروس ولطائف

---

(١) الذنوب: الدلو العظيمة .

(٢) البداية والنهاية (٤/ ٢٣٩ ، ٢٤٠) ؛ التاريخ الإسلامي (٧/ ٩٥) .

وعبر منها:

- غضبة النجاشي تدل على صدق إيمانه وحبه لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وحبه للمسلمين، وصدق النجاشي كان له أثر في إيمان عمرو بن العاص ودخوله في الإسلام، وبذلك نال النجاشي أجراً عظيماً حيث جذب إلى الإسلام رجلاً من عظماء قريش[1].

- كان إسلام عمرو بن العاص نصراً كبيراً للإسلام، والمسلمين فلقد سخَّر عقله الكبير ودهاءه العظيم لصالح دعوة الإسلام، وخسر الكفار بإسلامه خسارة كبيرة لأنهم كانوا يُعدُّونه لعظائم الأمور التي تحتاج إلى دهاء ومقدرة على التأثير وخاصة فيما يتعلق بعدائهم مع المسلمين[2].

- أدرك خالد بن الوليد أن العاقبة لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتأمل قوله: لقد شهدت هذه المواطن كلها على محمد فليس موطن أشهده إلا انصرف وأنا أرى في نفسي أني موضع في غير شيء، وأن محمداً سيظهر[3] وفي هذا عبرة لكل الذين يحاربون الإسلام[4].

- الاهتمام بالبشر طريق من طرق التأثير عليهم وكسبهم إلى الصف المؤمن ولذلك قال رسول الله للوليد بن الوليد: «**مامثل خالد يجهل الإسلام ولو كان جعل نكايته وجدّه مع المسلمين على المشركين لكان خيراً له ولقدمناه على غيره**»، فكانت لهذه الكلمات البليغة أعظم الأثر في تحول قلب خالد وتوجهه نحو الإسلام، وقد كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عليماً في مخاطبة النفوس والتأثير عليها، فلقد أدرك مواهب خالد في القيادة والزعامة فوعد بتمكينه من ذلك وتقديمه على غيره في هذا المضمار، ومدح صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سداد رأيه ورجاحة عقله، ونضوج فكره، فانتزع صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بهذه الكلمات كل الجوانب التي تجعل خالداً يظل على الشرك الذي لم يكن مقتنعاً به إلا بمقدار ماحصل له فيه من قيادة وتصدر، فلما كان ماهيأه له المشركون سيحصل له إذا دخل في الإسلام، واطمأن بأنه لو أسلم لن يكون في آخر القائمة ولن يكون مهملاً شجعه ذلك على التغلب على وساوس إبليس ورجح ما اطمأنت إليه نفسه من الميل إلى الإسلام فعزم على

(١) التاريخ الإسلامي (٧/ ٩٠).
(٢) التاريخ الإسلامي (٧/ ٩١).
(٣) صلح الحديبية لأبي فارس، ص٢٦٣.
(٤) التاريخ الإسلامي (٧/ ٩٥).

الدخول فيه، لقد كان إسلام عمرو بن العاص وخالد بن الوليد قوة للإسلام وضعفاً للشرك وكتب الله على أيديهم صفحات مشرقة من تاريخ المسلمين الجهادي أصبحت باقية في ذاكرة الأمة وتاريخها المجيد على مر الدهور وكر العصور، توالي الأزمان[1].

- سرية عبد الله بن غالب الليثي إلى بني الملوح:

نتيجة للتحركات المشبوهة والمعادية من الأعراب المحيطين بالمدينة، فضلا عن قطعهم الطريق أمام الدعاة المسلمين، فقد قام رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بحملة واسعة ومكثفة لتأديب هؤلاء الأعراب، قاد خلالها عدة غزوات، وبعث أصحابه في سرايا تأدبية، كان منها سرية بقيادة غالب بن عبد الله الليثي، وقوة بضعة عشر رجلا، إلى بني الملوح. القاطنين في منطقة الكديد الواقعة بين عسفان وقديد[2].

وكانت مهمتها بناء على الأوامر الصادرة لهم من القيادة العليا هي مباغتة بني الملوح بشنٍّ غارة مفاجئة ومركزة عليهم.

وكانت تلك هي الاستراتيجية التي اتبعها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في غزواته، وسراياه ضد الأعراب، استطاع من خلالها تحقيق النصر عليهم، وذلك يدل على ذكائه وشدة معرفته بأحوال الأعراب ونفسياتهم، فهم أشداء إذا استعدوا للقتال، وتأهبوا للدفاع عن أنفسهم، أما بمباغتتهم فتسهل السيطرة عليهم وإرعابهم.

وكذلك تظهر في ذلك منهجية رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ التخصصية حيث يرسل لكل منطقة ولكل قوم من هم خبير ومتخصص بأحوالهم وغالبا ما يكون منهم.

---

(١) التاريخ الإسلامي (٧/ ٩٧).

(٢) ابن حجر، فتح (٨/ ٣). وقديد: موضع بين مكة والمدينة بين منزلتي أمج وعسفان، وهو ماء عين جارية عليها نخل كثير لابن محرز المكي (معجم ما استعجم - كتاب الكاف والدال). وقال الحموي: هو موضع على اثنين وأربعين ميلا من مكة (الحموي: معجم البلدان - باب الكاف والدال وما يليهما).

قال البلادي: والكديد يعرف اليوم باسم (الحمض) أرض بين عسفان وخليص على (٩٠) ميلا من مكة على الجادة العظمى إلى المدينة، وسمي الحمض لكثرة نبات العصلاء فيها، وهي أرض تزرع عثريًا يسقيها وادي غران، وأهلها زبيد من حرب. البلادي، معجم (٢٦٣).

خرجت السرية ميممة شطر الهدف وفي منطقة قديد[1] أثناء مسيرهم التقوا برجل من قبيلة ليث يدعى الحارث بن البرصاء الليثي ، فألقوا القبض عليه فقال محتجًا: "إنما جئت أريد الإسلام ، ما خرجت إلا إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ".

فرد عليه القائد: "إن كنت إنما جئت مسلمًا فلن يضرك رباط يوم وليلة ، وإن كنت على غير ذلك فسنوثق منك"[2].

ثم أمر بشد وثاقه ، ودفع به إلى أحد أفراد السرية[3] ، وقال له: "امكث معه حتى نمرَّ عليك ، فإن نازعك فاحتز رأسه"[4].

ثم انطلقوا في طريقهم حتى وصلوا منطقة الكديد عند غروب الشمس ، فكمنوا في الوادي ، ثم أرسلوا جندب بن مكيث الجهني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أحد أفراد السرية للاستطلاع ، واستكشاف أحوال القوم .

يقول جندب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "فخرجت حتى آتي تلاً مشرفا على الحاضر[5] ، فأسندت فيه ، فعلوت على رأسه ، فنظرت إلى الحاضر ، فوالله إني لمنبطح على التل إذ خرج رجل منهم من خبائه ، فقال لامرأته: إني لأرى على التل سوادًا ما رأيته في أول يومي ، فانظري إلى أوعيتك هل تفقدين منها شيئا ، لا تكون الكلاب جرَّت بعضها ، قال: فنظر ، فقلت: لا والله ما أفقد شيئا ، قال: فناوليني قوسي وسهمين ، فناولته ، قال: فأرسل سهما ، فوالله ما أخطأ جنبي فأنزعه فأضعه ، وثبتُّ مكاني ، قال: ثم أرسل الآخر ، فوضعه في منكبي ، فأنزعه فأضعه ، وثبتُّ

---

(١) قديد: ثرية جامعة ، مذكورة في رسم الفرع ، وفي رسم العقيق ، وهي كثيرة المياه والبساتين ، وسميت قديدا لتقدد السيول بها ، وهو واد فحل من أودية الحجاز التهامية يأخذ أعلى مساقط مياهه من حرة "ذرة" فيسمى أعلاه ستارة ، وأسفله قديدا ، يقطعه الطريق من مكة إلى المدينة على نحو من (١٢٠) كيلوا مترا ثم يصب في البحر عند القضيمة ، فيه عيون ، وقرى كثيرة لحرب وبني سليم . انظر البكري ، معجم (٣/ ١٠٥٤) ، والبلادي ، معجم (٢٤٩) .

(٢) ابن هشام ، سيرة (٢/ ٦١٠) ، ابن سعد ، طبقات (٢/ ١٢٤) ، الفتح (٢١/ ١٢٩) ، الطبراني ، المعجم (٢/ ١٢٨) .

(٣) ذكر الواقدي أنه يقال له: سويد بن صخر . الواقدي ، مغازي (٢/ ٧٥١) .

(٤) الفتح (٢١/ ١٢٩) ، الطبراني ، المعجم (٢/ ١٧٨) .

(٥) الحاضر: القوم النزول على ماء يقيمون به ، ولا يرحلون عنه . ويقال للمناهل الحاضر ، للاجتماع والحضور عليها . قال الخطابي: ربما جعلوا الحاضر اسما للمكان المحضور . يقال: نزلنا حاضر بني فلان ، فهو فاعل بمعنى مفعول ، ابن الأثير نهاية – باب الحاء مع الضاد .

مكاني، فقال لامرأته: لو كان ربيئة[1] لقوم لقد تحرك، لقد خالطه سهماي لا أبا لك، إذا أصبحت فابتغيهما، فخذيهما، لا يمضغهما عليَّ الكلاب. قال ثم دخل"[2].

ويرجع جندب إلى أصحابه الذين وضعوا خطة الهجوم بناء على ملحوظاته التي ضمَّنها تقريره عن مهمته التي أثبت من خلالها أن جند الإسلام الأوائل كانوا على قدر كبير من الشجاعة والقوة ورباطة الجأش، وقوة الاحتمال.

واتفقوا على شعار (أمت، أمت) كلمة تعارف بينهم[3].

وفي وجه السَّحر وبعد أن اطمأن بنو الملوح وناموا، شنُّوا عليهم هجوما فجريًّا خاطفًا ومباغتًا أفقدهم توازنهم مما أمكنهم من السيطرة على المدافعين منهم بسهولة، حيث قتلوا بعضهم، ثم استاقوا ماشيتهم وتوجهوا قافلين بسرعة، حيث مروا بابن البرصاء وصاحبه فاحتملاهما معهم، ولكن الليثيين ما لبثوا أن نظموا صفوفهم بسرعة بعد زوال آثار الهجوم المباغت عنهم، وتبعوهم بقوة تعقبية كبيرة، حتى إذا ما أدركوهم في منطقة قديد ليس بينهم إلا الوادي فقط يقطعونه ليطبقوا عليهم بما لا قبل لهم به إذ بالعناية الإلهية تتدخل في آخر لحظة لإنقاذهم من الخطر المحدق بهم.

يقول جندب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "فأرسل الله الوادي بالسيل من حيث شاء تبارك وتعالى من غير سحابة نراها، ولا مطر، فجاء بشيء ليس لأحد به قوة، ولا يقدر أن يجاوزه، فوقفوا ينظرون إلينا، وإنا لنسوق نعمهم، ما يستطيع منهم رجل أن يجيز إلينا، ونحن نحدوها[4] سراعًا، حتى فُتناهم، فلم يقدروا على طلبنا"[5][6].

---

(١) الربيئة: هو العين والطليعة الذي ينظر للقوم لئلا يدهمهم عدوّ، ولا يكون إلا على جبل أو شرف ينظر منه. ابن الأثير: نهاية - باب الراء مع الباء.

(٢) ابن هشام (٤/ ٦١٠).

(٣) كلمة التعارف، هو الشعار المتفق عليه في أرض المعركة بين المقاتلين، حتى لا يضرب بعضهم بعضًا عن طريق الخطأ خاصة وأن المسلمين والمشركين كانوا يتشابهون في المظهر الخارجي، وهو أسلوب متبع الآن في المعارك الحديثة. خطاب، الرسول القائد: (١٢٣) بتصرف.

(٤) نحدوها: نسوقها، حدا الإبل: زجرها وساقها. (القاموس: حدا).

(٥) ابن هشام (٤/ ٦١١).

(٦) الفتح (٢١/ ١٢٨ - ١٢٩)، الطبراني، المعجم (٢/ ١٧٨ - ١٧٩)، وابن خياط، تاريخ (٧٨)، وابن هشام، سيرة (٤/ ٦٠٩- ٦١٠ - ٦١١)، وابن سعد، طبقات (٢/ ١٢٤- ١٢٥)،

وقعت هذه السرية في صفر من السنة الثامنة للهجرة [1]

ولقد أثبتت هذه السرية القوة، والجلد، ورباطة الجأش، والشجاعة النادرة، والتحكم في الأعصاب، والأحاسيس، التي كان يتحلى بها جند الحق والإيمان، وطلائع الجهاد الإسلامي، إن الروعة لم تكن تتجلى في قوة وجلد ذلك الجندي الشجاع المؤمن جندب بن مكيث رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فحسب، بل في رباطة الجأش العظيمة التي تميَّز بها وهو يواجه سهمين قويين من رام قنَّاص ماهر، استقرا في جسمه وخالطاه، ومع ذلك ثبت كالطود[2] ولم يتزعزع، وكأنه قطعة من التل الذي كان منبطحا عليه، حتى إن الأعرابي تراجع عن شكه واثقًا أن ما رماه لم يكن كائنًا حيًّا، فلو كان كذلك لتحرك من مكانه على الأقل كما ذكر لزوجته. ولم يعلم ذلك الأعرابي أن الإيمان إذا تمكن من قلب الإنسان، فإنه يسمو به في روحانية عجيبة، وشفافية نادرة تسيطران عليه فتملكان عليه حسَّه وأحاسيسه.

إن قوة الإيمان تحرك في الجسم البشري قواه وطاقاته الكامنة، وتنفق فيه قوة عجيبة من التحكم والسيطرة والتحمل. وذلك ما كان عليه أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الأشداء على الكفر والكافرين، وهذه القصة إحدى الشواهد القوية على ذلك[3].

وقد تحققت في السرية بعض الكرامات التي يجعلها الله عز وجل لأوليائه الصالحين عندما يكونون في حاجة ماسة للعون الإلهي، فيمدهم بهذه الكرامات لنصرهم على أعدائهم وحمايتهم ممن يريد الشر بهم، وهذا الأمر ليس قاعدة، وإنما يظهرها الله في بعض الأحيان لتكون عبرة وعظة وتثبيتا للمؤمنين إلى جانب مهمتها الأساسية.

إن هذه المكرمة مع الفارق الكبير تشبه المعجزة التي أجراها الله عز وجل على يد نبيه موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ

والبيهقي، دلائل (٤/ ٢٩٨ - ٢٩٩).

(١) أحمد - المسند (الفتح الرباني ٢١/ ١٢٨)، سيرة ابن هشام ٤/ ٣٤١ - ٤٣، وابن سعد - الطبقات ٢/ ١٢٤، أبو داود - السنن ٣/ ١٢٨ - ١٢٩، وكذلك الواقدي - مغازي ٢/ ٧٥٠ - ٧٥٢.

(٢) الطود: الجبل.

(٣) السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة، ص ٢٦٦.

الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٦١ - ٦٧].

وقد تكررت مثل هذه الكرامات لبعض الصحابة مثل العلاء بن الحضرمي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، الذي جاز بجنده مياه الخليج العربي إلى جزيرة دارين، وسعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، الذي جاز هو وجيشه نهر دجلة إلى المدائن ففتحوها بإذن الله، إن هذه الكرامات هي من جنود الجبار عز وجل، يرسلها في الوقت المناسب لتكون نصرًا وتثبيتًا للمؤمنين، وخذلانًا للكافرين وما يعلم جنود ربك إلا هو[1].

-سرية كعب بن عمير الغفاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى أطلاح[2]:

ففي شهر ربيع الأوّل سنة ثمان من مهاجر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[3]، بعث النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كعب بن عمير الغفاري، نحو ذات أطلاح من البلقاء"[4] في بعثة دعوية، مكونة من خمسة عشر رجلاً، حتّى انتهوا إلى ذات أطلاح من أرض الشام، فوجدوا جمعاً من جمعهم كثيراً، وكانوا من قضاعة[5]، ورأسهم رجل يُقال له: "سدوس"[6].

---

(١) السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة، ص ٢٦٧.

(٢) ذات أطلاح موقع بأطراف الشام من وراء وادي القرى وهو في نواحي مؤتة كما يُفْهَم من الأحداث. ياقوت الحموي، معجم البلدان ١/ ٢١٨.

(٣) أرَّخها الواقدي، وابن سعد، بشهر ربيع الأوّل سنة ثمان من الهجرة، وتبعهما في ذلك نقلاً عنهما كلٌّ من: "ابن سيد الناس، والشامي.
وذكرها الطبري نقلاً عن الواقدي في أحداث السنة الثامنة، ولكن دون تحديد الشهر".
وذكرها ابن كثير - أيضاً - عن الواقدي دون تحديد تاريخها، ولكنّه ذكرها قبل غزوة مؤتة مباشرةً". انظر: الواقدي، المغازي ٢/ ٧٥٢، ابن سعد، الطبقات ٢/ ١٢٧، ابن سيد الناس، عيون ٣/ ١٩٧، الشامي، سبل ٦/ ٢٢٧، الطبري، تاريخ ٣/ ٢٩، ابن كثير، البداية ٤/ ٢٤٠ - ٢٤١.

(٤) البلقاء، إقليم من أرض الشام في المملكة الأردنية الهاشمية، وهو الإقليم الذي تتوسطه مدينة عمان عاصمة الأردن، ومن أشهر مدن هذا الإقليم: عمان، والسَّلْط ومادبا والزرقاء والرصيفة، يتّصل به في الجنوب إقليم الشراة الذي قاعدته معان، وفي الشمال إقليم حوران. البلادي، المعجم، ص ٤٩.

(٥) قُضَاعة - قبيلة كبيرة البطون المشهورة من قبائل العرب. انظر: القلقشندي، قلائد الجمان، ٤١ - ٤٢.

(٦) ابن سعد، طبقات ٢/ ١٢٧، ابن حجر، الإصابة ٣/ ٣٠١، الطبري، تاريخ ٣/ ٢٩.

"فدعوهم إلى الإسلام، فلم يستجيبوا لهم، ورشقوهم بالنبال"[1] استفزازاً لهم، واستدراجاً للقتال غير المتكافئ بين الطرفين، نظراً لكثرة القضاعيين، واستعدادهم المبكر[2]".

ولكن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ اضطروا في النهاية للدِّفاع عن أنفسهم، فقاتلوا قتالاً شديداً مريراً، ولكن كثرة القضاعيين لم تتح لهم الفرصة في قتال متكافئ فسقطوا شهداء على أرض ذات الطلح بعد أن سطَّروا بدمائهم الزكيةً ملحمةً جهادية رائعة، وأفلت منهم رجل جريح في القتلى، فلمَّا برد عليه الليل تحامل[3] حتَّى أتى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأخبره الخبر، فشقَّ ذلك عليه، وهمّ بالبعث إليهم، فبلغه أنَّهم قد ساروا إلى موضع آخر فتركهم[4]".

لقد كشفت هذه السرية عمَّا تخبئه الوثنية مِن غِلٍّ وحقدٍ دفينٍ على الإسلام وأهله، غِلّ عصف بكُلِّ المبادئ، وحقد ألغى القِيَم الإنسانية.

فهؤلاء قوم هداة جاءوا لنشر الخير والسلام بين مَن قتلوهم، فكان جزاؤهم الغدر بهم، وقتلهم جميعاً بلا هوادة ولا رحمة.

وقد يقول القائل: "إذا كان الأمر كذلك، فلِمَ لَمْ يتوقَّف النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن دعوة الأعراب إلى الإسلام، طالما أنَّهم لا يحترمون القيم والمبادئ، ولا يمكن الوثوق بهم؟".

قلنا: "الدعوة إلى الله لا يمكن أن تقف في أرضٍ ما، أو تتعثر بسبب ما يعترض طريقها من بعض الحوادث التي تعيق تقدمها".

وهناك حقيقة يجب ألاّ تغيب عن أذهاننا، وهي أنَّ طريق الدعوة إلى الله تعالى منذ بدأت حتى يرث الله الأرض ومَن عليها، لم يكن في يومٍ من الأيام مفروشاً بالورود، فكان لابدَّ من تقديم التضحيات في طريقها الطويل الشاق".

وقد وضَّح النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذه الحقيقة للصحابة - رضي الله تعالى عنهم - حاثّاً إياهم على الصبر والتحمُّل، وتقديم التضحيات، وذلك منذ فترة

---

(١) الواقدي (مغازي ٢/ ٧٥٣).

(٢) يذكر الواقدي في رواية أخرى، أنه حينما دنا كعب وأصحابُه من القوم، رآهم عيناً لهم، فأخبرهم بقلَّة أصحاب النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فجاءوا على الخيول فقاتلوهم (مغازي ٢/ ٧٥٣).

(٣) تحامل: تكلَّف ما لا يطيق. (القاموس: حمل).

(٤) الواقدي (مغازي ٢/ ٧٥٣).

مبكرة جداً، وبالتحديد في مكة حينما أثقلت قريش من وطئتها على المسلمين المستضعفين في مكة، فجاءوا يستنجدون بالنَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ [1].

- سرية شجاع بن وهب إلى جمع من هوازن:

وفي ربيع الأول من العام الثامن للهجرة بعث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سرية من أربعة وعشرين رجلا بإمرة شجاع بن وهب إلى جمع من هوازن «بالسيّ» من أرض بني عامر ناحية «ركبة» فأغاروا عليهم، فأصابوا نعما كثيرا وشاء وسبيا وعادوا بعد خمس عشرة ليلة، وجاء في أثرهم وفد القوم إلى المدينة وأعلنوا إسلامهم فرد المسلمون السبي [2].

- سرية زيد بن حارثة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى مدين [3]:

لم تُحَدِّد المصادر تاريخاً محدَّداً لهذه السرية، ولكن يمكن أن نستنبط لها تاريخاً تقريبياً من خلال سير أحداث السرية النبوية المباركة، حيث يمكننا الجزم بأنَّ هذه السرية كانت قبل غزوة مؤتة بلا شك، وذلك في فترة هدنة الحديبية، وهي الفترة التي زاد فيها نشاط السرايا والبعوث النبوية في المنطقة الشمالية من الجزيرة.

إذ أنَّ قائد السرية زيد بن حارثة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، كان من قادة مؤتة الذين

---

(١) غزوة مؤتة والسرايا والبعوث النبوية الشمالية، ص ٢٢٧.

(٢) البخاري - الصحيح (الفتح حديث ٣١٣٤)، (حديث ٤٣٣٨)، مسلم - الصحيح ٣/ ١٣٦٨ (حديث ١٧٤٩)، الواقدي ٢/ ٧٥٣ - ٧٥٤ ولم يذكر اشتراك عبد الله بن عمر فيها كما لم يذكر ما أصاب المشاركين في السرية من الغنيمة، وانظر ابن سعد ٢/ ١٢٧ من رواية الواقدي، ابن كثير - البداية والنهاية ٤/ ٢٦٧.

(٣) مَدْيَن: تقع غرب تبوك، بينها وبين خليج العقبة، فإذا كان المقصود مدينة شعيب فهي تُعْرَف اليوم باسم البدع، وتقع على (٢٢٠) كيلو من تبوك، يصل بينهما طريق معبَّد، أمَّا إذا كان المقصود ديار القبيلة فإنَّ الموقع والحدود تتأثر بسعة انتشار تلك القبيلة وتقلُّصها، فإذا ثبت أنَّهم من جذام كانت تمتد من ساحل البحر إلى قُرب تبوك، ثُمَّ تدخل في الشراة شمالاً، وتقرب من ضبة جنوباً".

وأرض مدين تُحَدُّ من الشرق بسراة حسمى، ومن الغرب بالبحر، ومن الشمال حقل أو العقبة، أمَّا من الجنوب فلا تتجاوز ضبة أو دونها والبدع، قرية تتوسط أرض خالية من العمران، فأقرب قرية تبعد عنها قرابة ستين كيلو، وهي - أيضاً - تتوسط وادي عفال الخالي من الزراعة والحياة إلاَّ من هذه القرية، وهي ذات زراعة لا بأس بها على آبار ضخ، وفيها سكان وحوانيت ومقاهٍ، وسكانها الحويطات، وجُلُّهم من المساعيد".

البكري: معجم ٤/ ١٢٠١، الحموي: معجم ٥/ ٧٧ - ٧٨، البلادي: رحلات في بلاد العرب، في شمال الحجاز والأردن ١٢٣، ١٣١، ١٣١، ١٣٨.

استشهدوا بها[1].

فقبل معركة مؤتة الشهيرة، بعث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِبَّه ومولاه زيد ابن حارثة - رضي الله تعالى عنه - إلى منطقة مَدْيَن، وبالتحديد إلى بلدة مقنا على ساحل البحر الأحمر، في سرية لم تذكر الروايات قوَّتها".

واستطاع زيد - رضي الله تعالى عنه - التوغُّل في تلك المنطقة البعيدة عن قاعدة المسلمين، ومناطق نفوذهم، ونجح - رضي الله تعالى عنه - في الإغارة عليهم، فأصاب منهم سبايا، منهم ضميرة "وأخوه، وأُمُّه، وأبوه، فجاء بهم زيد - رضي الله تعالى عنه - إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ".

فأمر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ببيعهم، فخرج إليهم وهم يبكون، فقال لهم: «**مِمَّ تبكون؟**» قالوا: "فرِّقنا بينهم وهم إخوة". فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا تفرِّقوا بينهم، بيعوهم جميعاً**». كما أنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مرَّ بأُمِّ ضميرة وهي تبكي، فقال: «**ما يبكيكِ؟**» قالت: "يُفرَّق بيني وبين ابني". فقال: «**لا يُفَرَّق بين الوالدة وولدها**»، ثُمَّ أرسل إلى الذي ضُمَيرة عنده فدعاه فابتاعه منه ببكر فوهبه بعد ذلك لعلي، قال: "فكان خازناً له، قال: "وولد له[2].

وذكرت المصادر، الكتاب الذي كتبه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى ضميرة، وفيه: "أنَّهم كانوا أهل بيت من العرب، وكان مِمَّن أفاء الله على رسوله فأعتقهم، ثُمَّ خيَّر أبا ضميرة إن أحب أن يلحق بقومه فقد أمَّنه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإنَّ أحبَّ أن يمكث مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيكون مع أهل بيته، فاختار أبو ضميرة الله ورسوله، ودخل في الإسلام، فلا يعرض لهم أحد إلا بخير، ومَن لقيهم من المسلمين، فليستوصِ بهم خيراً، وكتب أُبَيُّ بن كعب"[3].

---

(١) حيث أن سرية مؤتة قد أرسلت في جمادى الأولى سنة ثمان الهجرية فمن المتوقع أن يكون تاريخ إرسال سرية زيد هذه في ربيع الآخر من ذلك العام حيث أن زيد بن حارثة استشهد في مؤته كما هو ثابت في المصادر.

(٢) ابن حجر - فتح الباري (شرح الحديث ٤٣٣٨)، الطبري - تاريخ ٣/ ٣٤، الواقدي - مغازي ٢/ ٧٧٧، ابن سعد - الطبقات ٢٠/ ١٣٢.

ابن هشام، السيرة ٤/ ٣٧٥ - ٦، وعن أحاديث التفريق هذه انظر: ابن حجر - الاصابة ٢/ ٢٠٦، عبد الرزاق الصنعاني - المصنف ٨/ ٣٠٧، الألباني - صحيح سنن الترمذي ٢/ ٢٤ - ٢٥، أبو داود - السنن ٣/ ١٤٤ - ١٤٥ (حديث ٢٦٩٦)، الدارمي - السنن ص/ ٣٢٧، البيهقي - السنن ٩/ ١٢٦.

(٣) ابن حجر (إصابة ٢/ ٢١٤، ابن سعد - الطبقات ٢٠/ ١٣٢.

غزوة مؤتة:

اختلف الرواة والإخباريون والمؤرِّخون، ومَن نَقَلَ عنهم من المتأخرين مِمَّن كتب عن مؤتة [١] في هذه المعركة العظيمة: هل هي غزوة، أو سرية؟ فبينما وردت تسميتها في بعض الروايات بغزوة جيش الأمراء[٢]، أطلق عليها بعضهم وقعة مؤتة[٣]، فيما تردَّد آخرون بين كونها غزوة أو سرية[٤]، على أنَّ أكثر أهل المغازي والسيرعلي أنها غزوة [٥]

وينفرد الواقدي بذكر السبب المباشر لهذه الغزوة، وهو أنَّ شرحبيل بن عمرو الغساني قَتَل صبراً الحارث بن عمير الأزدي الذي أرسله الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى ملك بصرى بكتابه، وكانت الرسل لا تُقْتَل، فغضب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأرسل الجيش إلى مؤتة، والواقدي ضعيف لا يُعْتَمَد عليه وبخاصّةً إذا انفرد بالخبر[٦]، وقد أيده وقد تبعه في كُلٌّ من: ابن سعد[٧]، وابن سيد الناس[٨]، والقسطلاني[٩]، وابن القيم[١٠].

والبعض يذكر سبباً آخر، وهو النتيجة التي آلت إليها سرية ذات أطلاح[١١]،

---

(١) بالقرب من البلقاء دون دمشق انظر: فتح الباري ٧/ ٥١٠ - ٥١١، السهيلي: الروض ٧/ ٣١، ابن سعد، الطبقات ٢/ ١٢٨.

(٢) قال الزرقاني (شرح ٢/ ٢٦٧): وفي بعض الروايات تسميتها غزوة جيش الأُمراء، وذلك لكثرة جيش المسلمين فيها، وما لاقوه من الحرب الشديدة مع الكُفَّار.

(٣) ابن خياط: تاريخ ٨٦، الذهبي: العبر ١/ ٩.

(٤) قال البنا (الفتح الرباني ٢١/ ١٣٦) باب ما جاء في سرية زيد بن حارثة إلى مؤتة، من أرض الشام، في جمادى الأولى سنة ثمان، ويقال لها غزوة مؤتة. وعنْوَن لها ابن كثير (البداية ٤/ ٢٤١) بغزوة مؤتة، ثُمَّ قال: وهي سرية زيد بن حارثة... إلخ.

(٥) ابن هشام: سيرة ٢/ ٣٧٣، الواقدي: مغازي ٢/ ٧٥٥، الطبري: تاريخ ٣/ ٣٦، ابن عبد البر: درر٢٢٢، أبونعيم: دلائل٢/ ٥٢٨، البيهقي: دلائل٤/ ٣٥٨، ابن الأثير: الكامل ٢/ ٢٣٤، ابن سيد النَّاس: عيون ٢/ ١٩٨، ابن حزم: جوامع ٢٢٠، السهيلي: الروض ٧/ ٣١، ابن القيم: زاد ٢/ ١٥٥، الأشخر اليماني: بهجة ١/ ٣٩٠).

(٦) د. أكرم ضياء العمري: السيرة النبوية الصحيحة ٢/ ٤٦٧.

(٧) الطبقات ٢/ ١٢٨.

(٨) عيون الأثر ٢/ ١٩٨.

(٩) المواهب ١/ ٥٤٩.

(١٠) زاد المعاد ٣/ ٣٨١.

(١١) انظر: (با شميل: غزوة مؤتة ٢٥٣، ياسين سويد: معارك خالد ١٦٨، أحمد عادل كمال:

بينما يستند بعضهم على رواية أُخرى ضعيفة[1]، مفادها أنَّ صاحب مدينة بصرى[2] رفض ما جاء في رسالة النَّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ له، وهدَّد بالمسير إلى المسلمين بجيوشه وغزوهم في عقر دارهم "فتهديده بالمسير إلى المسلمين يقتضي رداً على مستوى التحدي، فكانت غزوة مؤتة[3].

ويذكر أبو زهرة، عن شيخ الإسلام ابن تيمية، أنه ذكر في رسالة القتال: "أنَّ النَّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما بعث إلى حرب الروم في مؤتة إلاَّ بعد أن قَتَل الوالي الروماني مَن أسلم في الشام[4].

والحق أنَّ البحث عن الأسباب المباشرة لغزو القبائل العربية في أطراف الشام لا يؤثر على تفسير الأحداث كثيراً، لأنَّ تشريع الجهاد يقتضي الاستمرار في إخضاع القبائل العربية وتوسيع رقعة الدولة الإسلامية بصرف النظر عن الأسباب المباشرة[5].

فهذه الغزوة كما يقول ابن كثير - رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى - كانت إرهاصاً لِمَا بعدها من غزو الروم، وإرهاباً لأعداء الله ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[6].

ويُكاد يتَّفِق أهل المغازي، وأهل الحديث - مِمَّن روَى منهم أحداث وقعة مؤتة - على أنَّ تاريخ الوقعة كان في جمادى الأولى من السَّنة الثامنة من مهاجر النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[7].

الطريق إلى دمشق ١٤٥).

(١) الطبري (تاريخ ٢/ ٦٥٢).

(٢) مدينة بصرى: من أعمال دمشق، وهي قصبة كورة حوران، مشهورة عند العرب قديماً وحديثاً، وهي في منتصف المسافة بين عمَّان ودمشق، وبصرى اليوم آثار قرب مدينة درعة التي احتلت محلها، حتى ظنَّ بعض الناس أنها هي، وبصرى، ودرعة، داخل حدود الجمهورية السورية على أكيال من حدود المملكة الأردنية الهاشمية.
انظر: ياقوت: معجم ١/ ٤٤١، البلادي: معجم ٤٣ - ٤٤.

(٣) منير غضبان، فقه السيرة ٥٤٤.

(٤) خاتم النبيين، ٢/ ١١٣٩.

(٥) أكرم العمري: السيرة النبوية الصحيحة ٢/ ٤٦٧.

(٦) الفصول في سيرة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ١٩٥، غزوة مؤتة والسرايا والبعوث النبوية الشمالية، ص ٢٤٩.

(٧) ابن هشام: سيرة ٤/ ٣٧٣، الطبري: تاريخ ٣/ ٣٦، البيهقي: دلائل ٤/ ٣٥٨، ابن حجر، فتح ٧/ ٥١١)، الهيثمي (مجمع ٦/ ١٦٠)، الشامي، سبل ٦/ ٢٢٨)، ابن سيد الناس، عيون ٢/ ١٩٨، القسطلاني، المواهب ١/ ٥٤٩، ابن حزم: جوامع ٢٢٠، ابن القيم، زاد

فلما ندب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ النَّاس إلى مؤتة استجاب له حوالي ثلاثة آلاف من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ [1].

وهو أكبر جيش إسلامي يتم حشده حتى ذلك الوقت، فإنَّ جيش المسلمين في الحديبية، ثُمَّ في خيبر - وهما الغزوتان اللتان سبقتا مؤتة - لم يتجاوز حاجز الألفين[2]، مِمَّا دلَّ على نجاح صلح الحديبية عملياً، وأنَّ قوة المسلمين في تنامي وتزايد مستمر، بل إنَّ بعض الروايات ذكرت أنه تمَّ حشد ستَّة آلاف من المهاجرين والأنصار[3].

وفي الجرف[4]، عسكر الجيش الإسلامي كالعادة، وكان القائد الأعلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد أصدر أوامره الشريفة بإسناد قيادة الجيش لمولاه وحبِّه زيد بن حارثة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقال: «**إنْ قُتِلَ زيد، فجعفر، وإن قُتِلَ جعفر، فعبد الله بن رواحة**»[5] وعند البيهقي: «**فإن أُصيب فليرتض المسلمون رجلاً، فليجعلوه عليهم**»[6].

قال أبو قتادة - رضي الله تعالى عنه: "فوثب جعفر، فقال: "يا رسول الله! ما كنت أرهب أن تستعمل عليَّ زيداً، فقال: «**امض فإنَّك لا تدري أي ذلك خير**»[7].

٣/ ٣٨١، الحلبي، سيرة ٣/ ٧٨٦).

(١) الواقدي (مغازي ٢/ ٧٥٥)، ابن هشام، سيرة ٤/ ٣٧٣، الطبري، تاريخ ٣/ ٣٦، البيهقي، دلائل ٤/ ٣٥٨)، ابن سعد (طبقات ٢/ ١٢٨).

(٢) عوض الشهري، مرويات غزوة خيبر، ص ٢٠٦ - ٢٠٨، والحكمي، مرويات غزوة الحديبية ٥١.

(٣) غزوة مؤتة والسرايا والبعوث النبوية الشمالية، ص ٢٥٩.

(٤) الجُرْف - بالضم ثُمَّ السكون - ما تجرَّفته السيول فأكلته من الأرض، وهو موضع على ثلاثة أميال من المدينة، به كانت أموال لعمر بن الخطَّاب رضي الله تعالى عنه، ولأهل المدينة. وقيل: سُمِّيَ الجُرْف، لأنَّ تُبَّعاً مرَّ به، فقال: هذا جرف الأرض، وكان يُسَمَّى: العرض، وكان الجرف في عهد النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بمثابة معسكر للجيوش النبوية. والجُرف اليوم من أحياء المدينة الشمالية الكبيرة، يمتد من مزارع العيون شرقاً، حتَّى طريق المدينة تبوك غرباً. انظر: ياقوت: معجم ١/ ١٢٨، السمهودي: وفاء: ٤/ ١١٧٥).

(٥) أخرجه البخاري (الصحيح ١/ ٨٧).

(٦) البيهقي (الدلائل ٤/ ٣٥٩).

(٧) أخرجه أبو داود (انظر: عون المعبود، حديث ٤٣٤)، وأحمد (المسند ٥/ ٣٧٦ - ٣٧٧)، والنسائي (السنن الكبرى ٥/ ٩٦)، وابن حبان (انظر: الإحسان في ترتيب صحيح ابن حبان، حديث ٧٠٠٨)، والبيهقي (الدلائل ٢/ ٣٧٦)، والطبري (التاريخ ٣/ ٤٠).

ويبدو أنَّ بعض الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ قد تكلَّم في إمرة زيد وتقديمه على غيره، فوضَّح لهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مكانة زيد - رضي الله تعالى عنه - وأحقيته بالإمارة، وأنَّه مِن أحبّ الناس إليه[1]، فسمعوا وأطاعوا".

ذلك هو مبلغ تقدير النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لكفاءة زيد القيادية، وثقته الكاملة به، وهو تقديرٌ عظيمٌ، وثقةٌ بالغةٌ، واعتمادٌ هائلٌ استحقَّه زيد بمزاياه القيادية أولاً وقبل كل شيء، فما كان النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يولي ثقته الكاملة إلاَّ لمن يستحقها بجدارة، وقد لمسنا شجاعة زيد في الغزوات التي شهدها مع النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وفي سراياه التي قادها، ولمسنا شجاعته في الواجبات الأخرى التي ألقاها على عاتقه النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في استصحاب بناته وزوجته في الهجرة، في وَسَطٍ يعُجّ بالأعداء والحاقدين والموتورين من المشركين".

لقد قضى الإسلام مع ما قضى عليه من تقاليد الجاهلية، على الأنفة من تأمير مَن لم تُقَدِّمه السن، والاستمساك بعُرَى التَّفاضُل بالأنساب والأحساب والعشائر والقبائل".. إنَّ التَّفاضُلَ في الإسلام يخضع للتقوى وصالح الأعمال، بالإضافة إلى الكفايات المناسبة للعمل المناسب، وقد رفعت مزايا زيد القيادية، وإيمانه الراسخ العميق إلى الإمارة[2]".

وتجدرُ الإشارة أنه لأوَّل مرَّة في تاريخ غزوات النَّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وسراياه يتم تولية أُمراء بالترتيب، "وما ولَّى النَّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبل وقعة مؤتة ولا ولَّى بعدها ثلاثة قادة أو قائدين على سرية واحدة، ولكن بُعْد نظره عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وتقديره لأهمية هذه السرية وخطورتها هو الذي جعله يولِّي ثلاثة قادة على سرية واحدة، مرَّة واحدة فقط في حياته العسكرية كلها"[3].

وربَّما كان ذلك احتياطاً منه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما كان متوقعاً أن تحُفَّ الأخطار هذه الحملة لوجهتها البعيدة، ولعدم وقوع احتكاك سابق بمناطق تخضع لنفوذ دولة قوية كالإمبراطورية البيزنطية التي كانت قبائل الشام وأطرافها موالية لها سياسياً[4].

---

(١) البخاري (الصحيح ٤/ ٢١٣)، وينصُّ ابن حجر (فتح ٧/ ٨٧) على أنَّ ذلك كان في مؤتة.

(٢) خطَّاب، القادة الشهداء في مؤتة، ٦٠ - ٦٤.

(٣) خطَّاب، القادة الشهداء ١١٤ - ١١٥.

(٤) أكرم العمري، السيرة النبوية الصحيح ٢/ ٤٦٧.

والذي حدث أنَّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عقد لهم لواءً أبيض ودفعه إلى زيد بن حارثة، فتجهَّز الناس، وتهيؤوا للخروج [١].

وخرج معهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتَّى بلغ ثنية الوداع[٢]، وهناك أوصاهم قائلاً: «**اخرجوا باسم الله، فقاتلوا في سبيل الله عدوّ الله وعدوّكم، إنَّكم ستدخلون الشام فستجدون رجالاً في الصَّوامِع[٣] معتزلين النَّاس فلا تعرضوا لأحدٍ منهم إلاّ بخيرٍ، وستجدون آخرين للشياطين في رؤوسهم مفاحص[٤]، فافلقوا هامهم[٥] بالسيوف، لا تَقْتُلُنَّ كبيراً ولا فانياً، ولا صغيراً ضرعاً[٦]، ولا تَقْتُلُنَّ امرأةً، ولا تُعْزِقُنَّ[٧] نخلاً**» [٨].

لقد تضمنَّت تلك الوصية أرقى قانون للحرب العادلة، قانون عجزت حتى الآن كُلّ النُّظُم والتشريعات أن تصل إليه من حيث الإنصاف في معاملة الأعداء، واجتناب الأعمال اللاإنسانية من التعرُّض للنساء والأطفال والعَجَزَة، ورجال الدين المعتَزلين بأي نوعٍ من أنواع الأذى، لقد كانت توصيات في الآداب الحربية، ودروس في الشرف العسكري، وأُسُس راسخة في المعاملة الإنسانية، والرأفة بغير المحاربين من النساء والشيوخ والأطفال، وتربيات عالية شريفة ما سمعت ولا دعت أُمة مثلها منذ فجر التاريخ حتى اليوم من غير سيد البشر محمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ".

إنَّ أرقى الأُمم في العصر الحاضر لا تزال في مجال محاولاتها الالتزام بقانون الشرف العسكري، لا تزال تحبو حبواً إذا ما قِسْنَا محاولاتها بما وضعه الرسول

---

(١) ابن سعد (طبقات ٢/ ١٢٧).

(٢) ثَنِيَّة الوَدَاع - بفتح الواو - وهي اسم من التوديع، وهي ثنية مشرفة على المدينة يطؤها مَن يريد الشام، واختلف في سبب تسميتها بذلك، والأشهر والصحيح أنه اسم جاهليّ قديم سُمِّيَ لتوديع المسافرين، وكان اسمها قديماً ثنية الركاب، وكانت هذه الثنية بين مسجد الراية، وقبر النَّفْس الزكية جوار سلع، وقد هُدِمَت اليوم وأُزيلَت بكاملها مع المسجد، وأُقِيمَ مكانها مدخل نفق المناخة من جهة الشمال. العباسي: عمدة الأخبار، ٢٨٣).

(٣) جمع صومعة، وهي مكان عبادة الرهبان من النصارى.

(٤) أي أنَّ الشيطان قد استوطن رؤوسهم فجعلها له مفاحص، كما تستوطن العصافير أعشاشها. (ابن الأثير، النهاية ٣/ ٣٨٥).

(٥) الهامة: رأس كل شيء. والمعنى: اضربوا رؤوسهم بالسيوف.

(٦) أي الصغير الضعيف.

(٧) أي: لا تقطعن. والعزق: القطع.

(٨) الواقدي (مغازي ٢/ ٧٥٨) ابن الأثير في (النهاية ٣/ ٤١٥).

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في خطبته هذه من قواعد راسخة لقانون الشرف العسكري[1]".

ثُمَّ ودَّع النَّاس أمراء رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وسلَّموا عليهم ، فلمَّا ودَّعوا عبد الله بن رواحة - رضي الله تعالى عنه - بكى ، فقالوا: "ما يبكيك يا ابن رواحة؟ فقال: "أما والله ما بي حُب للدُّنيا ، ولا صبابة إليها ، ولكني سمعت الله يقول: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْماً مَقْضِيًّا﴾ [مريم: ٧١] . فلست أدري كيف لي بالصدر بعد الورود؟!فقال المسلمون: "صحبكم الله ، وردَّكم إلينا صالحين ، ودفع عنكم". قال ابن رواحة:

لكنَّني أسأل الرحمن مغفرةً ::: وضربةً ذات فرغ تقذف الزبدا[2]
حتى يقولوا إذا مروا على جدثي ::: بحربة تنفذ الأحشاء والكبدا[3]
أو طعنةً بيدى حران مجهزة ::: أرشده الله من غازٍ وقد رشدا[4]

ثُمَّ أتى عبد الله بن رواحة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فودَّعه ، فقال:

وثبَّت الله ما آتاه من حسن ::: تثبيت موسى ونصراً كالذي نصرا
أنت الرسول فمن يحرم نوافله ::: والله يعلم إني ثابت البصرا
إني تفرَّستُ فيك الخير نافلة ::: والوجه منك فقد أزرى به القدرا[5][6]

ثم تحرَّكت القوات الإسلامية من المدينة صوب الشام ويذكر الواقدي أنَّهم نزلوا وادي القرى في طريقهم إلى الشام ، وأقاموا أيَّاماً[7] ، ولكن أنباء حركتهم وصلت إلى الروم قبل وصول المسلمين إليهم ، فنذروا وجمعوا لهم جموعاً كثيرة من الروم وحلفائهم من القبائل العربية الشامية المتنصرة[8] .

هذا وقد اختلفت الروايات فيهم ، وفي عدَّتهم فذكر أنَّهم كانوا مائة ألف من الروم ، "وانضم إليهم من لخم[9] ، وجذام ،

(١) با شميل ، غزوة مؤتة ٢٦٢ - ٢٦٤ .
(٢) ذات فرغ: يعني ذات سعة . الزبدُ: رغوة الدم .
(٣) رجل حرَّان: عطشان ، أي متعطِّش للقتل . مجهزة: سريعة القتل .
(٤) الجدث: القبر .
(٥) نافلة: هبة من الله . وأزرى به القدرا: أي قصد به .
(٦) أبو نعيم ، الحلية ١/ ١١٨ .
(٧) الواقدي ، مغازي ٢/ ٧٦٠ .
(٨) خطَّاب ، الرسول القائد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ٣٠٥ ، ٣٠٧ .
(٩) لَخْم - بفتح اللام وسكون الخاء المعجمة - وهم من بني كهلان بن سبأ ، وكان لهم مُلْك بالحيرة ، ثُمَّ كان لبقاياهم مُلك بأشبيلية ، ومن لخم بني الدار ، ومنهم تميم الداري

والقين[1]، وبَهْرَاء[2]، وبلىّ، مائة ألف منهم[3]".

ولم تُحَدِّد بعض الروايات العدد، وإنَّما ذكرت أنَّهم جموع كثيرة من الروم، ونصارى العرب من قضاعة، وتنوخ، وبهراء، وغيرهم من نصارى العرب[4]".

وهذا ما ذكره بعض المؤرخين[5]". في حين وصفهم خليفة بن خياط[6] بأنَّهم جموع هرقل دونما تحديد".

والحقيقة أنَّ المبالغات التي أعقبت هذه المعركة، كثَّرت من عدد العدو وجعلته يبلغ هذا الرقم الخيالي[7]، وإن كان بمستطاع القبائل العربية الضاربة في المنطقة أن تؤلف مع الجيش الروماني قوة ضخمة، ولكنَّ الأمر لم يكن على تلك الدرجة البالغة من الخطورة، "فإنَّ الحملة الإسلامية كانت مكوَّنة من ثلاثة آلاف، وأنَّ أنباء مسيرها كانت معروفة، فلا يمكن أن يوجه إليها الروم مثل هذا العدد الحاشد من الجيوش، على أنَّ هذه الأعداد الضخمة لم تستخدمها بيزنطة في قتالها مع الفرس[8]".

فقد ذكرت المصادر أنَّ جيش هرقل الذي أعاد به كرامة الإمبراطورية البيزنطية عندما هزم جيوش كسرى، حتى استطاع دخول المدائن، كان لا يزيد

الصحابي. (القلقشندي، قلائد الجمان ٦٩).

(١) بنو القين قبيلة كبيرة من قضاعة، ينسبون إلى القين بن جسر، ووهم ابن التين، فقال: بنو القين قبيلة من تميم. (ابن حزم، جمهرة أنساب العرب٤٢٤، ابن حجر، فتح ٨/ ٧٤).

(٢) بَهْرَاء: وهم بنو بهراء بن الحافي بن قضاعة، والنسبة إليهم بَهْرَائي، ومنهم جماعة من الصحابة منهم المقداد بن الأسود رضي الله تعالى عنه، وكان بينهم وبين اللخميين ملوك الحيرة حروب. (القلقشندي، قلائد الجمان ٤٩).

(٣) ابن كثير، البداية ٤/ ٢٤٢ - ٢٤٣، ابن الأثير، الكامل ٢/ ٢٣٥. الطبري، تاريخ ٣/ ٣٧، البيهقي، دلائل ٤/ ٣٦٠، ابن عبد البر، الدرر ٢٢٢، ابن سيد الناس، عيون ٢/ ١٩٨، ابن القيم، زاد٣/ ٣٨١، ابن كثير، البداية ٤/ ٢٤٣، ابن حزم، جوامع ٢٢٠، العامري، بهجة١/ ٣٩٠، الحلبي، سيرة ٢/ ٧٨٦.

(٤) ابن حجر، الإصابة ٣/ ٣٠١).

(٥) أخرجه أبو داود (انظر: عون المعبود، حديث ٤٣٤)، وأحمد (المسند ٥/ ٣٧٦ - ٣٧٧)، والنسائي (السنن الكبرى ٥/ ٩٦)، وابن حبان (انظر: الإحسان في ترتيب صحيح ابن حبان، حديث ٧٠٠٨)، والبيهقي (الدلائل ٢/ ٣٧٦)، والطبري (التاريخ ٣/ ٤٠.

(٦) تاريخ خليفة، ص ٨٦ - ٨٧.

(٧) عماد الدين خليل، دراسة في السيرة ٢٩٦.

(٨) الشريف، مكة والمدينة ٥٣٤.

عدده عن سبعين ألفاً[1]".

"ولم يستخدم الروم هذه الأعداد، إلاَّ فيما بعد عندما اشتبكوا مع الدولة الإسلامية اشتباكاً حقيقياً خطيراً".

لذلك فإنه من الأصوب الأخذ بروايات الزُّهري، وابن عقبة، وابن عائذ، التي لم تُحَدِّد القوَّات بعددٍ معيَّن، وإنَّما ذكرت أنَّهم جموع كثيرة "وكُلّ ما يمكن تصوُّره أنَّ قوَّة العدو كانت أكبر من قوَّة المسلمين، أو أنَّها كانت أضعافها[2].

ويعتقد الجنرال أكرم أنَّها ربَّما كانت تتراوح بين عشرة آلاف، وخمسة عشر ألفاً[3].

إنَّ التحديد الذي ورد في بعض الروايات التي ذكرناها بتلك الأعداد الضخمة، ربَّما كان اجتهاداً من بعض الرواة والإخباريين، أو حتى بعض شهود العيان الذين ربَّما نقل عنهم عروة وغيره من المؤرِّخين.

كما لم تزودنا المصادر البيزنطية بمعلوماتٍ وافرة عن الأحداث التي كانت بين بيزنطة والمسلمين، بما في ذلك أحداث معركة مؤتة، فنستطيع من خلالها معرفة عدد الجيش البيزنطي والحلفاء فيها، حيث كان الاعتماد على المصادر الإسلامية في ذلك، والتي نادراً ما تخطئ في وصف الأحداث، لاعتمادها على الإسناد الذي يصل في كثير من الأحيان إلى شهود العيان، أو حتَّى المشاركين في تلك الأحداث، وتلك عمليةٌ دقيقة ومرتَّبة لم يُسْبَق المسلمون فيها أبداً، بل لم تعرفها أُمة من الأُمم على الإطلاق، غير الأُمة الإسلامية.

ولكن حتَّى شهود العيان والمشاركون في صميم الأحداث لا يستطيعون في بعض الأحيان التعرُّف بدقة على عدد جند العدو[4].

---

(١) انظر: "الطبري، تاريخ ٢/ ١٨٣، الكندي، فتوح مصر، ص ٣٥، أحمد عادل كمال، الطريق إلى دمشق ٣٩".

(٢) الشريف: مكة والمدينة، ص ٥٣٤.

(٣) الجنرال أكرم، سيف الله خالد بن الوليد ١٠٥، غزوة مؤتة والسرايا والبعوث النبوية الشمالية، ص ٢٨٠.

(٤) في غزوة بدر العظمى ابتكر النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طريقة ذكية عَرَفَ من خلالها عدد جيش قريش، حيث سأل الأسرى الذين أمسك بهم المسلمون: كم ينحرون؟ قالوا: يوماً عشرة، ويوماً تسعة. قال القوم: ما بين الألف والتسعمائة. أحمد: المسند ٢/ ١٩٣، والواقدي: مغازي ١/ ٥٣). وانظر: العليمي، مرويات غزوة بدر ٩٩.

بل يعتمدون أحياناً على الحدس والتخمين في إحصاءاتهم لجيوش الأعداء، لأنه لم تكن هنالك إحصاءات دقيقة معلومة عن عدد الجند والجيوش، كما هو الحال اليوم[1].

وربَّما أنَّ بعض شهود معركة مؤتة من المسلمين شاهدوا تلك الكثافة العَدَدِيَّة والعُدَدِيَّة من الجند الروماني المجهَّز بأحدث الأسلحة والعتاد، فهالهم ذلك المنظر الذي لم يتعوَّدوه من قبل، فقدَّروا عددهم اجتهاداً، ذلك التقدير الضخم.

فعن أبي هريرة - رضي الله تعالى عنه - قال: شهدت مؤتة، فلمَّا رأينا المشركين، رأينا ما لا قِبَل لنا به من العدد والسلاح والكراع، والديباج، والحرير، والذهب، فبرق بصري، فقال لي ثابت بن أرقم: "يا أبا هريرة، مالك؟! كأنَّك ترى جموعاً كثيرة، قلت: "نعم". قال: "إنَّك لم تشهد بدراً معنا، إنَّا لَم نُنْصَر بالكثرة[2]".

ومهما قيل في مبالغة الذين سجَّلوا تعداد الروم وحلفائهم، فإنَّ الحقيقة تبقى واضحة للدارسين بأنَّ الرُّوم وحلفاءهم كانوا أضعاف تعداد المسلمين، كما أنَّهم يقاتلون في بلادهم دفاعاً عنها، بينما يقاتل المسلمون بعيداً عن قاعدتهم الرئيسية المدينة، وبذلك تكون المزايا العسكرية في التفوُّق العَدَدِيّ والعُدَدِيّ، وفي قرب قواعد الروم إلى قوَّاتهم المقاتلة، هذه المزايا مع الروم على المسلمين بلا مراء[3].

وفي مآب من البلقاء[4]، احتشدت جيوش الحلفاء من الروم والقبائل العربية المتنصرة، فلمَّا علم المسلمون بأمر جموعهم المتفوقة عليهم فواقاً ساحقاً، أقاموا على معان[5] ليلتين يفكرون في أمرهم، واستشار زيد بن حارثة - رضي الله تعالى

---

(١) بل إنَّ الكثير من دول العالم اليوم لا تُعْطِي إحصاءات دقيقة وصحيحة لجيوشها لاعتبارات أمنية. غزوة مؤتة والسرايا والبعوث النبوية الشمالية، ص ٢٨١.

(٢) الواقدي، مغازي ٢/ ٦٧٠.

(٣) خطَّاب، القادة الشهداء ١٨٠، غزوة مؤتة والسرايا والبعوث النبوية الشمالية، ص ٢٨٢.

(٤) مآب: وهي مدينة في طرف الشام من نواحي البلقاء، افتتحها أبو عبيدة رضي الله تعالى عنه في خلافة أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه سنة ثلاث عشرة، وجاء في تقويم البلدان: أنَّ مآب مدينة قديمة قد بادت، وصارت قرية تُسَمَّى الربة، وهي من معاملة الكرك على أقل من نصف مرحلة إلى الشمال منها، وهي اليوم قرية صغيرة حيّة من محافظة الكرك. انظر: الحموي، معجم ٥/ ٣١، الملك المؤيد، تقويم البلدان ٤٧.

(٥) معان: مدينة في أطراف الشام تلقاء الحجاز من نواحي البلقاء، وهي عاصمة إقليم الشراة، ومفترق طرق. ومعان اليوم إحدى مدن الأردن المزدهرة، ويبلغ عدد سكانها حوالي خمسة

عنه - أصحابه، فقال له بعضهم: "نكتب إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فنخبره بعدد عدونا، فإمَّا أن يُمدَّنا بالرجال، وإمَّا أن يأمرنا بأمره فنمضي له"[1].

ويذكر الوليد بن مسلم أنَّ بعض المسلمين نصح زيد بالانصراف، مكتفياً بما حقَّقه من مكاسب معنوية، قائلاً له: "قد وطئت البلاد، وأخفت أهلها، فانصرف، فإنه لا يعدل العافية شيء، وعبد الله بن رواحة ساكت، فسأله زيد عن رأيه فقال: "إنَّا لم نسر إلى هذه البلاد ونحن نريد الغنائم، ولكنَّا خرجنا نريد لقاءهم، ولسنا نقاتلهم بعددٍ ولا عُدَّة، فالرأي المسير إليهم".

"فشجَّع الناس عبد الله بن رواحة، وقال: "يا قوم، والله إنَّ التي تكرهون للتي خرجتم تطلبون الشهادة، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة وكثرة، ما نقاتلهم إلاَّ بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، فانطلقوا فإنَّما هي إحدى الحسنيين، إمَّا ظهور، وإمَّا شهادة، قال: "فقال الناس: "قد والله صدق ابن رواحة، فمضى الناس". وقبل زيد رأيه وسار إليهم[2].

إنَّ تشجيع عبد الله بن رواحة المسلمين على قتال الروم وحلفائهم، واستجابة المسلمين لهذا التشجيع، له دلالة لا يُمكن أن يختلف فيها اثنان، هي أنه كان يثق ثقةً عالية برجاله، وأنَّ رجاله كانوا يثقون به ثقةً مُطْلَقة، والثقة المتبادلة بين القائد ورجاله من أهمِّ مزايا القائد المتميِّز، ولا يمكن أن يثق الرجال بقائدهم ثقةً مُطلَقة عفواً وبدون أسباب، كما أنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان لا يولي المراكز القيادية إلاَّ لأشخاص لهم مؤهلات عالية، ومزايا واضحة المعالم، فقد كان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يحرصُ أعظم الحِرْص على تولِّي الرجل المناسب للعمل المناسب، تطبيقاً لتعاليم الإسلام في الولاية، وثقة النَّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعبد الله بن رواحة، وثقة رجال عبد الله بن رواحة به، أسبابها وحوافزها واحدة، وهي تَمَتُّع عبد الله بن رواحة بالإضافة إلى عمق إيمانه، بمزايا قيادية أهَّلته لأن يكون أحد قادة النَّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[3]".

وعشرين ألف نسمة، وجديرٌ بالذِّكر أنَّ معان تبعد عن المدينة المنورة حوالي (٨١٠) كيلومتر، وعن مؤتة حوالي (١٥٠) كيلومتر .انظر: البكري، معجم ٤/ ١١٧٢ - ١٢٤١، الحموي، معجم ٥/ ١٣٥، البلادي، معجم ٣٠٠.

(١) ابن هشام (سيرة٤/ ٣٧٥).

(٢) ابن هشام، سيرة٤/ ٣٧٥.

(٣) خطاب، القادة الشهداء ١٨٢ - ١٨٣.

ويعتقد بعض المحلِّلين والمنظِّرين العسكريين، وغيرهم من المؤرِّخين المعاصرين، أنَّ تشجيع عبد الله بن رواحة - رضي الله تعالى عنه - للمسلمين، واندفاعه بهم نحو العدوّ، رغم تفوقهم العددي، وقُرْب قواعدهم، كان مغامرة خطرة، ومجازفة مهلكة، وخطأً عسكرياً فادحاً، وذلك بموجب المقاييس المادية[1]".

ولكن المقاييس المادية تُطَبَّق على الذين يعتمدون الوسائل المادية وحدها في حروبهم، أمَّا الذين يحاربون حرباً عقديَّة، جهاداً في سبيل الله، ودفاعاً عن عقيدتهم، وعن حُرِّية انتشارها، فلا تُطَبَّق عليهم المقاييس المادية وحدها، التي تُطَبَّق على غيرهم في حروبٍ استثماريَّةٍ أو توسُّعِيَّةٍ من أجل أمجادٍ شخصيةٍ، وأحقاد عنصرية أو طائفية، وعلى ذلك فلا تُطَبَّق هذه المقاييس المادية على أمثال عبد الله بن رواحة، لأنَّهم كانوا يخوضون حرباً عقديَّة لا دخل للمادَّة فيها من قريبٍ أو بعيد، وإلاَّ فماذا يمكن أن يُقال في غزوة بدر الكبرى الحاسمة، بالنسبة للمقاييس المادية وحدها، وكان تفوُّق المشركين على المسلمين بنسبة ثلاثة على واحد في الأشخاص، وبنسبة مائة على واحد بالخيل، والخيل أنجح سلاح في الحروب القديمة؟!

لقد حرَّض عبد الله بن رواحة المسلمين على القتال لأغراض عقديَّة، فكان تحريضه خطأً بالنسبة للمقاييس المادية، ولكنه كان عين الصَّواب بالنسبة للجهاد والحرب العادلة التي كان يخوضها المسلمون حينذاك[2].

ولكي نعرف مدى اندفاع عبد الله بن رواحة - رضي الله تعالى عنه - وحماسه لخوض حرب عقائدية إيمانية هدفها إعلاء كلمة الله عزَّ وجلَّ، وإعزاز دينه، وأقصى ما يتمناه فيها هو نيل شرف الشهادة، وبذل روحه رخيصة في سبيل الله عزَّ وجلَّ، يحدِّثنا زيد ابن أرقم - رضي الله تعالى عنه - وكان من المشاركين في مؤتة - قال: كنت يتيماً لعبد الله بن رواحة في حجره، فخرج بي في سفره ذلك مردفي على حقيبة رحله، فوالله إنه ليسير ليلة إذ سمعته وهو يُنشِد أبياته هذه:

إذا أويتني وحملت رحلي ::: مسيرة أربعٍ بعد الحساء[3]

---

(١) خطَّاب، القادة الشهداء ١٨١، الغزالي، فقه السيرة ٣٦٦، باشميل، غزوة مؤتة ٢٨٤ - ٢٨٥.

(٢) خطَّاب، القادة الشهداء، ص ١٨٢ - ١٨٣، غزوة مؤتة والسرايا والبعوث النبوية الشمالية، ص ٢٩٤.

(٣) الحساء: جمع حسى، وهو ماء يغور في الرمل، وإذا بُحِثَ عنه وُجِد.

وجـــاء المـــسلمون وغـــادروني ::: ولا أرجـــع إلى أهلـــي ورائـــي[1]
فـــشأنك أنعـــم وخـــلاك ذم ::: بـــأرض الـــشام مـــشتهى الـــثواء[2]

في أبـيات "... قـال: "فلمَّـا سمعـتهنَّ مـنه بكـيت". قـال: "فخفقـني بالـدرة[3]، وقـال: "ما عليك يا لُكع[4] أن يرزقني الله الشهادة، وترجع بين شعبتي الرحل[5]"[6]".

وكمـا اندفـع عبد الله بن رواحة - رضي الله تعالى عنه - بفورة حماس إيمانية زخمة، اندفع - أيضاً - بفورة حماس شاعرية رائعة، راح يُصَوِّر فيها مقام المسلمين في معان، ثُمَّ انطلاقهم بقوة وحماس إيماني نحو عدوهم المتربص في مآب:

جلبـنا الخـيل مـن أجـام قرح[13] ::: تغـر مـن الحـشيش لهاالعكـوم[7]
عـــبأنا أعنـــتها فجـــاءت ::: أزل كـــأنَّ صـــفحته أديم[8]
فـــلا وأبي مـــآب لنأتيـــنها ::: فأعقـــب بعـــد فتـــرتها جمـــوم[9]
فـــرحنا والجـــياد مـــسومات ::: تـــنفس في مناخـــرها الـــسموم[10]
أقامـــت ليلـــتين علـــى معـــان ::: وإن كانـــت بهـــا عـــرب وروم
حـــذوناها مـــن الـــصوان ســـبتاً[14] ::: عـــوابس والغـــبار لهـــا بـــريم[11][12]

---

(١) قوله: ولا أرجع، فهو مجزوم على الدعاء، دعا على نفسه أن يستشهد ولا يرجع إلى أهله.
(٢) الثواء: الإقامة.
(٣) خفقني: أي ضربني. والدرة: السوط.
(٤) اللكع: اللئيم.
(٥) شعبتا الرحل: طرفاه المقدّم والمؤخّر. والحقيبة: ما يجعله الراكب وراءه إذا ركب.
(٦) ابن هشام (سيرة ٤/ ٣٧٦).
(٧) العكوم: جمع عكم. وهو الجنب.
(٨) أزل: أملس. صفحته ظاهرة. والأديم: الجلد.
(٩) الجموم: استراحة الفرس.
(١٠) مسومات: أي مرسلات. والسموم: الريح الحارَّة.
(١١) البريم: الحزام. وأصل البريم خيط تنظمه المرأة ثُمَّ تشده على وسطها.
(١٢) ابن هشام، سيرة٤/ ٣٧٥ - ٣٧٦.
(١٣) قرح: هو موضع كان بوادي القرى من صدره، فغلب عليه اسم العُلا لأنه أعلى الوادي، وكان سوقاً مشهورة في الجاهلية، وهو اليوم مدينة العُلا. (البلادي: معجم المعالم ٢٥٠، ومرداد، مدائن صالح ٦٤).
(١٤) حذوناها: أي جعلنا لها حذاءً وهو النَّعل. والصوان: حجارة مُلْس، واحدتها: صوانة. والسبت: النعال التي تُصنَع من الجلود المدبوغة.

ولما مضى زيد - رضي الله تعالى عنه - بالجيش، وسار بهم في مناطق تخضع لنفوذ الدولة البيزنطية، فكان من الطبعي أن يتعرَّضوا لبعض التحرُّشات العدائية من أهل تلك البلاد الذين كانوا يدينون بولائهم سياسياً، وعقائدياً، للدولة البيزنطية، وإن كانت بينهم خلافات مذهبية متأصلة[1]، ولكنَّهم اتَّحدوا ضد المسلمين.

وسار زيد بن حارثة - رضي الله تعالى عنه - بالمسلمين على جبال بين الشراة والبلقاء، على ريفها وعمارتها، فمر بقرية من قرى الجبال، يُقال لها: "أكثب، فشدَّ أهلها على ساقة[2] المسلمين فأصابوهم بجراحة، وقتلوا رجلاً من المسلمين، فبلغ ذلك جماعة الجيش، فاستأذنوا زيد بن حارثة في الرجعة إليهم والانتقام منهم، فقال زيد: "لا أرى ذلك، لأنَّ عدوَّكم أمامكم قد جمعوا لكم، ودنوا منكم، فأكره أن تفلّوا حدَّكم[3] ونشاطكم بقتال غيرهم، ثُمَّ لا آمن أن يجمعوا لكم فيكونوا من ورائكم، فتكونوا بين عسكرين"[4].

لقد كان رأي زيد - رضي الله تعالى عنه: "المضي قُدُماً، وعدم استنْزاف قوة المسلمين في قتال قد يُعيق تقدُّمهم نحو عدوّهم، وربَّما كان ذلك سبباً لوقوع المسلمين بين فكَّي كمَّاشة".

وكان شرحبيل بن عمرو الغساني قام بتحرُّشات عدائية - حيث جمع جموع العرب المتنصرة - وقام بإرسال الطلائع لتعيق تقدم المسلمين، ولكن محاولاته باءت بالفشل الذريع، حيث قَتَل المسلمون أخاه سدوس، قائد الطليعة الأولى، مِمَّا أثار الذُّعْر والهلع في قلب شرحبيل، فتحصَّن[5]".

وتحرَّك المسلمون نحو جيوش الروم، وحلفائهم من القبائل، فحصل التماس الأوَّل في تخوم البلقاء" ولكن المسلمين رأوا أنَّ منطقة قرية مؤتة، بين الكرك[6]

---

(١) كان نصارى الشام يعاقبة، ونساطرة، وهم يخالفون مذهب الدولة البيزنطية الملكاني.

(٢) الساقة: مؤخرة الجيش.

(٣) أي تضيِّعوا نشاطكم وقوَّتكم.

(٤) الواقدي، مغازي ٢/ ٧٥٥.

(٥) الواقدي، مغازي ٢/ ٧٥٥.

(٦) الكَرَك: مدينة تاريخية تقوم على مجموعة من الجبال التي يتخلَّلها وادٍ عميق، وفيها القلعة الحصينة المشهورة، وهي على سن جبل عال تحيط بها أودية إلاَّ من جهة الربض، وكان الصليبيون احتلُّوها فأخافوا الحجَّاج المارِّين بهذا الطريق، وقد هاجمها صلاح الدِّين حتَّى فُتِحَت صُلْحاً عام ٥٨٤ هـ، وهي اليوم في المملكة الأردنية الهاشمية.

والطفيلة[1] ، أنسب لقبول المعركة فيها ، وذلك لوجود العوارض الطبيعية التي يستطيعون التحصُّن بها ، نظراً لقلَّة قوتهم بالنسبة إلى الأعداء "[2] .

فما "مِن شكٍّ أنَّ قوة العدو كانت أضخم كثيراً من قوة الجيش الإسلامي ، وإن لم تبلغ العدد الذي ذكره الإخباريون ، وكان التكافؤ منعدماً بين القوتين من حيث العدد ، ومن حيث عُدَّة الحرب "[3] .

وفي مؤتة تعبأ المسلمون ، ونظَّموا صفوفهم ، فجعلوا على ميمنتهم رجلاً من بني عذرة ، يُقال له: قطبة بن قتادة ، وعلى ميسرتهم رجلاً من الأنصار ، يُقال له: عباية بن مالك ، ثُمَّ التقى الناس "[4] .

وقد لاحظ المسلمون تفوّق الروم وحلفائهم عليهم ، ولكنَّهم لم يكترثوا بذلك[5] .

وبدأ هجوم المسلمين باندفاع قائدهم زيد بن حارثة - رضي الله تعالى عنه - بلواء رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نحو صفوف العدو "فحارب مستقتلاً مستميتاً حتَّى مزَّقته رماح العدو "[6] وذلك وفق وصف رواية عروة: حتى شاط في رماح القوم "[7] .

إنَّ ذلك الوصف يدل على قوة اندفاع زيد - رضي الله تعالى عنه - واستماتته في القتال ، مع عدم اكتراثه بقوة العدو ، وكثافته العَدَدِيَّة والعُدَدِيَّة ، وهو أمر يدل على فرط شجاعته وجرأته واستهانته بالموت ما دام في سبيل الله - عزَّ وجلَّ .

وكلمة (شاط) [8] تعطي عمقاً بعيداً عن مدى شراسة الحملات التي قام بها

انظر: ياقوت ، معجم ٤/ ٤٥٣ ، البلادي ، رحلات ١٥١ - ١٨٥ .

(١) بلدة الطفيلة بلدة رائعة الجمال ببساتينها ومناظرها الخلاَّبة ، تبعد خمسين كيلو عن مؤتة ، ولها طريق يذهب جنوباً إلى أذرح ، فمعان ، وطريق يذهب شمالاً إلى مؤتة ، فالكَرَك . انظر: علي العتوم: تجربة مؤتة ٨٥ ، البلادي: رحلات ١٥١ .

(٢) خطَّاب ، الرسول القائد ، ص٣٠٧ ، وانظر: ابن هشام ، سيرة ٤/ ٣٧٧ .

(٣) الشريف ، مكة والمدينة ٥٣٥ ، غزوة مؤتة والسرايا والبعوث النبوية الشمالية ، ص ٣٠٣ .

(٤) ابن سعد ، طبقات ٢/ ١٢٧ .

(٥) خطَّاب: الرسول القائد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ص ٣٠٧ . غزوة مؤتة والسرايا والبعوث النبوية الشمالية ، ص ٣٠٤ .

(٦) خطَّاب: الرسول القائد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ص ٣٠٧ .

(٧) ابن هشام ، سيرة٤/ ٣٧٥ .

(٨) أصل الإشاطة: الإحراق ، أي كأنه احترق برماح الأعداء من شدَّة تمزيقها له ، وكأنَّهم

ذلك البطل المغوار في العمق داخل صفوف العدو، وما تمزيق جسده الطَّاهر برماحهم إلاَّ نتيجة حتمية لتلك الجرأة العظيمة التي كان يتمتع بها، ويحمل بها على العدو، معطياً من نفسه القدوة الصالحة لجنده، وما ذلك إلاَّ لعلو نفسه، وقوة رباطة جأشه.

نعم! لَمَّا كانت نفس زيد بن حارثة الكلبي - رضي الله تعالى عنه - حِبِّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كبيرة توَّاقة للمعالي، دفَعَ جسده الطاهر الزكي الثَّمَن غالياً في أحضان رماح العدو وحرابهم، وما كاد يسقط القائد البطل شهيداً في سبيل الله تعالى، حتَّى تلقَّف منه اللواء، ومِن ثَمَّ خلفه في القيادة - حسب أمر القائد الأعلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بطل آخر شاب من آل بيت النَّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ موئل البطولات، وأركان الشجاعة، ولا غَرْوَ في ذلك، فهو جعفر ابن أبي طالب - رضي الله تعالى عنه، ابن عمّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بطل الأبطال، وقائد الشجعان.

وتقدَّم البطل الشاب بفرسه يصول ويجول براية رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حتى إذا ما ألحمه القتال، ترجَّل عن فرسه، كما يذكر أَحَد شهود العيان: "والله لكأني أنظر إلى جعفر حين اقتحم عن فرسٍ له شقراء، فعقرها، ثُمَّ قاتل القوم"[1]، راجلاً، وهو يرتجز:

يا حبَّذا الجنَّة واقترابها ::: طيبة وبارد شرابها
والروم روم قد دنا عذابها ::: كافرة بعيدة أنسابها
عليَّ إذا لاقيتها ضرابها

ثُمَّ اندفع يقاتل بشجاعة نادرة، وجرأة لا مثيل لها، ورباطة جأش عظيمة، والضربات تنهال عليه من كُلِّ جانبٍ ما بين طعنة رمح، وضربة سيف، ورميل نبل، دون أن تثنيه عن الاستمرار، أو تعيق تقدمه بلواء رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي كان يمثل رمزاً عظيماً للمسلمين في معاركهم، لأجل ذلك كان تركيز العدوّ على إسقاطها شديداً، فلمَّا أعياهم البطل جعفر - رضي الله تعالى عنه - بقوة تماسُكه، ورباطة جأشه العظيمة، ورأوا أنَّ الضربات على جسده لم تزده إلاَّ إمعاناً وتقدُّماً نحو صفوفهم، عندها حوَّلوا ضرباتهم إلى اليد العظيمة التي كانت تمسك

حنقوا عليه نتيجة الحملات الشرسة والقوية التي كان يحمل بها عليهم في العُمْق.

(١) أبو داود (السنن ٣/ ٦٢ - ٦٣)، ابن هشام (السيرة ٤/ ٣٧٨)، الزرقاني (شرح المواهب ٢/ ٢٧٢).

اللـواء بقـوة ، وتقاتـل بـه بـلا هوادة ، فقطعوها ، وظنَّ الأعداءُ أنَّها النهاية ، وأنَّ اللـواء سوف يسقط ، فتسقط معه معنويات المسلمين ، ولكنَّ القائد العظيم تلقَّفه: "بـشماله ، فقُطِعَـت ، فاحتضنه بعضديه"[1] ، ولكن "ورغم استبسال جعفر وثباته هذا ، فقد انتهى صموده الرائع بأن سقط شهيداً بعد أن اعتورته سيوف الرومان ، وهـو يحتـضن اللـواء في إصـرار وتـصميم ، حتَّى صعدت روحه الطاهرة ، ليأخذ مكانه بين الصِّدِّيقين والشُّهداء"[2] .

بـل بـين الملائكـة ، فقـد صـحَّ أنَّ الله قـد عوَّضه من يديه جناحين يطير بهما مـع الملائكـة في الجـنة[3] ، ويأكـل من ثمارها حيث شاء ، فلذلك سُمِّيَ الطيَّار في الجنَّة"[4] .

ويكـون أوَّل مـن حـاز على لقب طيَّار في التاريخ الإسلامي ، ويتفرَّد به دون النَّاس أجمعين"[5] . ولكنَّه في ذات الوقت ليس طيَّاراً عادياً ، أو حتى رائد فضاء ، بل طيَّاراً في الجنَّة مع الملائكة المقرَّبين ، يطير مع جبريل ، وميكائيل ، وقد ميَّزه الله – سـبحانه وتعـالى – عـن الملائكـة بـأن جعل جناحيه مضرجين ، مخضوبة قوادمه بالـدماء[6] . وذلك علامة على أنَّهما وسام شرف علوي مُنِحَ له مكان يديه اللتين ضـحَّى بهما بإصرار في سبيل الله تعالى ، وهو يقاوم بقوة وعنادٍ عجيبين ألاَّ تسقط راية رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أرضاً .

نعـم! سـقط القائـد الـشاب شـهيداً ، وفي جـسده بـضعٌ وتـسعون مـا بـين طعـنة ورمـية ، مـنها خمـسون بـين طعنة وضربة ليس منها شيء في دبره ، يعني في

---

(١) ابـن هشام (السيرة ٤/ ٣٧٨) ، (المستدرك ٣/ ٢٣٢) ، (المجمع للهيثمي ٩/ ٢٧٣) ، ابن كثير (البداية ٤/ ٢٤٦) .

(٢) با شميل ، غزوة مؤتة ٢٩٦ ، غزوة مؤتة والسرايا والبعوث النبوية الشمالية ، ص ٣٠٨ .

(٣) أخرج البخاري (الصحيح ٥/ ٨٧) من طريق الشعبي قال: "كان ابن عمر إذا حيَّا ابن جعفر قـال: الـسلام علـيك يا ابن ذي الجناحين". قال ابن حجر (فتح الباري ٧/ ٧٦): كأنه يشير إلى حديث عبد الله بن جعفر .

وأخـرج الطبرانـي ، كمـا في (مجمع الزوائد ٩/ ٢٧٣) بسنده عن ابن عباس رضي الله تعالى عـنهما حديثاً طويلاً عن المعركة ، قال في آخره: "ذا جناحين يطير بهما حيث شاء ، مخضوبة قوادمه بالدماء". قال الهيثمي: رواه الطبراني بإسنادين وأحدهما حسن .

(٤) أخرجه الحاكم ، المستدرك ٣/ ٢٣٢ ، الهيثمي ، مجمع ٩/ ٢٧٣ .

(٥) منير غضبان ، فقه السيرة ٥٤٨ .

(٦) أخـرج الطبرانـي ، مجمـع الـزوائد ٩/ ٢٧٣) ، الحـاكم (المـستدرك ٣/ ٢٣٤) ، وابـن حجـر (فتح الباري ٧/ ٧٦) ، ابن سعد (الطبقات ٤/ ٣٩) .

ظهره"[1].

وفي ذلك "بيان فرط شجاعته وإقدامه"[2].

فلمَّا قُتِلَ جعفر، أخذ عبد الله بن رواحة الراية، ثُمَّ تقدَّم بها، وهو على فرسه، وكان لمقتل صاحبيه الواحد تلو الآخر على ذلك النحو المؤثِّر، أثره في نفسه، فجعل يستنْزل نفسه ويتردَّد، بعض التردُّد، ويرتجز:

أقسمت يا نفس لتنزلنَّه ::: لتنزلن أو لتكرهنَّه
قد طال ما كنت مطمئنة ::: مالي أراك تكرهين الجنَّة
إن أجلب الناس وشدُّوا الرنَّة[4] ::: هل أنت إلاَّ نطفة في شنَّة[3]

وقال أيضاً:

يا نفس إلاَّ تُقْتَلي تموتي ::: هذا حمام الموت قد صليت
وما تمنيتِ فقد أُعْطِيتِ ::: إنْ تفعلي فعلهما هُديتِ

يريد صاحبيه زيداً، وجعفراً، ثُمَّ نزل، فلمَّا نزل أتاه ابن عم له بعرق[5] من لحم، فقال: شُدَّ بهذا صُلبك، فإنَّك قد لقيت في أيامك هذه ما لقيت، فأخذه من يده، ثُمَّ انتهس منه نهسة[6]، ثُمَّ سمع الحطمة[7] في ناحية النَّاس، فقال: وأنت في الدُّنيا! ثُمَّ ألقاه من يده، ثُمَّ أخذ سيفه، فتقدَّم، فقاتل حتَّى طُعِنَ، فاستقبل الدم بيده، فدلك به وجهه، ثُمَّ صُرِعَ بين الصَّفين، فجعل يقول: يا معشر المسلمين، ذُبُّوا[8] عن لحم أخيكم، فجعل المسلمون يحملون حتَّى يحوزوه[9]، فلم يزالوا كذلك حتَّى مات مكانه"[10].

وينفي بعض المعاصرين رواية تردُّد عبد الله بن رواحة - رضي الله تعالى

---

(١) أخرجه البخاري (الصحيح ٥/ ٨٦).
(٢) ابن حجر (فتح ٧/ ٥١٢).
(٣) النطفة: الماء القليل الصافي. والشَّنة: القربة القديمة.
(٤) أجلب الناس: يُقال: أجلب القوم إذا صاحوا واجتمعوا. والرَّنة: صوت فيه ترجيع شبه البكاء.
(٥) العرق: العظم الذي عليه بعض لحم.
(٦) انتهس: أي أخذ منه بفمه يسيراً.
(٧) الحطمة: الكسرة. والمراد بها هنا اشتداد القتال بين الطرفين.
(٨) الذَّبُّ: الدفع، والمنع. (القاموس: ذَبَّ).
(٩) الحوز: الجمع وضم الشيء، كالحيازة والاحتياز. (القاموس: الحوز).
(١٠) ابن الأثير، (أُسْد الغابة ٣/ ٢٣٨).

عنه ، كونها تتعارض مع موقفه قبل ذلك من تشجيعه للمسلمين لملاقاة الروم ، وتحرُّقه للشهادة في سبيل الله[1] .

بينما يربط بعضهم هذا الموقف بما عُرِفَ من تقلبات نفسية الشُعراء وحساسيتهم[2] .

بينما ما حدث من عبد الله بن رواحة - رضي الله تعالى عنه - لا يعدو كونه أمراً طبعياً ، وموقفاً من مواقف ضعف النفس البشرية يعتريها أوقات الشدة والأزمات ، وهو بالتالي لا يُدلِّل على خَوَرِ عبد الله رضي الله تعالى عنه وجُبْنَه ، كما يفهمه البعض من ظاهر الرواية ، فذلكَ أمرٌ مفروغٌ منه ، فعبد الله بن رواحة - رضي الله تعالى عنه - مشهودٌ له بالشجاعة ، والجرأة ، ورباطة الجأش ، وليس اختيار النَّبيّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وهو الخبير في أصحابه - له قائداً من قوَّاد هذه الموقعة العظيمة التي كانت في عمق الأراضي الخاضعة لنفوذ الدولة البيزنطية ، وبعيداً عن قاعدة المسلمين ، وانتدابه له سابقاً في أقوى سراياه وبعوثه ، وأصعبها مهمّة وجُرأة ، وهي سرايا المغاوير ، إلاَّ دليلاً من الأدلة القاطعة على ذلك .

والصحابة - رضي الله تعالى عنهم ، وإن كانوا مشهورين بالشجاعة والجرأة وحُب الموت في سبيل الله تعالى ، فهم في النهاية ليسوا ملائكة ، بل بشر يعتريهم الخوف والضَّعْف في مواطنهما ، بل ربَّما مغادرة ميدان المعركة ، كما حدث من بعضهم في بعض المواقع ، وقد سوَّغ لهم الشرع التحيُّز إلى فئة ، وعدم الاستقتال .

إنَّ ما حدث من عبد الله بن رواحة - رضي الله تعالى عنه - أمرٌ طبعي يمكن أن يحدث لكُلِّ إنسان في مثل تلك الظروف الصعبة والمواقف المحرجة .

ولكن معالجة الموقف بمثل تلك القوة ، والشجاعة ، ورباطة الجأش ، لا تحدث من كُلِّ إنسان ، فما قام به عبد الله بن رواحة - رضي الله تعالى عنه ، لا يقوم به إلاَّ رجال أبطال مؤمنون أمثاله ، ولو كان غير ذلك لأطلَقَ لنفسه العنان ، ولما استطاع مصابرتها والتغلُّب على فلتاتها .

وكان يمكن أن يمر ذلك الموقف دون أن يحس به أحد من الناس ، ولكنَّ رجلاً شجاعاً ، شاعراً ، مؤمناً ، مرهف الحسّ ، صادقاً مع نفسه ، كعبد الله بن رواحة -

---

(١) الدويدار ، صور من حياة الرسول صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ، ص ٥٢١ - ٥٢٣ .

(٢) عماد الدين خليل ، دراسة في السيرة ٢٩٧ ، غزوة مؤتة والسرايا والبعوث النبوية الشمالية ، ص ٣١٥ .

رضي الله تعالى عنه ، لا يمكن أن يدعه يمر عليه هكذا بسهولة ، دون أن يُصَوِّر أحاسيسه تجاهه تصويراً صادقاً قوياً ، ويُعَبِّر عن خلجات نفسه نحوه تعبيراً دقيقاً رائعاً بصوتٍ عال مرتفع ، استطاع معه شهود العيان ، ومِن ثَمَّ الرواة تسجيله بمدادِ العزَّةِ والكرامةً ، لتتطلَّع عليه الأجيال الإسلامية تلو الأجيال ، فتعتبر ، ولعلَّه أراد ذلك فعلاً[1]

اشتعال المعركة بين الجيشين:

هذا وقد أشعلت الحملات والاختراقات البطولية - التي قام بها القادة الثلاثة في العمق داخل صفوف العدو رغم تفوقه العَدَدِي والعُدَدِي - أشعلت حماس المسلمين جميعاً ، واشتعل القتال على طول الجبهة ، وأبدى المسلمون من صنوف البطولات الجماعية ، والفردية ، أسوة بقوَّادهم ما أذهل الروم وحلفاءَهم .

فهذا عبد الله بن رواحة - رضي الله تعالى عنه - كما يذكر الأوزاعي في رواية - وفي مجلس من مجالس الأنصار في المدينة ، ومعهم نفر منهم ، حين نزل قول الله - تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ ﴾ . [الصَّفّ: ٤] . يعاهدون الله - تبارك وتعالى - على الجهاد في سبيله حتى الموت ، فلمَّا أخذ عبد الله بن رواحة - رضي الله تعالى عنه - الراية ، فصاح بأولئك النَّفر الذين حضروا ذلك المجلس ، فتلا عليهم الآية وقال لهم: إنَّ ما كنتم عاهدتم الله عليه قد جاء مصداقه ، " اصدقوا الله يصدقكم ، فجاءوا يخبُّون[2] كأنَّهم بقر نُزِعَت من تحتها أولادها ، فتقدَّموا بين يديه ، فلمَّا شدَّ على الروم شدُّوا معه حتى شُدِخُوا[3] جميعاً "[4] .

وهذا عوف بن مالك الأشجعي - رضي الله تعالى عنه - ، أحد شهود العيان والمشاركين في مؤتة ، يُحَدِّثنا عن إحدى تلك البطولات ، فيقول:

---

(١) غزوة مؤتة والسرايا والبعوث النبوية الشمالية ، ص ٣١٦ .

(٢) الخَبَب - محرَّكة - ضرب من العدو ، أو كالرمل ، أو أن ينقل الفرس أيامنه جميعاً ، وأياسره جميعاً ، أو أن يراوح بين يديه ، والسرعة خب خباً وخبيباً وخبباً . (القاموس: خبب) .

(٣) الشدخ: الكسر في كل شيء رطب أو يابس ، وقيل: هو التهشيم . وقال الليث: الشدخ كسرك الشيء الأجوف ، كالرأس ونحوه . وفي الحديث: فشدخوه بالحجارة . (اللسان ، والقاموس: شدخ) .

(٤) ابن عساكر ، تاريخ ، ٥/ ٣١٤ - ٣١٥ .

خرجت مع زيد بن حارثة في غزوة مؤتة ، فرافقني مدَدِيٌّ[1] من أهل اليمن ليس معه غير سيفه ، فنحر رجلٌ من المسلمين جزوراً[2] ، فسأله المدَدِيُّ طائفة من جلده[3] ، فأعطاه إيَّاه ، فاتَّخذه كهيئة الدرق[4] ، ومضينا ، فلقينا جموع الروم ، وفيهم رجل على فرس له أشقر عليه سرج مذهب ، فجعل الرومي يفري[5] بالمسلمين ، فقعد له المدَدِيُّ خلف صخرة ، فمرَّ به الرومي فعرقب فرسه[6] ، فخرَّ[7] وعلاه فقتله ، وحاز فرسه وسلاحه "[8] .

ويتصدَّى عقيل بن أبي طالب - رضي الله تعالى عنه - لرجلٍ آخر فيقتله بعد مبارزةٍ بالسيوف[9] .

ولكن ، ومع تلك البطولات التي أبداها المسلمون قُوَّاداً وأفراداً ، إلاَّ أنه بمقتل عبد الله بن رواحة - رضي الله تعالى عنه ، آخر قائد مُعَيَّن في المعركة ، انفرط عِقد المسلمين و"صار المسلمون لا قائد لهم يحفظ نظامهم "[10] .

" وأصبح الموقف الآن خطيراً ، ومن الممكن أن يتحوَّل بسهولة إلى ما هو أسوأ ، ويؤدي إلى هزيمة تامة للمسلمين "[11] .

تولى خالد بن الوليد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ القيادة وانسحابه بالمسلمين:

ويدرك ثابت بن أقرم ، أخو بني العجلان - رضي الله تعالى عنه - هذه الحقيقة ، فيحاول تدارك الموقف ، ويحتوي خطورته قبل تفاقمها ، فيخطف اللواء

---

(١) أي: من أمداد اليمن ، والأمداد: جمع مدد ، وهم الأعوان والأنصار الذين كانوا يُمُدُّون المسلمين في الجهاد .

(٢) الجزور: البعير ، أو الناقة المجزورة ، أي المنحورة .

(٣) طائفة من جلده: أي قطعة من جلده .

(٤) الدرق: ضرب من الترسة ، الواحدة: درقة ، تُتَّخذ من الجلود .

(٥) كناية عن المبالغة في القتل .

(٦) عرقب فرسه: أي قطع عرقوبه ، وهو عصب غليظ في رجل الدَّابة بمنْزلة الركبة في يدها .

(٧) خرَّ: أي سقط من علو .

(٨) أخرجه مسلم (الصحيح ٤/ ٢٤) ، وأبو داود (سنن ٣/ ١٦٣) وهذا لفظه . وأحمد (المسند ، حديث رقم: ٢٣٩٩٦٠) .

(٩) الطبراني ، (المعجم الأوسط ١/ ٢٦٥ - ٢٦٦) .

(١٠) أبو زيد ، شلبي ، سيف الله خالد بن الوليد ، ص ٦٣ .

(١١) الجنرال أكرم ، سيف الله ، ص ١٠٥ ، غزوة مؤتة والسرايا والبعوث النبوية الشمالية ، ص ٣٢٢ .

من يد عبد الله بن رواحة - رضي الله تعالى عنه - قبل أن يسقط أرضاً: ثُمَّ سعى به حتى إذا كان أمام الناس ركزه، ثُمَّ قال: إليَّ أيها الناس فاجتمع إليه الناس"[1].

فقال: يا معشر المسلمين! اصطلحوا على رجلٍ منكم. قالوا: أنت. قال: ما أنا بفاعل. فاصطلح الناس على خالد بن الوليد - رضي الله تعالى عنه[2].

"وثابت أبى القيادة، لا نُكُوصاً[3] عن الموت، بل شعوراً بوجود الأكفأ منه في الجماعة، وحملانه الراية خشية أن تسقط من آيات الجرأة في هذا الموقف العصيب"[4].

"ولقد كان خالد عند ظن أصحابه، لمعت عبقريته القتالية في لحظة الامتحان الخطير هذه، فجعل هدفه أن ينسحب بالمسلمين"[5].

فقد "كانت المهمَّة الأساس المنوطة بخالد في تلك الساعة العصيبة من القتال أن ينقذ المسلمين من الهلاك الجماعي، فبعد أن قدَّر الموقف واحتمالاته المختلفة قدراً دقيقاً، ودرس ظروف المعركة درساً وافياً، وتوقع نتائجها، اقتنع بأنَّ الانسحاب بأقل خسارة ممكنة هو الحل الأفضل"[6].

ولأنَّ "قتال الانسحاب شاق مرهق، وبخصاصة وأنَّ خالد لا يريد إشعار الروم بهذه الخطة"[7]، "لاحتمال انقلاب الانسحاب إلى هزيمة، والهزيمة كارثة تؤدي إلى خسائر فادحة بالمنهزمين"[8].

من أجل ذلك رأى القائد الذكي المحنَّك، أنه حتى يؤَمِّن انسحابه من ميدان المعركة بقوَّةٍ وانتظام، وبأقل خسائر، لا بدَّ أن يستخدم أُسلوب (الهجوم أفضل وسيلة للدفاع)، فبدأ في "تحقيق هدفه، بأن رسم خطَّةً سعى فيها إلى إيهام العدو

(١) ابن سعد، طبقات، ٢/ ١٣٠.
(٢) ابن سعد، طبقات، ٢/ ١٣٠.
(٣) نَكَصَ عن الأمر نُكُوصاً، ونَكْصاً ومنكصا: تكأكأ عنه وأحجم.
(٤) الغزالي، فقه السيرة، ص ٣٦٨.
(٥) خليل، دراسة في السيرة، ص ٢٩٨.
(٦) ياسين سويد، معارك خالد بن الوليد، ص ١٧١.
(٧) الغزالي، فقه السيرة، ص ٣٦٩.
(٨) خطَّاب، الرسول القائد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ص ٣٠٨.

أنَ المسلمين لازالوا في أماكنهم يقاتلون، فدفع مقدمتهم إلى مناوشة العدو "[1]. بينما تحرَّك ببقية الجيش، وأعاد تنظيم قوَّاته، وألَّف مؤخرة قوية لحماية الانسحاب من ميدان المعركة.

"لقد كان خالد قائداً ماهراً، محرِّكاً للجيوش لا نظير له، أُلْهِمَ القيادة إلهاماً، فهو يستعين في مواقفها بكُلِّ ما عرفت الحرب من فنٍّ يستخدمه على السليقة[2]، وعلى البصيرة الملهمة، فدار بالجيش دورة ضمَّ بها صفوفه، ثُمَّ قاتل به في غير اندفاع، ومع ذلك في غير تراجع، وكان بذاته قدوةً للمسلمين "[3].

يقول - رضي الله تعالى عنه - واصفاً قوَّة الانسحاب الذي نفَّذه مع المسلمين، وشِدَّة القتال، وضراوته في أثناء الانسحاب، نتيجة ضغط العدوِّ عليهم -: لقد انقطعت في يدي يوم مؤتة تسعة أسياف، فما بقي في يدي إلاَّ صفيحة يمانية "[4].

ولَّما رأى المسلمون ما يصنعه خالد بن الوليد - رضي الله تعالى عنه، ازدادت حميتهم للقتال، واشتعل حماسهم، فهاجموا بعنف على طول الجبهة، فالمثل الذي ضربه خالد - رضي الله تعالى عنه - لهم قد أثار الحميَّة والشجاعة في صفوف المسلمين، وازدادت المعركة عنفاً[5]، لدرجة أنَّ رسولَ الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: وهو يصف أحداث المعركة للصحابة - رضي الله تعالى عنهم - في المدينة: «**الآن حمي الوطيس**»[6] [7].

نعم! لقد حمي وطيس المعركة بين الطرفين، حتى إنَّ المسلمين نسوا ما أصابهم بفقدان قادتهم الثلاثة في بداية المعركة: فيندفع قطبة بن قتادة العذري، قائد ميمنة المسلمين، إلى الأمام، فيطعن مالك بن رافلة الأراشي، قائد العرب المتنصرة، حلفاء الروم في المعركة، برمحٍ مضى فيه ثُمَّ انحطم، كما وصف ذلك

---

(١) خليل، دراسة في السيرة، ص ٢٩٩.

(٢) السليقة: يعني على الفطرة والطبيعة.

(٣) الشريف، مكة والمدينة، ص ٥٣٦.

(٤) أخرجه البخاري (الصحيح ٥/ ٨٧).

(٥) الجنرال أكرم، سيف الله، ص ١٠٦.

(٦) الوطيس: الضراب في الحرب، ولم يُسمع هذا الكلام من أحد قبل النَّبيّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وهو من فصيح الكلام عبَّر به عن اشتباك الحرب وقيامها على ساق. (الشامي: سبل ٦/ ٢٥٩ - ٢٦٠).

(٧) أخرجه ابن عساكر، تاريخ، ٥/ ٥٤٤، من رواية ابن عائذ بسنده عن العطَّاف بن خالد وهو منقطع.

في شعره الذي قاله مفتخراً بقتله:

طعنت ابن رافلة بن الأراشي ::: برمح مضى فيه ثُمَّ انحطم
ضربتُ على جِيدِه ضربةً ::: فمال كما مال غصن السلم[1]

ثُمَّ بدأ خالد بن الوليد - رضي الله تعالى عنه - بعد ذلك عملية الانسحاب الشاملة من ميدان المعركة، عندما قامت مؤخِّرة المسلمين بقتال التعويق لإحباط مطاردة العدو للمسلمين، وإنقاذ القسم الأكبر من قوات المسلمين من التطويق[2].

وانتشرت المؤخِّرة على جبهةٍ واسعة، واستطاع خالد - رضي الله تعالى عنه - قطع التماس القريب مع العدوِّ، ولكنه لم يكن بعيداً عن مدى النبال، وكان تراجع المسلمين تحت حماية وابلٍ من سهام النَبَّالة الذين كان على رأسهم النبَّال الإسلامي المشهور واقد بن عبد الله التميمي، وكان من أرمى الناس، وقد كبَّر وقال: ارفعوني على ترس[3]، فرفعوه، فقال: انظروا إلى مواقع نبلي، فإن رضيتم أخبروني، فرمى المشركين حتَّى ردَّهم الله"[4].

وعندما تراجع المشركون "جمع خالد قوَّاته، وقطع التماس مع العدوِّ، وانسحب مع قوَّاته بعيداً إلى الخلف، وأصبح الجيشان يواجهان بعضهما خارج مدى النبال، وكان كلاهما يلتمس الراحة وإعادة التنظيم[5].

ويذكر ابن الديبع الشيباني، أنَّ خالد بن الوليد - رضي الله تعالى عنه: قاتل قتالاً شديداً ودافع عن المسلمين حتى انحاز بهم إلى جبل"[6]. وكانت تلك فرصة للمسلمين لدفن شهدائهم في المعركة. قال سعيد بن أبي هلال: "بلغني أنَّهم دفنوا يومئذٍ زيداً، وجعفراً، وابن رواحة في حُفْرَةٍ واحدةٍ"[7] كما

(١) ابن هشام، سيرة، ٤/ ٣٨١.
(٢) خطَّاب، الرسول القائد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ص ٣٠٨.
(٣) الترس: الدرقة، جمعها درق، وتُتَّخذ من الحديد أو المعدن، ويستخدمها المحارب في ميدان المعركة كوقاية من ضربات العدو.
(٤) أخرجه سعيد بن منصور (السنن ٢/ ٢٩٧ - ٢٩٨)، غزوة مؤتة والسرايا والبعوث النبوية الشمالية، ص ٢٢٧.
(٥) الجنرال أكرم، سيف الله، ص ١٠٦ - ١٠٧.
(٦) وجيه الدين عبد الرحمن بن علي، حدائق الأنوار، ٢/ ٦٥٦.
(٧) أخرجه سعيد بن منصور (السنن ٢/ ٢٩٧ - ٢٩٨).

تَمَّ تقسيم أسلاب القتلى من العدوِّ على مقاتليهم ، إلاَّ أنَّ خالداً - رضي الله تعالى عنه - استكثر سلب الرومي الذي قتله المَذَدِّيّ ، فبعث إليه: "خالد بن الوليد ، فأخذ من السلب . قال عوف: فأتيته ، فقلت: يا خالد! أما علمت أنَّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قضى بالسلب للقاتل؟! . قال: بلى ، ولكني استكثرته . قلت: لتردَّنه عليه ، أو لأُعَرِّفَنَّكها عند رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فأبى أن يردَّ عليه "[1] .

وهكذا استطاع خالد بن الوليد رضي الله تعالى عنه ، بتوفيقٍ من الله ، ثُمَّ بحنكته وتدبيره ، أن يحتفظ بتوازن المعركة حتى الليل .

ثُمَّ أصبح غازياً ، قد جعل مقدّمته ساقه ، وساقته مقدمة ، وميمنته ميسرة ، وميسرته ميمنة ، فأنكروا ما جاء به من خلاف ما كانوا يعرفون من راياتهم وهيئتهم وقالوا: قد جاءهم مدد[2] .

فرعبوا ، ولسان حالهم يقول: "إذا كان المسلمون على قلَّتهم ، قد فعلوا ما فعلوا بالأمس ، فكيف وهم اليوم قد جاءهم المدد ، وازداد العدد؟! .

لقد أحجم الروم عن الهجوم ، وكذلك لم يهاجمهم خالد ، فقد كان يريد أن يخرج من المعركة غير المتكافئة بجيشه سليماً ، ويُرْعِب العدوَّ حتى لا يلاحقه في تراجعه ، فلمَّا اطمأنَّ إلى نجاح خطته تراجع بقوَّاته ، وبَعُدَ بها حتَّى صارت في مأمنٍ "[3] .

وهكذا: "انحاز الفريقان كُلٌّ عن كُلٍّ قافلاً عن غير هزيمة ، فقفل المسلمون على طريقهم التي أبدوا منها ، حتَّى مرُّوا بتلك القرية ، والحصن الذي كانوا شدوا على ساقهم ، وقتلوا رجلاً منهم ، فحاصروهم في حصنهم حتى فتحه الله عليهم عنوة ، فقتل خالد مقاتلتهم في نقيع[4] إلى جانب حصنهم صبراً فيها ، فَسُمِّي ذلك النقيع ، نقيع الدم إلى اليوم ، وهدموا حصناً هدماً لم يعمر بعده إلى اليوم" . ثُمَّ رجع خالد رضي الله تعالى عنه بالمسلمين سالمين إلى المدينة[5] .

وبذلك استطاع سيف الله بث الرُّعب في قلوب حلفاء الروم ، وأعوانهم من العرب المتنصِّرة ، الذين يمرّ المسلمون في طريق عودتهم عبر أراضيهم ، فلم تذكر

---

(١) أخرجه مسلم (الصحيح ٤/ ٢٤) ، وأبو داود (سنن ٣/ ١٦٣) وهذا لفظه . وأحمد (المسند ، حديث رقم: ٢٣٩٩٦٠) .

(٢) أخرجه ابن عساكر .

(٣) الشريف ، مكة والمدينة ، ص ٥٣٧ .

(٤) النَّقيع: البئر الكثيرة الماء . (القاموس: نقيع) .

(٥) أخرجه ابن عساكر ، ابن حجر (فتح ٧/ ٥١٤) .

الروايات أنَّهم تعرَّضوا للمسلمين بأي أذى كما فعلوا بالأمس[1].

معجزة للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وموقف أهل المدينة من الجيش:

كُلُّ تلك الأحداث كانت تجري على أرض المعركة بعيداً في مؤتة، ورسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ينقلها بتفاصيلها أولاً بأوَّل مباشرةً لمن كان بالمدينة من الصحابة - رضي الله تعالى عنهم: "فقال: أخذ الراية زيد فأصيب، ثُمَّ أخذ جعفر فأُصيب، ثُمَّ أخذ ابن رواحة فأُصيب - وعيناه تذرفان - حتَّى أخذ الراية سيفٌ من سيوف الله، حتَّى فتح الله عليهم"[2].

وفي حديث أبي قتادة: "ثُمَّ أخذ اللواء خالد بن الوليد، ولم يكن من الأُمراء، هو أمَّر نفسه، ثُمَّ قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اللَّهُمَّ إنه سيفٌ من سيوفك فأنت تنصره، فَمِن يومئذٍ سُمِّيَ سيف الله**»[3].

وتلك كانت معجزة نبوية، أطلع الله سبحانه وتعالى من خلالها رسوله الكريم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على أحداث المعركة، وهو على بُعْد آلاف الكيلومترات عنها عياناً، وكأنه حاضرٌ معهم.

يذكر موسى بن عقبة في روايته أنَّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إنَّ الله - تبارك وتعالى - رفع لي الأرض، حتَّى رأيت معتركهم**»[4].

وإذا كانت هذه الرواية فيها بعض الضَّعف باعتبار أنَّها مرسلة، فهناك بعض الوقائع المماثلة التي قد تؤيد وقوعها، فهذه المعجزة نظير ما وقع في قصَّة الإسراء، حيث قال النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَـمَّا كذَّبتني قريش قمت في الحِجْر، فجلَّى الله لي بيت المقدس، فطفقت أُخبرهم عن آياته، وأنا أنظر إليه**»[5].

---

(١) غزوة مؤتة والسرايا، ص ٢٢٧.

(٢) أخرجه البخاري (الصحيح ٥/ ٨٧).

(٣) أخرجه أبو داود (انظر: عون المعبود، حديث ٤٣٤)، أحمد (المسند ٥/ ٣٧٦ - ٣٧٧)، والنسائي (السنن الكبرى ٥/ ٩٦)، وابن حبان (انظر: الإحسان في ترتيب صحيح ابن حبان، حديث ٧٠٠٨)، والبيهقي (الدلائل ٢/ ٣٧٦)، والطبري، التاريخ، ٣/ ٤٠.

(٤) ابن سعد (طبقات ٢/ ١٢٧).

(٥) أخرجه البخاري انظر (فتح الباري ٨/ ٣٩١).

تحرُّك النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالمسلمين سريعاً لإمداد أهل مؤتة:

كان الروم وحلفاؤهم قد أحجموا عن مطاردة المسلمين نتيجة تلك المناورة الذكية التي قام بها خالد بن الوليد - رضي الله تعالى عنه - في ميدان المعركة، ولكنَّ الذي زادهم إحجاماً ورعباً، تلك المناورة الأذكى من مبتكر المناورات الذكية الذي سمَّى: "الحربَ خدعة"[1]. القائد الأعلى للقوات الإسلامية، رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الذي ما أن وصله الخبر مباشرة عن أحداث المعركة بواسطة الوحي الإلهي، حتَّى أمر المسلمين في المدينة - بعد أن قصَّ عليهم الخبر - كما أسلفنا - بالتحرُّك سريعاً لإمداد المسلمين في مؤتة، حيث قال: "انفروا، فأمدُّوا إخوانكم ولا يتخلَّفَنَّ منكم أَحَد، فنفروا في حَرٍّ شديدٍ، مشاةً وركبانا، وذلك في حَرٍّ شديدٍ"[2].

وإذا كان خبر تحرُّك المسلمين سابقاً من المدينة نحو مؤتة، قد وصل إلى مسامع الروم وحلفائهم بسرعة فائقة، مكَّنتهم من الاستعداد لهم ذلك الاستعداد الجيد، فإنَّ الخبر بمسير رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالمسلمين من المدينة سريعاً لإمداد إخوانهم في مؤتة، ربَّما يكون قد وصل إلى مسامع الروم وحلفائهم أسرع مِمَّا كان متصوَّراً في ذلك الوقت نظراً للتأييد الإلهي للنَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بتلك المعجزة النبوية التي خصَّه الله بها دون غيره من الأنبياء، وهي النَّصر بالرُّعب مسيرة شهر[3].

والمسافة بين المدينة وبيت المقدس كانت تساوي مسيرة شهر في ذلك الوقت،

---

(١) حديث صحيح. أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة، وجابر بن عبد الله، رضي الله تعالى عنهم. انظر: (فتح الباري ٦/١٥٨).

قال النووي (صحيح مسلم بشرح النووي ١٢/ ٤٥): واتَّفقوا على جواز خداع الكُفَّار في الحرب كيفما أمكن، إلاَّ أن يكون فيه نقض عهد أو أمان فلا يجوز.

(٢) أخرجه أبو داود (انظر: عون المعبود، حديث ٤٣٤)، أحمد (المسند ٥/ ٣٧٦ - ٣٧٧)، والنسائي (السنن الكبرى ٥/ ٩٦)، وابن حبان (انظر: الإحسان في ترتيب صحيح ابن حبان، حديث ٧٠٠٨)، والبيهقي (الدلائل ٢/ ٣٧٦)، والطبري (التاريخ ٣/ ٤٠).

(٣) أخرج البخاري في الصحيح (فتح الباري ١/ ٤٣٦) عن جابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنهما قال: "إنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: "أُعطيت خمساً لم يُعطَهُنَّ أحدٌ قبلي: نُصِرتُ بالرُّعب مسيرة شهر، وجُعِلَت لي الأرض مسجداً وطهوراً، فأيُّما رجل مِن أُمَّتي أدركته الصَّلاة فليُصَلِّ، وأُحِلَّت لي الغنائم ولم تُحَلّ لأحدٍ قبلي، وأُعطيت الشفاعة، وكان النَّبيُّ يُبْعَثُ إلى قومه خاصَّة، وبُعِثْتُ إلى الناس عامة".

فإذا علمنا أنَّ مؤتة كانت أقرب للمدينة من بيت المقدس، فإنه لا بُدَّ أن يكون الرعب قد دخل قلوب الروم وحلفائهم منذ اللحظة التي تحرَّك فيها النَّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع المسلمين من المدينة، فآثروا السلامة، مكتفين بما حققوه في بداية المعركة، وتجنَّبوا المغامرة الخطرة في تعقُّب المسلمين، خوفاً من الاصطدام بالمدد النَّبويِّ المتحرِّك سريعاً من المدينة صَوْب منطقة العمليات في مؤتة.

الشاهدُ أنَّ تلك الحركة من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قد تكون (مناورة تكتيكية) لإرهاب الأعداء، وإدخال الرُّعب في قلوبهم، وقد أدَّت مهمَّتها على الوجه المطلوب. والله تعالى أعلم[1].

وهكذا أُسدِل الستار على تلك المعركة العظيمة، وفقد المسلمون من رجالهم بضعة عشر شهيداً، بالإضافة إلى القادة الثلاثة - رضي الله تعالى عنهم - أجمعين[2].

أمَّا العدو فلا توجد معلوماتٍ عن مقدار خسارته، ولكنَّها لا شكَّ كانت جسيمة، لأنَّ كُلَّ قائدٍ من قادة المسلمين الذين تولَّوا القيادة قبل خالد كان شجاعاً، ومقاتلاً بارعاً، كما أنَّ السيوف التي كُسرت بيد خالد، لا شكَّ أنَّها كُسِرت في أجساد الأعداء"[3].

واختلف أهل المغازي حول نتيجة مؤتة اختلافاً كبيراً، هل انتصر فيها المسلمون أم هزموا أم ماذا كانت نتيجتها؟فهناك من يقول إنَّ المسلمين هَزموا الروم هزيمة منكرة في مؤتة[4].

والسبب في ذلك يرجع إلي حديث أنس بن مالك عن النَّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "ثُمَّ أخذها خالد ففتح عليه"، يدل على ظهوره عليهم[5]. والله تعالى أعلم بالصواب.

وقال ابن كثير: وهذا يقتضي أنَّهم غنموا منهم وسلبوا من أشرافهم، وقتلوا من أمرائهم، وقد تقدَّم فيما رواه البخاري أنَّ خالداً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: اندقَّت في يدي يوم مؤتة تسعة أسياف وما ثبت في يدي إلاَّ صفحة يمانية. وهذا يقتضي أنَّهم

(١) غزوة مؤتة والسرايا، ص٢٢٧.
(٢) انظر، ابن هشام، سيرة٤/ ٣٨٨، الواقدي (مغازي٢/ ٧٦٩).
(٣) الجنرال أكرم، سيف الله، ص ١٠٦ - ١٠٧.
(٤) ابن هشام، سيرة، ٤/ ٣٨٣، البيهقي، دلائل ٤/ ٣٧٥، ابن كثير، البداية ٤/ ٢٤٩ - ٢٥٠).
(٥) دلائل النبوة للبيهقي، ٤/ ٤٩٣.

أثخنوا فيهم قتلاً ، ولو لم يكن كذلك لما قدروا على التخلُّص منهم . هذا وحده دليلٌ مستقلٌ ، وقد ذكر ابن إسحاق: أنَّ قطبة بن قتادة العذري - وكان رأس ميمنة المسلمين - حمل على مالك بن زافلة ، ويقال: رافلة ، وهو أمير أعراب النصارى فقتله ، وقال يفتخر بذلك:

طعنت بن رافلة الأراشي ::: برمحٍ مضى فيه ثُمَّ انحطم

فذكر شعره إلى أن قال:

وسقنا نساء بني عَمِّه غداة ::: رقوقين سوق النعم

وهذا يؤيد ما نحن فيه ، لأنَّ مِن عادة أمير الجيش إذا قُتِلَ أن يفرَّ أصحابه ، ثُمَّ إنه صرَّح في شعره بأنَّهم سبوا من نسائهم . وهذا واضح فيما ذكرناه . والله أعلم[1] .

وهناك من يقول إنَّ الروم هم الذين هَزموا المسلمين ، وجزم به الواقدي[2] ، وكاتبه ابن سعد[3] .

وهناك قول ثالث يقضي بانسحاب خالد بن الوليد رضي الله تعالى عنه بالمسلمين - بعد تولِّيه القيادة - من ميدان المعركة بعد قتال قويّ ومرير ، ثُمَّ إحجام الروم عن مهاجمة المسلمين بعد خطَّته الإيهامية الذَّكية بتغييره مراكز الجيش ، ومِن ثَمَّ انسحاب كُلّ طرف عن الآخر دون قتال .

وهذا قول ابن إسحاق[4] ، وابن عبد البر[5] ، وابن حزم[6] ، وابن سَيِّد

---

(١) ابن كثير ، البداية ، ٤/ ٢٤٩ - ٢٥٠ .

(٢) وساق الواقدي خمس روايات تُدَلِّل على هزيمة خالد بالناس . ثُمَّ قال - مُعَلِّقاً على روايةٍ ذكرها حول اشتداد المعركة حينما أخذ خالد بن الوليد رضي الله تعالى عنه الراية وقال: و . . . لأثبت عندنا أنَّ خالداً انهزم بالناس . (مغازي ٢/ ٧٦٣ - ٧٦٤) .

(٣) وقال ابن سعد: " فاصطلح الناس على خالد بن الوليد فأخذ اللواء ، وانكشف الناس ، فكانت الهزيمة " . (الطبقات ٢/ ١٢٩) .

(٤) واستدلَّ ابن إسحاق على رأيه بشعر أحد شهود المعركة ، وهو قيس بن المسحر اليعمري ، الذي قال فيه:

وقفت بها مستجيراً فنافذاً ::: ولا مانعاً من كان حُمَّ به القتلُ
على أنني آسيت نفسي بخالدٍ ::: ألا خالدٌ في القومِ ليس له مثلُ

قال ابن إسحاق: فبيَّن قيس ما اختلف فيه الناس من ذلك في شعره ، أنَّ القوم حاجزوا وكرهوا الموت ، وحقَّق انحياز خالد بمن معه .انظر: ابن هشام ، سيرة ٤/ ٣٨٣ .

(٥) الدرر ، ص ٢٢٣ .

(٦) جوامع السيرة ٢٢٢ .

النَّاس[1] ، ورجَّحه ابن القيم[2] ، واعتمده معظم المؤرِّخين المعاصرين[3] .

وهذا القول وسط بين القولين السابقين ، وهو الراجح فيما يبدو لي لعدَّة اعتبارات ، فهو قول غالبية أهل المغازي كما رأينا .

كما أنَّ القول بهزيمة المسلمين غير صحيح لثلاثة أُمور:

أولاً: الروايات في ذلك ضعيفة ، فهي عن الواقدي ، وتلميذه ابن سعد الذي يعدّ في غالب الظَّن ناقلاً عن شيخه ، والواقدي متروك خاصّةً إذا انفرد . ورواية أبي موسى التي ذكرها ابن سعد ضعيفة أيضاً .

ثانياً: مخالفة هذه الروايات لرواية الصحيح ، وقول النَّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيه: «**ففتح الله عليهم**» .

ثالثاً: قلة قتلى المسلمين في المعركة ، وعدم وقوع أسرى منهم في أيدي العدو ، وكل ذلك يخالف ما يكون عليه المنهزم عادةً في المعركة[4] .

أيضاً القول بهزيمة الروم وحلفائهم في المعركة ، غير صحيح ، لثلاثة أسباب:

أولاً: لو أنَّ المسلمين هَزموا الروم وحلفاءهم في مؤتة ، لاشتهر ذلك ، وذاع صيته ، ولتواتر تواتراً يُؤمن بجانبه الكذب ، وبخاصّةً أنَّ أوَّل مواجهة قتالية بين المسلمين والروم كما كانت بدر أوَّل مواجهة قتالية بين المسلمين والمشركين ، وقد تواترت نتيجتها ، وذاع صيتها ، وبلغ صداها أرجاء الجزيرة العربية .

ثانياً: وقوع عدد كبير من الأسرى في أيدي المسلمين ، وذلك ما لم تذكره الروايات .

ثالثاً: طرد الروم وحلفائهم من المناطق التي كانت خاضعة لسلطانهم في منطقة مؤتة ، وما حولها ، وإخضاعها لنفوذ المسلمين ، وذلك لم يحدث ، حيث استمر الروم وحلفاؤهم في المنطقة يُشكِّلون تهديداً للمسلمين ، بدليل بَعْث النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سرايا وبُعُوث إلى تلك المنطقة بعد مؤتة ، ثُمَّ مسيره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بنفسه على رأس جيش العُسْرة إلى تبوك .

---

(١) عيون الأثر ٢/ ٢٠١ .

(٢) قال ابن القيم: والصحيح ما ذكره ابن إسحاق أنَّ كُلَّ فئة انحازت عن الأُخرى . (زاد ٢/ ١٥٦) .

(٣) غزوة مؤتة والسرايا ، ص٣٤٢ .

(٤) غزوة مؤتة والسرايا ، ص٣٤٢ .

إذاً القول الراجح: هو أنَّ سيف الله المسلول، خالد بن الوليد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قام "بعملية انسحاب بارعة دلَّت على مهارته الحربية الفائقة"[1].

ولقد "كانت عملية التراجع والانسحاب التي قام بها خالد بن الوليد في أثناء معركة مؤتة من أكثر العمليات في التاريخ العسكري مهارةً ونجاحاً"[2].

"ومثل هذا التدبير من خالد، ليس بالعمل الميسور الذي يستطيعه كُلّ قائد، بل هو عمل عظيم جسيم يتطلَّب مهارة وحزماً، ورباطة جأش، وثقةً بنصر الله، وكثيراً ما عرف التاريخ قوَّاداً عِظاماً كان السر في شهرتهم إنجاء جيوشهم من مثل هذا الموقف الحرج الذي لو اختلَّ أقل تدبير فيه لفني الجيش"، ولكن خالد بن الوليد - رضي الله تعالى عنه - كان له قصب السَّبْق في ذلك، فعلى الرغم من ضغط القوَّات المتحالفة على المسلمين بشدَّة، وكثرة كاثرة، استطاع ذلك البطل أن ينظم انسحاباً قوياً ناجحاً دون أدنى خسائر تُذْكَر، مع الإثخان في العدو، وهو أمر يخالف ما جرت به العادة من أنَّ المنسحِب هو الذي في الغالب يتكبَّد الخسائر، فلمَّا صار العكس وأفلت خالد - رضي الله تعالى عنه - بجيشه من قبضة العدوّ رغم تشديدهم الضغط عليهم، اعتبره المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فتحاً، بل نصراً مؤزَّراً، استحق عليه اللقب الذي قلَّده إياه القائد الأعلى للقوَّات الإسلامية، وهو الذي شاهد أحداث المعركة عِياناً بواسطة النقل الإلهي.

"ولقد عرف له الرسولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حسن تدبيره"[3]، "ونجاحه في الانسحاب بجيشه بانتظام دونما خسارة تذكر"[4]، "فلقَّبه سيف الله وهو وسام لم يمنحه أحَد من الصحابة"[5]، "بل هو أوَّل وسام يمنح لقائد في تاريخ الإسلام"[6]، بل في التاريخ البشري عامة، "ولعلَّ الرسولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان أسبق من غيره، في تقدير القوَّاد العِظام. "ولعمري مهما أجاد الإنسان في وصفه ومدحه، فلن يصفه بأحسن ولا بأوفى مِمَّا وصفه به رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ"[7][8].

---

(١) با شميل: غزوة مؤتة، ص ٢٦١.
(٢) ياسين سويد، معارك خالد بن الوليد، ص ١٧١.
(٣) أبو زيد شلبي، خالد بن الوليد، ص ٦٤.
(٤) با شميل، غزوة مؤتة، ٢٦١.
(٥) أبو زيد شلبي، خالد بن الوليد، ٦٤.
(٦) با شميل، غزوة مؤتة، ص ٢٦١.
(٧) أبو زيد شلبي، خالد بن الوليد، ص ٦٤.
(٨) غزوة مؤتة والسرايا، ص٣٤٣.

لقد "مضى خالد بلقب سيف الله في مؤتة، والذين يدَّعون ذلك كثيرون، أمَّا الذي يملك الشهادة من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وحده في الدُّنيا هو خالد بن الوليد"[1]. أخرج الحاكم، وصحَّحه، عن الشعبي، عن عبد الله بن أبي أوفى: أنَّ رسولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**لا تُؤذوا خالداً، فإنه سيفٌ من سيوفِ الله صبَّه على الكُفَّار**»[2].

"إنَّ الجماعة المسلمة بحاجةٍ أنْ تُفْقَه معادن الرجال، وتضع الرجال في مواضعهم وهي تخوض معركتها مع العدوّ"[3].

ردة فعل أهل المدينة لنتيجة المعركة:

"لقد صمد المسلمون في معركة مؤتة صموداً هو أروع ما يصنع الإيمان الصادق، وقد دفع المسلمون الثمن غالياً دونما شك، تمثَّل هذا الثمن الغالي بصورةٍ رئيسية في مصرع قادة الجيش الرئيسيين الثلاثة، الواحد بعد الآخر، وبأُسلوبٍ تمثَّلت فيه أرقى معاني البطولة، واسترخاص الأرواح في سبيل الله"[4].

وهذا رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يصف بطولتهم، واسترخاصهم أرواحهم في سبيل الله، ومدى غبطتهم وسرورهم بمصيرهم بما "رأوا من فضل الشهادة"[5] بقوله: «**وما يسرهم أنَّهم عندنا**»[6].

"إنَّ روعة المقاومة الإسلامية في معركة مؤتة التاريخية، والتي يسرت للمسلمين انسحاباً منظَّماً مشرفاً بعد ذلك الصدام الهائل، انسحاباً يمثِّل في واقعه أعلى درجات الانتصار بالنسبة لظروف المعركة الصعبة"[7].

وتكفينا هنا شهادة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي وصف ذلك الانسحاب القوي بالفتح والدلالة التي تعلو على الريب في هذه المعركة[8].

إنَّ شجاعة المسلمين وبسالتهم بلغتا حداً كبيراً، وقد أكسبهم هذا الروح

---

(١) منير غضبان، فقه السيرة، ٥٤٦.
(٢) المستدرك، ٣/ ٣٣٨.
(٣) منير غضبان، فقه السيرة، ص ٥٤٦.
(٤) با شميل: غزوة مؤتة، ص ٢٨٦ - ٢٨٧.
(٥) ابن حجر، فتح ٧/ ٥١٣.
(٦) أخرجه البخاري، (انظر: فتح الباري ٦/ ١٨٠).
(٧) با شميل، غزوة مؤتة، ص ٢٨٨.
(٨) غزوة مؤتة والسرايا، ص٣٤٤.

العالي إقداماً حقَّر أمامهم كبرياء الأُمم التي عاشت مع التاريخ دهراً تصول وتجول لا يوقفها شيء.

"إنَّ الاستهتار بالخطر، والطيران إلى الموت ليس فروسية احتكرها الرجال المقاتلون وحدهم، بل هي قوَّة غامرة قاهرة تعدَّت الرجال إلى الأطفال، فأصبحت الأمة كلها أمة كفاح غال عزيز، وحسبك أنَّ جيش مؤتة لَمَّا عاد إلى المدينة قابله الصبيان بصيحات الاستنكار، يقولون: يا فُرَّار، فررتم في سبيل الله؟! إنَّ أولئك الصِّغار الأغرار يرون انسحاب خالد ومَن معه فِراراً يُقابل بحثو التراب.

أي جيل قوي نابه هذا الجيل الذي صنعه الإيمان بالحق؟!.. أي نجاح بلغته رسالة الإسلام في صياغة أولئك الأطفال العظام؟!.. مَن آباؤهم؟!.. مَن أُمَّهاتهم؟!.. كيف كان الآباء يُرَبُّون؟!.. وكيف كانت الأمَّهات يُدَلِّلْن؟!.. إنَّ مسلمة اليوم بحاجة ماسّة إلى أن تعرف هذه الدروس"[1].

"وحين ترتفع الوتيرة الإيمانية لدى الفتيان الناشئين في الجيل الإسلامي إلى هذا المستوى، فلا شك أنَّ هذا التغيير هو الكفيل بتغيير حال المسلمين: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١][2][3].

وتعيير أهل مؤتة بالفُرَّار لم يكن من الصبيان وحدهم، بل تعدَّاهم إلى بقية النَّاس مِمَّن لم يخرج، وبقي في المدينة مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقد "استنكر المسلمون على الجيش أن يعود من غير أن ينتصر، وعيَّروا رجاله حتى أحرجوا بعضهم"[4].

أخرج الحاكم بسندٍ صحيحٍ عن أُمِّ سلمة - رضي الله تعالى عنها -:

"أنَّها قالت لامرأة سلمة بن هشام بن المغيرة: ما لي لا أرى سلمة يحضر الصَّلاة مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومع المسلمين؟ قالت: والله ما يستطيع أن يخرج، كُلَّما خرج صاح به النَّاس: يا فُرَّار، أفررتم في سبيل الله عزَّ وجلَّ! حتَّى قعد في بيته فما يخرج، وكان في غزوة مؤتة مع خالد بن الوليد[5].

---

(١) الغزالي، فقه السيرة، ص ٣٦٩.
(٢) منير غضبان، فقه السيرة، ص ٥٤٨.
(٣) غزوة مؤتة والسرايا، ص٣٥٠.
(٤) الشريف: مكة والمدينة، ص ٥٣٧.
(٥) أخرجه الحاكم (المستدرك ٣/ ٤٥) وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم لم يخرِّجاه.

وفي اللحظة المناسبة، يتدخَّل القائدُ البصيرُ المُحَنَّك الذي يدرك معنى النَّصر الحقيقي، ويدرك ظروف وملابسات معركة مؤتة، وما أبداه المسلمون فيها من بسالةٍ، وبطولاتٍ حقيقيةٍ أذهلت أعداءهم.

ويدرك ما قام به خالد والمسلمون من تنظيم انسحابٍ رائعٍ ومنظَّمٍ. يتدخَّل رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقوةٍ ليرُدَّ عن الجيش البطل الشجاع، ويرُدَّ على تعيير أهل المدينة لهم بالفُرَّار قائلاً: «**ليسوا بالفُرَّار، ولكنَّهم الكُرَّار إن شاء الله تعالى**»[1].

ويأمر سلمة وغيره مِمَّن تحرَّج من تعيير المسلمين بالخروج إلى الصَّلاة دون حرج، ودون وجل، فهم أبطال كرَّار على العدوِّ إن شاء الله تعالى، وليسوا فُرَّاراً.

وحتَّى يُرَسِّخ هذه الحقيقة في نفوس الجميع، اجتمع رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع الجيش وقائده البطل خالد بن الوليد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقام عوف بن مالك الأشجعي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقصَّ على النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: قصة المددي[2]، وما فعل خالد فقال: خرجت مع زيد بن حارثة في غزوة مؤتة ورافقني مَدَديّ من اليمن... ومضينا فلقينا جموع الروم، فيهم رجل على فرس له اشقر عليه سرج مذهب وله سلاح مذهب، فجعل الرومي يضرب بالمسلمين، فقعد له المددي خلف صخرة فمر به الرومي فعرقب فرسه بسيفه، وفر الرومي، فعلاه بسيفه فقتله وحاز فرسه وسلاحه فلما فتح الله للمسلمين، بعث إليه خالد بن الوليد فأخذ منه بعض السلب قال عوف: فأتيت خالداً، وقلت له: أما علمت أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قضى بالسلب للقاتل؟ قال بلى - ولكني أستكثرته، قلت لتردنها إليه أو لاعرفنكها عند رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأبى أن يرد عليه.

قال عوف: فاجتمعنا عند رسول الله فقصصت عليه قصة المددي ومافعل خالد، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يا خالد ماحملك على ماصنعت؟**» قال: استكثرته، فقال: «**رد عليه الذي أخذت منه**».

قال عوف: فقلت: دونكها ياخالد، ألم أوف لك؟ فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وما ذلك؟**» فأخبرته قال: فغضب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

ووافقه الذهبي.

(١) ابن هشام، سيرة ٤/ ٣٨٢ - ٣٨٣.

(٢) مددي أي جاء مدداً. وفي رواية: رجل من حمير.

وقال: «ياخالد لا ترد عليه، هل أنتم تاركون لي أمرائي، لكم صفوة أمرهم وعليهم كدره»[1].

هذا موقف عظيم من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حماية القادة والأمراء من أن يتعرضوا للإهانة بسبب الأخطاء التي قد تقع منهم، فهم بشر معرضون للخطأ، فينبغي السعي في إصلاح خطئهم من غير تنقص ولا إهانة، فخالد حين يمنع ذلك المجاهد سلبه لم يقصد الإساءة إليه وإنما اجتهد فغلّب جانب المصلحة العامة، حيث استكثر ذلك السلب على فرد واحد، ورأى أنه إذا دخل في الغنيمة العامة نفع عدداً أكبر من المجاهدين، وعوف بن مالك أدى مهمته في الإنكار على خالد، ثم رفع الأمر إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حينما لم يقبل خالد قوله، وكان المفترض أن تكون مهمته قد انتهت بذلك، لأنه - والحال هذه - قد دخل في أمر من أوامر الإصلاح، وقد تم الإصلاح على يده، ولكنه تجاوز هذه المهمة حيث حوّل القضية من قضية إصلاحية إلى قضية شخصية، فأظهر شيئاً من التشفي من خالد، ولم يقره النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على ذلك، بل أنكر عليه إنكاراً شديداً وبين حق الولاة على جنودهم، وكون النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمرا خالداً بعد رد السلب على صاحبه لا يعني أن حق ذلك المجاهد قد ضاع، لأنه لايمكن أن يأخذ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إنساناً بجريرة غيره، فلابد أن ذلك المجاهد قد حصل منه الرضى، إما بتعويض عن ذلك السلب أو بتنازل منه أو غير ذلك فيما لم يذكر تفصيله في الخبر[2].

إن الأمة التي لا تقدر رجالها ولا تحترمهم لايمكن أن يقوم فيها نظام، إن التربية النبوية استطاعت بناء هذه الأمة بناءً سليماً، وما أحرى المسلمين اليوم أن يكون كل إنسان في مكانه وأن يحترم ويقدر، بمقدار مايقدم لهذا الدين، ويبقى الجميع بعد ذلك في الاطار العام الذي وصف الله به المؤمنين: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ واللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٥٤].

وفي قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «هل أنتم تاركون لي أمرائي» وسام آخر يضاف إلى خالد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حيث عُدَّ من أمراء الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهذا من المنهاج النبوي

(١) مسلم، كتاب الجهاد، ص١٣٧٣ رقم ١٧٥٣.
(٢) التاريخ الإسلامي للحميدي، ٧/ ١٣٠.

الكريم في تقدير الرجال[1].

حزن النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه على قتلى مؤتة:

وهكذا دافع النَّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن خالد وأصحابه، وكرَّمهم في أكثر من مناسبة، ولكنَّه مع ذلك قد وَجِدَ على مَن استشهد منهم، فكما رأينا سابقاً كيف وَصَفَ للنَّاس حادث استشهادهم، وعيناه تذرفان بأبي هو وأُمِّي، - صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه وسلَّم[2].

وتُحَدِّثنا أُم المؤمنين، عائشة - رضي الله تعالى عنها - فتقول: "لَمَّا جاء قتل زيد بن حارثة، وجعفر بن أبي طالب، وعبد الله بن رواحة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، جلس رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُعْرَفُ فيه الحُزْن، قالت عائشة: وأنا أطَّلِع من صائر الباب - تعني مِن شِقّ الباب - فأتاه رجل، فقال: إي رسول الله! إنَّ نساء جعفر[3].. وذكر بكاءهُنَّ، فأمره أن ينهاهُنَّ..."[4].

ثُمَّ إنَّ رسولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمر أهله، فقال: «**اصنعوا لأهل جعفر طعاماً فإنَّهم قد جاءهم ما يشغلهم**»[5].

قال عبد الله بن جعفر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: "ثُمَّ أمهل آل جعفر ثلاثاً أن يأتيهم، فقال: لا تبكوا على أخي بعد اليوم، ثُمَّ قال: ائتوني بني أخي، فجيء بنا، كأنَّا أفراخ[6]، فقال: ادعوا إليَّ الحلاَّق، فجيء بالحلاَّق فحلق رؤوسنا، ثُمَّ قال: أمَّا مُحَمَّدٌ فشبيه عمنا أبي طالب، وأمَّا عبد الله فشبيه خَلْقِي وخُلُقي، ثُمَّ أخذ بيدي فأشالها[7]، فقال: اللَّهُمَّ اخلف جعفراً في أهله، وبارك لعبد الله في صفقة يمينه -

---

(١) معين السيرة، ص٣٧٨.

(٢) غزوة مؤتة والسرايا، ص٤٥٢.

(٣) قال ابن حجر (فتح ٧/ ٥١٤): يُحتمل أنه يريد زوجاته، ويحتمل أن يريد من يُنسب إليه من النساء في الجملة. وهذا الثاني هو المعتمد، لأنا لا نعرف لجعفر زوجة غير أسماء بنت عميس.

(٤) أخرجه البخاري (الصحيح ٥/ ٨٧).

(٥) أخرجه أبو داود، (انظر: عون المعبود، حديث: ٣١١٦). والترمذي، (انظر: تحفة الأحوذي، حديث: ١٠٠٣). وابن ماجه، (السنن، حديث: ١٦١٠). والحاكم، (المستدرك ١/ ٥٢٧). والدارقطني، (٢/ ٧٨ - ٧٩). والبيهقي، (السنن ٤/ ٦١). والطبراني، (المعجم ٢/ ١٠٨).

(٦) أفراخ: جمع فرخ، وهو ولد الطائر.

(٧) أشالها: أي رفعها بيده.

قالها ثلاث مرَّات - ثُمَّ جاءت أُمَنا فذكرت يتمنا، وجعلت تُفَرِّح له[1]، فقال: «**العيلة تخافين عليهم وأنا وليُّهم في الدُّنيا والآخرة!**»[2].

وهكذا كان المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عطوفاً رحيماً، رقيق القلب، يواسي أُسَر الشهداء ويدعو لهم ولأبنائهم، ويكفلهم برعايته وحنانه.

فهذا أُسامة بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، يقف أمامه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فيتذكَّر أباه، فتدمع عيناه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شوقاً إليه، وحناناً وعطفاً به[3].

ولا غرابة في ذلك، فهو نبيُّ الرحمة المهداة. فها هو - أيضاً - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، يخفِّفُ عن أصحابه لَمَّا اشتدَّ حزنهم على مَن أُصيب في مؤتة، وبكوا: وهم حوله، فقال: ما يبكيكم؟ فقالوا: وما لنا لا نبكي وقد قُتِلَ خيارنا وأشرافنا وأهل الفضل مِنَّا، قال: لا تبكوا، فإنَّما مثل أُمَّتي مثل حديقة قام عليها صاحبها فاجتثَّ[4] رواكبها، وهيأ مساكنها، وحلق سعفها[5]، فأطعَمَت عاماً فوجاً، ثُمَّ عاماً فوجاً، ثُمَّ عاماً فوجاً، ولعلَّ آخرها طعماً يكون أجودها قنواناً، وأطولها شمراخاً، والذي بعثني بالحق ليجدنَّ ابن مريم في أُمَّتي خلفاً من حواريه".

وفي رواية أخرى: «**ليدركن المسيح من هذه الأُمَّة أقوام إنَّهم لمثلكم أو خير منكم - ثلاث مرَّات - ولن يخزي الله أُمة أنا أولها والمسيح آخرها**»[6].

وهكذا كان وَجْدُ الصَّحابة - رضي الله تعالى عنهم - على مَن أُصيبوا بمؤتة شديداً، وكان مِمَّا بُكِيَ به أهل مؤتة من أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: قول حسَّان بن ثابت[7]:

تَأَوَّبَنِي لَيْلٌ بَيَثْرِبَ أَعْسَرُ ::: وَهَمٌّ إِذا نُوِّمَ الناسُ مُسْهِرُ[8]

---

(١) من أفرحه إذا غمَّه، وأزال عنه الفرح، وكأنَّما أرادت أنَّ أباهم توفي ولا عشيرة له.

(٢) أخرجه النسائي، (السنن الكبرى ٥/ ١٨٠)، وأحمد، (المسند، حديث رقم: ١٧٤٩)، والطبراني، (المعجم ٢/ ١٠٥)، وابن سعد، (الطبقات ٤/ ٣٦ - ٣٧).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة، (المصنَّف١٤/ ٥١٩). وهذا لفظه، وابن سعد، (الطبقات٤/ ٦٣).

(٤) اجتث: اقتلع.

(٥) أي قصَّ سعف نخلها، والسعف من النخل بمثابة الورق من الشجر.

(٦) أخرجه الحكيم الترمذي (نوادر الأصول ص ١٥٧)، ابن أبي شيبة (المصنف ٤/ ٥١٧)، وحسَّن ابن حجر (فتح ٧/ ٦) إسناده، كما أخرجه الحاكم (المستدرك ٣/ ٤٣). وصحَّحه المناوي (فيض القدير٥/ ٣٥٣).

(٧) ابن هشام (سيرة ٤/ ٣٨٣ - ٣٨٤).

(٨) تأوَّبني: أي عاودني ورجع إليَّ. وأعسر: معناه عسير. ومسهر: أي مانع من النوم.

فَصَارَ مَعَ الْمُسْتَشْهِدِينَ ثَوَابه ::: سَفُوحاً وَأَسْبَابُ الْبُكَاءِ التَّذَكُّرُ[1]
فَطَاعَنَ حَتَّى مَالَ غَيْرَ مُوَسَّدٍ ::: وَكَمْ مِنْ كَرِيمٍ يُبْتَلَى ثُمَّ يَصْبِرُ
أَغَرُّ كَضَوْءِ الْبَدْرِ مِن آلِ هَاشِمٍ ::: شَعُوباً وَخلفاً بَعْدَهُم يَتأَخَّرُ[2]
غَدَاة مَضَوْا بِالْمُؤْمِنِينَ يَقُودُهُم ::: بِمُؤْتَةَ مِنْهُم ذُو الْجَنَاحَين جَعْفَرُ[3]
وزَيْدٌ، وعَبدُ اللهِ حِينَ تَتَابَعُوا ::: جَمِيعاً وَأَسْبَابُ الْمَنِيَّةِ تَخْطُرُ
فَلا يُبْعِدَنَّ اللهُ قَتْلَى تَتَابَعُوْا ::: إلى الْمَوْتِ مَيْمُون النَّقِيبَة أَزْهَرُ[4]
رَأَيْتُ خِيَارَ النَّاسِ تَوَارَدُوْا ::: أَبِيٌّ إذَا سِيمَ الظَّلامَةَ مُجْسِرُ[5]
بَلَى! إنَّ فُقْدَانَ الْحَبِيبِ بَلِيَّةٌ ::: بِمُعْتَرَكٍ فِيه الْقَنَا مُتَكَسِّرُ[6]
لِذِكْرَى حَبِيبٍ هَيَّجت لِي عَبْرَةً ::: جِنَانٌ وَمُلْتَفُّ الْحَدَائِقِ أَخْضَرُ[7][8]

الأحكام المستنبطة من هذه الغزوة:

- جواز تعليق الإمارة بشرط:

قال ابن حجر: "وفي الحديث جواز تعليق الإمارة بشرط [9] .

فقد عين الحبيب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زيد بن حارثة أميرا على الجيش ، فإن أصيب زيد فجعفر بن أبي طالب ، فإن أصيب فعبد الله بن أبي رواحة [10] . وقد اتخذ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذه السرية هذا الإجراء احتياطيًا للمرة الأولى ، حيث ولّى عددا من الأمراء بالترتيب ، والراجح أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد توقع أن تحف بالسرية الأخطار بسبب بعد المسافة ، وجهلهم بالمنطقة التي وجهوا إليها ، وعدم حصول تجربة سابقة في الاحتكاك بقوات الإمبراطورية البيزنطية وحلفائها من القبائل العربية في بلاد الشام» .

---

(١) عبرة: أي دمعة . والسفوح: السائلة .
(٢) تواردوا شعوب - بفتح الشين - اسم للمنية ، من قولك: شَعبت الشيء إذا مزّقته . وخلفاً: يعني مَن يأتي بعد .
(٣) أسباب المنية تخطر: يقال خطر في مشيته ، إذا تبختر فيها وتحرّك .
(٤) ميمون النقيبة: أي مسعود ومنجح فيما يطلبه ، وأزهر: أي أبيض .
(٥) أبيٌّ: عزيزٌ . سِيمَ: إذا كلّف . مجسر: كثير الجسارة .
(٦) المعترك: موضع الحرب .
(٧) الحدائق: الجنات ، واحدتها حديقة .
(٨) غزوة مؤتة والسرايا ، ص٤٥٤ .
(٩) فتح الباري ، ٧/ ٥١٣ .
(١٠) الواقدي ، المغازي ٢/ ٧٥٦ ، وابن سعد ، الطبقات ٢/ ١٢٨ .

وقال ابن حجر: "وفيه جواز تولية عدّة أمراء بالترتيب، وقد اختلف: "أتنعقد الولاية الثانية في الحال أم لا؟ والذي يظهر أنها في الحال تنعقد، ولكن بشرط الترتيب". وقيل: "تنعقد للأول فقط، وأما الثاني فبطريق الاختيار". واختيار، الإمام مقدم على غيره لأنه أعرف بالمصلحة العامّة[1]".

وفيه جواز التأمّر في الحرب بغير تأمير. قال البيهقي: "وفيه دلالة على أنّ الناس إذا لم يكن عليهم أمير، ولا خليفة أمير، فقام بإمارتهم مَنْ هو صالح للإمارة، وانقادوا له، انعقدت ولايته[2]".

وذكر البغوي - نقلاً عن الخطّابي: "أنّ خالد بن الوليد تأمّر عليهم بعد ما أصيب الأمراء، من غير تأمير من النبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمكان الضرورة، وذلك أنه نظر فإذا هو في ثغر مخوف لم يأمن فيه ضياع المسلمين، فأخذ الراية، وتولّى أمر المسلمين، ورضيه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فصار هذا أصلاً في كلّ أمر حدث ممّا سبيله أن يتولاّه الأئمّة، ولم يشهدوه، وخيف عليه الضياع، إنّ القيام به واجبٌ على من شهده من جماعة المسلمين، وإن لم يتقدّم منهم في ذلك، وكذلك إن وقع ذلك في واحدٍ خاصٍّ، نحو أن يموت رجلٌ بفلاة، فإنّ على من شهده حفظ ماله وإيصاله إلى أهله، وإن لم يوص به، كما يجب تكفينه وتجهيزه، لأنّ أمر الدّين على التّعاون والتّناصح[3]".

- جواز الاجتهاد في زمن النبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

وفيه جواز الاجتهاد في زمن النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[4]".

فضل خالد بن الوليد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

- وفيه فضيلة ظاهرة لخالد بن الوليد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، حيث سمّاه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، سيف الله، ولم يزل يعرف بهذا الاسم فيما بعد[5]".

حكم عقر جعفر - رضي الله تعالى عنه - لفرسه:

- أمّا عقر جعفر - رضي الله تعالى عنه - لفرسه، فاختلف في حكمه، فقد

---

(١) فتح الباري، ٧/ ٥١٣.
(٢) السنن الكبرى، ٨/ ١٥٤.
(٣) شرح السنة ١١/ ٥، وفتح الباري ٧/ ٥١٣.
(٤) فتح الباري ٧/ ٥١٣.
(٥) انظر: العامري، بهجة المحافل ١/ ٣٩٣، ابن حجر، فتح ٧/ ٥١٣.

علّق أبو داود على حديث عقر جعفر - رضي الله تعالى عنه - لفرسه في المعركة بقوله: "ليس هذا الحديث بالقوي[1]، وقد جاء نهي كثير من أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن تعذيب البهائم وقتلها عبثاً[2]".

قال السّهيلي: "وأمّا عقر جعفر فرسه، ولم يعب ذلك عليه أحد، فدلّ على جواز ذلك إذا خيف أن يأخذها العدو، فيقاتل عليها المسلمين، فلم يدخل هذا في باب النهي عن تعذيب البهائم وقتلها[3]".

وقال ابن قدامة: "ويقوى عندي أنّ ما عجز المسلمون عن سياقه وأخذه، إن كان مِمَّا يستعين به الكفّار في القتال، كالخيل، جاز عقره وإتلافه، لأنّه مِمَّا يحرم إيصاله إلى الكفّار بالبيع، فتركه لهم بغير عِوَض أولى بالتحريم، وإن كان مِمَّا يصلح للأكل فللمسلمين ذبحه والأكل منه مع الحاجة وعدمها، وما عدا هذين القسمين لا يجوز إتلافه؛ لأنّه مجرّد إفساد وإتلاف، وقد نهى النبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن ذبح الحيوان لغير مأكله[4]".

الحكم باستشهاد القادة الثلاثة - رضي الله تعالى عنهم:

وفي الحديث: "الحكم باستشهاد القادة الثلاثة - رضي الله تعالى عنهم، فهم مِمَّن يقطع لهم بالجنّة، وذلك بشهادة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لهم، وذكر ذلك ابن كثير[5]".

وفي حديث الجناحين اللذين أثابهما الله عز وجل جعفراً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عنه بدلاً من يديه اللتين قُطِعَتا، اختلف في معنى الجناحين، أهما على الحقيقة أم لا؟". قال ابن حجر: "روى النسفي عن البخاري أنه يقال لكلّ ذي ناحيتين جناحان، وأنّه أشار إلى أنّ الجناحين في هذه القصّة ليسا على ظاهرهما[6]".

وقال السهيلي: "ومِمَّا ينبغي الوقوف عليه في معنى الجناحين أنّهما ليسا كما يسبق إلى الوهم على مثل جناحي الطّائر وريشه، لأنّ الصورة الآدمية أشرف الصور وأكملها، وفي قوله - عَلَيْهِ السَّلَامُ: «إنّ الله خلق آدم على صورته»، تشريف

(١) أخرجه أبو داود (السنن ٣/ ٦٢ - ٦٣)، وذكره ابن هشام، السيرة ٤/ ٣٧٨.
(٢) السّنن، ٣/ ٦٢ - ٦٣.
(٣) الروض الأنف، ٧/ ٣٦ - ٣٧.
(٤) المغني، ١٣/ ١٤٦.
(٥) البداية والنهاية، ٤/ ٢٥٥.
(٦) فتح الباري، ٧/ ٥١٥.

لـه عظيم ، وحاشا للّه من التّشبيه والتّمثيل ، ولكنها عبارة عن صفة ملكية ، وقوة روحانية ، أعطيها جعفر كما أعطيتها الملائكة ، وقد قال الله تعالى لموسى: ﴿اضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جِنَاحِكَ﴾ [طه: ٢] . فعبّر عن العضد بالجناح توسعاً ، وليس ثَمَّ طيران ، فكيف بمن أعطي القوة على الطيران مع الملائكة أخليق إذاً أن يوصف بالجناح مع كمال الصّورة الآدمية ، وتمام الجوارح البشريّة ، وقد قال أهل العلم في أجنحة الملائكة: "ليست كما يتوهم من أجنحة الطير ، ولكنّها صفات ملكية لا تفهم إلاّ بالمعاينة ، واحتجوا بقوله تعالى: ﴿أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ [فاطر: ١] . فكيف تكون كأجنحة الطير على هذا ، ولم ير طائر له ثلاثة أجنحة ولا أربعة ، فكيف بستمائة جناح كما في صفة جبريل - عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فدلّ على أنّها صفات لا تنضبط كيفيتها للفكر ، ولا ورد - أيضاً - في بيانها خبر ، فيجب علينا الإيمان بها ، ولا يفيدنا علماً إعمال الفكر في كيفيتها ، وكلّ امرئ قريب من معاينة ذلك[1]".

السَّلَبَ قليلا كان أو كثيرا للقاتل لا يُخَمَّس:

- وفي حديث المدديّ ، وقصّته مع خالد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، من الفقه ، كما ذكر الخطابي: "أنَّ الفَرَس مِن السَّلَب ، وأنّ السَّلَبَ قليلاً كان أو كثيراً ؛ فإنّه للقاتل لا يُخَمَّس ، ألا ترى أنّه أمر خالداً بردّه عليه مع استكثاره إيّاه ، وإنّما كان ردّه إلى خالد بعد الأمر الأوّل بإعطائه القاتل نوعاً من النكير على عوف ، وردعاً له وزجراً لئلاً يتجرأ الناس على الأئمة ، ولئلاً يتسرعوا إلى الوقيعة فيهم ، وكان خالد مجتهداً في صنيعه ذلك ، إذ كان قد استكثر السَّلَبَ ، فأمضى له رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اجتهاده لِمَا رأى في ذلك من المصلحة العامّة بعد أن كان خطَّأه في الرأي الأوّل ، والأمر الخاصّ مغمور بالعامّ ، واليسير من الضرر محتمل للكثير من النفع والصلاح ، ويشبه أن يكون النبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد عوَّض المَدَدِيَّ من الخُمُس الذي هو له ، وترضّى خالداً بالصَّفح عنه ، وتسليم الحكم له في السَّلَب[2]".

ونلاحظ أن خالدا لما أخطأ في اجتهاده بمنع القاتل من السلب الكثير أمر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بوضع الأمر في نصابه بإعادة الحق إلى صاحبه ولكنه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ غضب لما سمع عوفا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يعرّض بخالد ويتهكم عليه بقوله: هل أنجزت لك ما ذكرت لك من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وكان عوف قد جرّ

(١) الروض الأنف ، ٧/ ٣٨ - ٣٩ .

(٢) الخطابي ، شرح سنن أبي داود ، حاشية ، ٣/ ١٦٤ ، وانظر ، البغوي ، شرح السنة ، ٣/ ١١ .

برداء خالد لمّا مرّ بجانبه فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا تُعطه يا خالد**» وهذا من باب ردّ الاعتبار إلى الأمير والقائد لأن في حفظ مكانته بين الناس مصلحة ظاهرة.

جواز الإعلام بموت الميت:

- ويستفاد من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "أنّ النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نعى زيداً، وجعفراً، وابن رواحة، قبل أن يأتيهم الخبر"... الحديث. جواز الإعلام بموت الميت، ولا يكون ذلك من النعي المنهي عنه، قال ابن المرابط: "النعي الذي هو إعلام الناس بموت قريبهم مباح، وإن كان فيه إدخال الكرب والمصائب على أهله، لكن في تلك المفسدة مصالح جمّة لما يترتّب على معرفة ذلك من المبادرة لشهود جنازته، وتهيئة أمره، والصلاة عليه، والدّعاء له، والاستغفار، وتنفيذ وصاياه وما يترتّب على ذلك من الأحكام".

وأمّا نعي الجاهليّة: "فقال سعيد بن منصور: "أخبرنا ابن علية، عن ابن عون قال: "قلت لإبراهيم: "أكانوا يكرهون النعي؟ قال نعم".

قال ابن عون: "كانوا إذا توفي الرجل ركب رجل دابة، ثُمَّ صاح في النّاس: "أنعى فلاناً"، وبه إلى ابن عون قال: قال ابن سيرين: "لا أعلم بأساً أن يؤذن الرجل صديقه وحميمه".

وحاصله أنّ محض الإعلام بذلك لا يكره، فإن زاد على ذلك فلا، وقد كان بعض السلف يُشَدِّد في ذلك حتى: "كان حذيفة إذا مات له الميّت يقول: "لا تؤذنوا به أحداً، إنّي أخاف أن يكون نعياً، إني سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأُذُنَيَّ هاتين ينهى عن النعي". أخرجه الترمذي، وابن ماجه بإسنادٍ حسنٍ".

قال ابن العربي: "يؤخذ من مجموع الأحاديث ثلاث حالات:

الأولى: إعلام الأهل والأصحاب وأهل الصلاح، فهذا سُنة.

الثانية: دعوة الحفل للمفاخرة، فهذه تكره.

الثالثة: الإعلام بنوعٍ آخر كالنياحة ونحو ذلك فهذا يَحْرُم[1].

معجزة إعلام النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ باستشهاد القادة:

- وفي إخبار النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ النّاس بمصاب أهل مؤتة، علم ظاهر من

(١) ابن حجر، فتح الباري ٣/ ١١٦ - ١١٧، ٧/ ٥١٣، غزوة مؤتة والسرايا، ص ٤٥٦.

أعلام النُّبوّة[1]".

مشروعية الحزن على فقد عزيز وإقامة العزاء:

- وفي حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا الذي ذكرت فيه ظهور الحزن على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حينما عرف بمصاب أصحابه في مؤتة من الفوائد:

بيان ما هو الأولى بالمصاب من الهيئات، ومشروعية الانتصاب للعزاء على هيئته، وملازمة الوقار والتثبُّت".

ويؤخذ منه - أيضاً: "أنّ ظهور الحزن على المصاب إذا أصيب بمصيبة لا يخرجه عن كونه صابراً راضياً إذا كان قلبه مطمئناً، بل قد يُقال: "إنّ مَن كان ينْزعج بالمصيبة ويعالج نفسه على الرضا والصبر أرفع مرتبة مِمَّن لا يبالي بوقوع المصيبة أصلاً، أشار إلى ذلك الطبري[2]".

مشروعية صنع الطعام لأهل الميت:

وفي حديث أمر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بصنع طعام لآل جعفر، فيه ندب تهيئة طعام لأهل الميّت، والإلحاح عليهم في أكله لئلا يضعفوا بتركه[3]".

قال السهيلي: "وهذا أصل في طعام التعزية، وتسميه العرب الوضيعة"[4]".

قال ابن إسحاق: "سمعت عبد الله بن أبي بكر يقول: "لقد أدركت الناس بالمدينة إذا مات لهم ميّت، تكلّف جيرانهم يومهم ذلك طعامهم، فلكأني أنظر إليهم قد خبزوا خبزاً صغاراً، وصنعوا لحماً، فجُعِل في جفنة، ثُمّ يأتون به أهل الميّت، وهم يبكون على ميِّتهم، مشتغلين، فيأكلونه لقول رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأهله حين أُصيب جعفر: «**لا تغفلوهم أن تصنعوا لهم طعاماً يومهم هذا، ثُمَّ إنّ الناس تركوا ذلك**»[5].

إظهار الحزن ثلاثا:

- وفي حديث عبد الله بن جعفر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وقوله: "ثُمَّ أمهل آل جعفر ثلاثاً أن يأتيهم، ثُمّ أتاهم فقال: «**لا تبكوا على أخي بعد اليوم**».

---

(١) فتح الباري، ٧/ ٥١٣.
(٢) فتح الباري، ٧/ ٥١٤ - ٥١٥.
(٣) العامري، بهجة، ١ / ٣٩٠ - ٣٩١.
(٤) الروض، ٧/ ٤٢.
(٥) البيهقي، دلائل ٤/ ٣٧٠.

قال ابن كثير: "وهذا يقتضي أنه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أرخص لهم في البكاء ثلاثة أيام، ثُمَّ نهاهم عنه بعدها[1]".

- جواز بكاء المرأة على زوجها المتوفي:

أخذ هذا من فعل أسماء بنت عميس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا حينما نعى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زوجها ومن معه، فبكت وصاحت، فلم ينكر عليها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولم ينهها عن ذلك، ولو كان ممنوعاً لنهاها عن ذلك، والبكاء الذي نهى عنه الإسلام هو ماكان سائداً عند أهل الجاهلية من النواح واللطم وشق الجيوب، والتبرم بقضاء الله وقدره، وما إلى ذلك مما يكون سبباً في معصية الخالق سبحانه.

- زواج أبي بكر الصديق من أسماء بنت عميس:

وبعد أن انقضت عدة أسماء بنت عميس خطبها أبوبكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فتزوجها وولدت له محمد بن أبي بكر وبعدما توفي الصديق تزوجها بعده علي بن أبي طالب وولدت له أولاداً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وعنها وعنهم أجمعين[2].

وقد ذكر ابن كثير أن أسماء بنت عميس رثت زوجها جعفر بن أبي طالب بقصيدة تقول فيها:

فالـيت لا تـنفك نفـسي حـزينة ::: عليك ولا ينفكُّ جلدي أغبرا
فللـه عينا من رأى مثله فتى ::: أكر وأحمر في الهياج وأصبرا[3]

مشروعية الرثاء:

- أمّا بالنسبة للمراثي[4] التي قيلت في أهل مؤتة، فيؤخذ منه جواز رثاء الميّت، وقد رثت فاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أباها صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ورثاه غيرها، وفعله كثيرٌ من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وغيرهم من العلماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ، وما ورد من النهي عنها محمول على ما يظهر فيه تبرم أو على فعله مع الاجتماع له، أو على الإكثار، أو على ما يجدد الحزن[5]".

---

(١) البداية والنهاية، ٤/ ٢٥٢. وكانت الرخصة في البكاء العادي، وليس النياحة المنهي عنها ابتداءً.
(٢) البداية والنهاية (٤/ ٣٥٣).
(٣) البداية والنهاية (٤/ ٣٥٣).
(٤) جمع مرثية، وهي عدّ محاسن الميّت نظماً ونثراً.
(٥) العامري: "بجهة المحافل، ١/ ٣٩٥.

ومما يدلّ على جوازه أيضاً هو فعل الصحابة له في حياة النبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حيث رثى الشعراء من الصحابة أمثال حسّان بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وغيره شهداء بدر، وأُحُدٍ، وغيرهما من الغزوات والسرايا دون اعتراض من النبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مِمَّا يعدّ تقريراً لذلك". والله تعالى أعلم"[1].

الدروس المستفادة:

لقد خرج المسلمون من هذه الغزوة بدروس وعبر جمها، علي الأمة أن تضعها في اعتبارها في شتى شئونها من هذه الدروس:

أهمية معركة مؤته:

تعتبر هذه المعركة من أهم المعارك التي وقعت بين المسلمين وبين النصارى الصليبيين من عرب وعجم، لأنها أول صدام مسلح ذي بال بين الفريقين، وأثرت تلك المعركة على مستقبل الدولة الرومانية، فقد كانت مقدمة لفتح بلاد الشام وتحريرها من الرومان ونستطيع أن نقول أن تلك الغزوة هي خطوة عملية قام بها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للقضاء على دولة الروم المتجبرة في بلاد الشام، فقد هز هيبتها من قلوب العرب وأعطت فكرة عن الروح المعنوية العالية عند المسلمين، كما أظهرت ضعف الروح المعنوية في القتال عند الجندي الصليبي النصراني، وأعطت فرصة للمسلمين للتعرف على حقيقة قوات الروم، ومعرفة أساليبهم في القتال[2].

- أخلاق الحرب في الإسلام [الوصايا التي زود بها الحبيب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جيش مؤتة]:

فلقد كانت التوصيات التي تزوّد بها جيش مؤتة من القائد الأعلى للقوات الإسلامية صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تُعَدُّ من أعظم وأرقى قوانين حرب الفروسية المشرفة على مدى التاريخ الإنساني قاطبةً، فلَمْ ولن تعرف أُمّة من الأُمَم السابقة واللاحقة مثل تلك الآداب الحربية التي كان المسلمون يطبّقونها في حروبهم ضدّ أعدائهم، والتي تُعدّ بحقّ وثيقة فعلية تطبيقية لحقوق الإنسان على أرض الواقع، لا على واقع الحبر والورق، وأرفف المنظمات والهيئات، لقد كان الجندي المسلم يسير بانضباطٍ عجيبٍ، مطَبِّقاً الأوامر والتعليمات الصادرة إليه من رؤسائه

(١) غزوة مؤتة والسرايا، ص٤٥٨.
(٢) الصراع مع الصليبيين، ص٦٤.

بصورةٍ تلقائية عفوية، لأنّه يعتبر ذلك جزءٌ حيويٌّ من دينه الذي يسعى ويحرص كُلَّ الحرص على تقديم الصورة الصحيحة عنه".

وهكذا كان كُلّ جندي من جنود الإسلام الأوائل عبارة عن قدوة صالحة تمثّل الإسلام أصدق تمثيل في كلّ مكانٍ حلّ به.

"لقد أدهشت النتائج السريعة الإيجابية لحركة الفتوح الإسلامية جميع المحلّلين على اختلاف مشاربهم وديانـاتهم، ولكن المُحلِّل المُنْصِف ستزول دهشته حتماً عندما يقرأ تلك التعاليم والوصايا النبوية لقوّاد وجنود السرايا والبعوث، والتي هي نواة حركة الفتوح الإسلامية، وأصبح الذين شاركوا بالأمس في السرايا والبعوث مشاركين اليوم على رأس تلك الجيوش الفاتحة، مقتدين نفس النهج، سائرين على نفس الطريق الذي رسمه لهم قائد الأمة المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حتى تلك الأوامر والتعاليم النبوية صارت تتكرّر على ألسنة الخلفاء، وقادة جيوش الفتح فيما بعد"[1].

"لقد كان تطبيق صحابة محمّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذا الدستور الحربي من أعظم الأسباب التي حبَّبت الإسلام إلى نفوس غير المسلمين، فدخلوا فيه طائعين مختارين مستبشرين، لأنّهم رأوا حقيقة الإسلام متمثلة في سلوك أولئك الأصحاب الكرام الذين ربّاهم القرآن، وأدّبهم الرسول الكريم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[2]".

- إكرام النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لآل جعفر:

لما أصيب جعفر دخل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على أسماء بنت عميس فقال: «**ائتني ببني جعفر**»، فأتت بهم فشمهم وقبلهم وذرفت عيناه، فقالت أسماء: أبلغك عن جعفر وأصحابه شيء؟ قال: نعم، أصيبوا هذا اليوم، فجعلت تصيح وتولول فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لا تغفلوا عن آل جعفر أن تصنعوا لهم طعاماً، فإنهم قد شُغلوا بأمر صاحبهم[3]، ونلحظ في هذا الخبر عدة أمور منها:

- حب الشهاد باعث للتضحية:

إن الصبر والثبات والتضحية التي تجلت في كل واحد من الأمراء الثلاثة وسائر الجند كان مبعثها الحرص على ثواب المجاهدين والرغبة في نيل الشهادة لكي

(١) بريك أبو مايلة، السرايا والبعوث حول المدينة ومكّة، ص ٥٣.
(٢) باشميل، غزوة مؤتة ٢٦٤.
(٣) السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ٢٨).

يكرمهم الله برفقة النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ويدخلون جنات الله الواسعة التي فيها مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

وتقدُّم المسلمين لملاقاة عدوّهم المتفوّق عليهم في العدد والعتاد، لأمرٌ يُثير الدهشة فعلاً، وهو إن دلّ على شيء فإنما يدل على ما كان يتمتّع به أولئك القوم من إيمان عظيم وقوي، ذلك الإيمان الذي جعلهم يستصغرون معه عدوّهم، وتنقلب معه موازين المعركة، فأصبح وقوداً أشعل نار الشجاعة والإقدام في نفوسهم، وأوقد الحماس في قلوبهم، وأيقظ كوامن قواهم البشرية المكنونة".

نعم! لقد كان الإيمان المتّقِد في جوانح أولئك القوم يجعلهم أُناساً آخرين، فتراهم يطيرون في ساحات الوغى إلى الموت طيراناً، وينقضّون على أعدائهم، وكأنهم عقبان تُلاحِق فرائسها، كيف لا!؟ وهم يتحسّسون الجنّة ونعيمها، وكأنهم يرونها أمامهم رأي العين، فيندفعون إليها جارفين أمامهم سدود الأعداء، جاعلين منها طُرُقاً مُمَهَّدة للدخول إليها".

لقد تمثّلت هذه الحقيقة واضحة العيان في قتال القادة الثلاثة واندفاعهم بالمسلمين صوب أعدائهم في العمق، حتى أصبحت قصص استشهادهم صوراً رائعة للبطولة، يمكن أن يؤلّف في كلّ واحدةٍ منها كتابٌ مستقلّ".

إنّهم فعلاً لا يقاتلون الناس بعددٍ ولا عدّة، كما ذكر عبد الله بن رواحة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ القائد الثالث، وإنما يقاتلون بتأييد الله عز وجل لهم، ووعده إيّاهم بالنصر والتمكين، وسواء قُتِلُوا أم غَلَبُوا، فهم في كِلا الحالين فائزون برِضَى الله عز وجل عنهم، وموعودون بالأجر العظيم يوم القيامة، قال تعالى: ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً﴾ [النساء: ٧٤] (١).

من فقه القيادة:

إنه درس عظيم يقدمه لنا الصحابي الجليل ثابت بن أقرم العجلاني، عندما أخذ اللواء بعد استشهاد عبدالله بن رواحة آخر الأمراء، وذلك أداء منه للواجب، لأن وقوع الراية معناه هزيمة الجيش، ثم نادى المسلمين أن يختاروا لهم قائداً. وفي زحمة الأحداث قالوا أنت، قال: ماأنا بفاعل... فاصطلح الناس على خالد.

(١) غزوة مؤتة والسرايا، ص٤٥٩.

وفي رواية أن ثابتاً مشى باللواء إلى خالد فقال خالد: لا آخذه منك، أنت أحق به فقال: والله ماأخذته إلا لك.

إن مضمون كلا الروايتين واحد، أن ثابتاً جمع المسلمين أولاً وأعطى القوس باريها فأعطى الراية أبا سليمان خالد بن الوليد[1]، ولم يقبل قول المسلمين: أنت أميرنا. ذلك أنه يرى فيهم من هو أكفأ منه لهذا العمل، وحينما يتولى العمل من ليس له بأهل، فإن الفساد متوقع، والعمل حينما يكون لله تعالى، لا يكون فيه أثر لحب الشهرة، أو حظ النفس.

إن ثابتاً لم يكن عاجزاً عن قيادة المسلمين - وهو ممن حضر بدراً - ولكنه رأى من الظلم أن يتولى عملاً وفي المسلمين من هو أجدر به منه، حتى ولو لم يمض على اسلامه أكثر من ثلاثة أشهر؛ لأن الغاية هي السعي لتنفيذ أوامر الله على الوجه الأحسن والطريقة الأمثل[2].

إن كثيراً ممن يتزعمون قيادة الدعوة الإسلامية اليوم يضعون العراقيل أمام الطاقات الجديدة، والقدرات الفذة خوفاً على مكانتهم القيادية، وامتيازاتهم الشخصية، وأطماعهم الدنيوية، فعلى اولئك القادة أن يتعظوا من هذا الدرس البليغ لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد[3].

- تموين الجيش الإسلامي، وتسليحه:

وضّحت رواية عوف بن مالك الأشجعي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنّ تموين جيش المسلمين كان يعتمد أحياناً على تبرعات الموسرين من المشاركين فيه، وتلك عادة حسنة للعرب في جاهليتهم[4]، زادها الإسلام قوّة وتماسكاً حيث كان الصحابة - رضي الله تعالى عنهم - يتسابقون في الإنفاق في سبيل الله تعالى باعتبار أنه جهاد في سبيل الله بالإضافة إلى مجاهدتهم بأنفسهم، وذلك طاعة لله تبارك وتعالى ولرسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وطلباً للأجر والمثوبة العظيمة من الباري عز وجل.

كما وضحّت الرواية كذلك مدى بساطة تسليح المسلمين بالمقارنة مع ما كان عليه الروم وحلفاؤهم من البهرجة والغطرسة والغرور، وتوضح أيضاً مدى

(١) التاريخ الإسلامي للحميدي (٧/ ١٢٤).
(٢) من معين السيرة للشامي، ص٣٧٦.
(٣) السيرة النبوية - دروس وعبر في تربية الأمة وبناء الدولة، ٢/ ٤٩٦.
(٤) ابن كثير، البداية والنهاية، ٣/ ٢٥٩.

بسالة جند الإسلام الأوائل، ومحاولتهم التواؤم مع الظروف، وعدم التسليم للنقص الواضح في عدّتهم وعتادهم، ولكن حسب إمكاناتهم، كما فعل ذلك المَدَدِيّ بصنعه درقة له من جلد الجزور".

يقول أبوأمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "لقد فتح الفتوح قوم ما كانت حلية سيوفهم الذهب والفضّة، وإنما كانت حلية سيوفهم العُلابي[1]، والآنك[2] والحديد[3]".

مقاييس الإيمان وأثرها في المعارك:

لما توقف الجيش الإسلامي في معان يناقش كثرة جيش العدو وكانت المقاييس المادية لا تشجعهم على خوض المعركة ومع ذلك تابعوا طريقهم ودخلوا بمقاييس إيمانية، فهم خرجوا يطلبون الشهادة فلماذا إذن يفرون مما خرجوا لطلبه.

قال زيد بن أرقم: كنت يتيماً لعبدالله بن رواحة في حجره، فخرج بي في سفره ذلك مُرْدِفي على حقيبة رحله، فوالله إنه ليسير ليلة إذ سمعته ينشد أبياتاً منها:

وجاء المسلمون وغادروني ::: بأرض الشام مُشتهى الثّواء

فلما سمعتها منه بكيت. قال: فخفقني بالدرة وقال: وما عليك يالُكَعْ أن يرزقني الله الشهاد وترجع بين شعبتي الرَّحل[4].

إن المتأمل بعمق في غزوة مؤتة يساعدنا في معالجة الهزيمة النفسية والروحية التي تمر بها الأمة وإقامة الحجة على القائلين بأن سبب هزيمتنا التفوق التكنولوجي لدى الأعداء لقد سجل ابن كثير رأيه في هذه المعركة وقال: (. . . هذا عظيم جداً أن يقاتل جيشان متعاديان في الدين؛ أحدهما وهو الفئة التي تقاتل في سبيل الله - عدتها ثلاثة آلاف، وأخرى كافرة وعدتها مائتا ألف مقاتل، من الروم مائة ألف، ومن نصارى العرب مائة ألف، يتبارزون ويتصاولون ثم مع هذا كله لايُقتل من المسلمين إلا اثنا عشر رجلاً، وقد قتل من المشركين خلق كثير، هذا خالد وحده يقول: لقد اندقّت في يدي يوم مؤتة تسعة أسياف، فما بقي في يدي إلا صفيحة يمانية، فماذا ترى قد قتل بهذه الأسياف كلها، دع غيره من الأبطال والشجعان

(١) العلابي: "الجلود الخام غير المدبوغة. وقيل: "العصب تؤخذ رطبة فيشد بها جفون السيف وتلوى عليها فتجف.

(٢) الآنك: "الرصاص.

(٣) أخرجه البخاري، انظر: "فتح الباري ٦/ ٩٥.

(٤) السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ٢٤، ٢٥).

من حملة القرآن، وقد تحكموا في عبدة الصلبان عليهم لعائن الرحمن في ذلك الزمان وفي كل أوان . . .) [1].

- التقدير والإكرام والإعجاب الذي حظي به جيش مؤتة من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

لقد كان التقدير والإعجاب والإكرام الذي حظي به أهل مؤتة من القائد الأعلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من العوامل التي جعلت جيش المسلمين من أنجح جيوش العالم في ذلك الوقت، وأعظمها وأرفعها معنوية".

فحين يُقَدِّرُ القائد الجهدَ المبذول، ويعطيه حقّه من التقدير والإعجاب، بل ويُصَحِّح ردود الفعل الخاطئة التي كانت لدى بعضهم تجاه الجيش، لا شكّ أن ذلك يعطي أفراده الراحة النفسية التامّة، بل ويدفعهم إلى مزيدٍ من البذل، ومزيدٍ من العطاء بلا حدود، ومواصلة المشوار بلا تردد".

لقد كان المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وسيظل للأبد، من أنجح القادة العالميّين على الإطلاق، وستظل مكافآته المعنوية سنية عظيمة، والتي كانت عبارة عن أوسمة رفيعة المستوى والشأن، على صدور حامليها غير مسبوقة، ولا ملحوقة بإذن الله تبارك وتعالى إلى أن يرث الله الأرض ومَن عليها".

وفي حديث عوف بن مالك الأشجعي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "نلاحظ تأكيد الشارع صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على مراعاة حُرمة الأمير، والقائد، والإمام ومكانته بين الناس وترك التطاول عليه، وأنّ ذلك مِمَّا يفسد القلوب، ويؤدي بالتالي إلى التنازع المؤدّي للفشل، وفيه من الحض والتأكيد على السمع والطاعة لولاة الأمر مهما كانوا ومهما فعلوا ما لم يأمروا بمعصية".

وأنهم يستحقون هذا الأمر لكونهم يكابدون مشقّة التّصدّي للأمور الخاصّة بالرّعية من السهر على راحتهم، والدفاع عنهم، يقول النووي: "ومعنى الحديث، أنّ الرعية يأخذون صفو الأمور، فتصلهم أعطياتهم بغير نكد، وتبتلى الولاة بمقاساة الأمور، وجمع الأموال على وجوهها، وصرفها في وجوهها، وحفظ الرعية، والشفقة عليهم، والذّبّ عنهم، وإنصاف بعضهم من بعض، ثُمَّ متى وقع علقة أو عتب في بعض ذلك توجَّه على الأمراء دون الناس[2].

---

(١) البداية والنهاية، ٤/ ٢٥٩.

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي، ١٢/ ٦٥.

لقد كان المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دائماً وأبداً حريصاً على أمّته، رؤوفاً بهم، وفي تحذيره إياهم من منازعة أهل الأمر ومخالفتهم، فيه من المصلحة العامّة للأمّة ما لا يخفى إلاّ على المكابر المعاند، أو الجاهل المغرور، لأنّ ذلك مِمَّا يوقع الفتن المهلكة التي تهلك الحرث والنسل، وتكون وبالاً على الأمّة، تُدَمِّر اقتصادها، وتعصف بمجتمعاته الآمنة، ويذهب ضحيتها الأبرياء"[1].

- مواساته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأسر الشهداء:

كانت مواساة النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأسر شهداء مؤتة، ورعايته وعطفه على أبنائهم، لفتةٌ أبويّةٌ حانية عطوفة من أبٍ رحيم عطوفٍ مشفق، لا يألُ جهداً في التخفيف عن معاناة أولئك وغيرهم من أفراد المجتمع الإسلامي بأسره".

كيف لا! وهو الذي كان يفيض حناناً، وشفقةً، ورحمةً". كيف لا! وهو الذي كانت حياته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأبي هو وأُمّي تكريساً لهذه الحقيقة".

ألم يصفه الباري عز وجل بذلك في القرآن بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]. وكفى بالقرآن دليلاً وشاهداً[2]".

الفوائد التي اكتسبها المسلمون من نتائج غزوة مؤتة:

لقد "كانت معركة مؤتة استطلاعية أفادت المسلمين كثيراً في معرفة خواص قوّات الروم، وأساليب قتالها، وخواص حلفائها من القبائل، وأساليب قتالهم وقوّتهم، فأفادوا من هذه المعلومات في قتالهم بعد ذلك ضدّ الروم، ولا تعدّ خسائر المسلمين الطفيفة شيئاً يُذْكَر بجانب الفائدة العسكرية التي أفادت من الاطلاع على خواص قوات الروم وحلفائها، وتنظيمهما، وتسليحها، وأساليب قتالها، مِمَّا سترى أثره في المعارك التي خاضها المسلمون فيما بعد[3]".

"وإذا كانت الأمور بنتائجها، والأعمال بخواتيمها، فقد كفى المسلمين ظهوراً على عدوّهم، أنهم تركوا في نفوسهم أثراً من الرهبة، جعلهم يحجمون عن قتالهم، وينكلون عن متابعتهم"[4].

---

(١) غزوة مؤتة والسرايا، ص٤٥٩.
(٢) غزوة مؤتة والسرايا، ص٤٥٩.
(٣) خطاب، الرسول القائد ٣٠٩.
(٤) الدويدار، "صور ٥٢٧.

"ومهما تكن الخاتمة التي لقيتها غزوة مؤتة فإن نتائجها وآثارها كانت بعيدة المدى، فبينما رأى الروم تلك الغزوة غارة من الغارات التي اعتاد البدو شنّها بين حين وآخر، كانت سرية زيد بن حارثة إلى مؤتة في الحقيقة غزوة من نوع آخر، لم تقدر إمبراطورية الروم أهميتها، فهي حرب منظّمة كانت لها مهمّة جديدة خاصّة، جعلت المسلمين يتطلّعون جدّياً إلى فتح أرض الشام[1].

وحقيقةً - كما ذكر ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى، قد كانت مؤتة إرهاصاً لما بعدها من غزو الروم، وإرهاباً لأعداء الله ورسوله[2].

سرية ذات السلاسل:

بعد عودة سرية مؤتة إلى المدينة في جمادى الآخرة سنة ثمان للهجرة[3] بلغ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أن قضاعة التي اشتركت في القتال إلى جانب الروم في مؤتة بدأت تتجمع مرة أخرى، وتريد الاقتراب من المدينة لتهديدها، كما كانت هذه السرية لتأديب الأعراب في تلك الناحية، والأخذ بثأر المسلمين من القبائل التي اشتركت في غزوة مؤتة ضدّهم[4]، كما ذكر بعضهم أنّه بناءً على نتيجة غزوة مؤتة، كان لزاماً على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يستردّ هيبة المسلمين، ويُعِيد إليهم كرامتهم في تلك البلاد[5].

وسواء قَصَدَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تأديب الأعراب، وصدّ عدوانهم على أطراف الدولة الإسلامية عندما بلغته أخبار حشودهم وتحرُّكاتهم، فتحرّك بسرعة لضربهم قبل استكمال استعداداتهم القتالية، كما هي عادته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دائماً مع أعدائه، أم أراد الثأر من القبائل العربية المنتصرة الحليفة للرومان، والتي شاركت إلى جانبهم في مؤتة، أو غير ذلك من الأسباب التي ذُكِرَت قديماً وحديثاً، فإنّ السبب الحقيقي وراء ذلك كلّه هو إعلاء كلمة الله عز وجل في تلك البقاع،

---

(١) عبد العزيز زائد، دروس من السيرة النبوية ١٠٥ - ١٠٦.

(٢) ابن كثير، الفصول في سيرة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ١٩٥. غزوة مؤتة والسرايا، ص٤٦٠.

(٣) الطبري، تاريخ ٣/ ٣١، ابن سيد الناس، عيون ٢/ ٢٠٤، ابن القيم، زاد ٢/ ١٥٧، والقسطلاني، المواهب ١/ ٥٥٤.

(٤) ابن سيد الناس (عيون ٢/ ٢٠٤)، (البيهقي، دلائل ٤/ ٣٩٩ - ٤٠٠) الغزالي، فقه السيرة ٣٧٠، والدكتور سيد طنطاوي، السرايا الحربية، ص ١٣٦، اللواء خطاب، الرسول القائد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ص ٣٠٩.

(٥) الشريف: مكّة والمدينة ٥٣٧، وهيكل: حياة محمّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ص ٤١٥.

ونشر الدعوة الإسلامية، بعد إزاحة القوى السياسية والعسكرية التي كانت تقف حجر عثرة في وجه نشر الإسلام في المنطقة.

والقبائل العربية المتنصرة والحليفة للدولة البيزنطية كانت من تلك القوى، وكانت تقوم بتحرّكات مشبوهة ونشاطات معادية للمسلمين في المنطقة الشمالية من الجزيرة على أطراف الدولة الإسلامية، وبخاصّة بعد مؤتة، فكان لا بُدَّ من ردعها وإخضاعها لسيطرة المسلمين، لأنّ المسلمين - أيضاً - كانوا في وضع استعدادي متناسق ومتدرِّج لمنازلة الدولة البيزنطية، إحدى القوّتين العظميين في ذلك الوقت، لوضع حدٍ لسلطانهم، والقضاء على قوّتهم العسكرية والسياسية المناهضة لنشر الإسلام في المنطقة [1].

فعلى الفور جهز النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سرية من ثلاثمائة من المهاجرين والأنصار عهد بأمرها إلى عمرو بن العاص بهدف أن يقضي على خطر قضاعة في مهده [2].

فقد بَعَثَ رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. "فقال: خُذ عليك ثيابك وسلاحك ثُمَّ ائتني". قال عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "فأتيته وهو يتوضّأ، فصعّد فيَ النظر، ثُمَّ طأطأ، فقال: إنّي أُريد أن أبعثك في جيش فيُسَلِّمك الله ويُغَنِّمك، وأرغب لك من المال رغبة صالحة، قال: قلت: يا رسول الله! ما أسلمت من أجل المال. ولكني أسلمت رغبة في الإسلام، وأن أكون مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فقال: «**يا عمرو! نِعْمَ المال الصّالح للمرء الصالح**» [3].

وفي المسجد النبوي الشريف، كما هو المعتاد في مثل هذه الحالة، تَتِمُّ مراسم تولية عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رسمياً قائداً على الجيش.

يُحدِّثُنا الحارث بن حسّان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قدمت المدينة: "فإذا المسجد غاصّ بأهله، وإذا راية سوداء تخفق، وبلال متقلِّد السيف بين يدي رسولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقلت: ما شأن النّاس؟".

"قالوا: هذا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يريد أن يبعث عمر بن العاص

(١) غزوة مؤتة والسرايا والبعوث النبوية الشمالية، ص ٣٩٨.
(٢) ابن سعد، الطبقات ٢/ ١٣١، ابن هشام، سيرة ٤/ ٦٢٣، فتح الباري، ٨/ ٧٤.
(٣) أخرجه أحمد (المسند، حديث: ١٧٧٣٠)، والبخاري، (الأدب المفرد ص ٩٧)، والحاكم، (المستدرك ٢/ ٣).

وجهاً"[1].

وعقد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعمرو لواءً أبيض، وجعل معه راية سوداء: "وأمره أن يستعين بمن يَمُرُّ به من بليّ[2]، وعُذرة[3]، وبلقين"[4].

ولعل الحكمة من إرسال هذه السرية تحت قيادة عمرو بن العاص هو أن بني بلي هم أخوال عمرو حيث أنّ أمّ العاص بن وائل كانت امرأة من بليّ، فبعثه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إليهم يستألفهم لذلك"[5].

فانطلق عمرو بالجيش وكان يسير بالليل ويكمن النهار. فلمّا قرب من القوم بلغه أنّ لهم جمعاً كثيراً، فبعث رافع بن مكيث الجهني إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يستمدّه"[6].

فندب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المهاجرين الأوّلين، فانتدب فيهم أبو بكر، وعمر بن الخطاب في سراة المهاجرين، وأمّر عليهم أبا عبيدة بن الجرّاح، فأمدّ بهم عمرو بن العاص"[7]. وقال لأبي عبيدة حين وجّهه: "لا تختلفا"[8].

"فلمّا قدموا على عمرو قال: أنا أميركم، وأنا أرسلت إلى رسول الله أستمده بكم. قال المهاجرون: بل أنت أمير أصحابك، وأبو عبيدة أمير المهاجرين، فقال عمرو: إنما أنتم مدد أُمْدِدتُ به، فلمّا رأى ذلك أبو عبيدة، وكان رجلاً حسن الخُلق، لَيِّن الشكيمة[9]، سعى لأمر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عليه، وعهده. قال: يا عمرو إنّ آخر ما عهد إليَّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن قال: إذا قدمت على صاحبك فتطاوعا، وإنّك إن عصيتني لأطيعنّك. فسلّم أبو عبيدة الإمارة

---

(١) أخرجه أحمد (المسند ٣/ ٤٨٢)، وأخرجه النسائي (السنن الكبرى ٥/ ١٨١).

(٢) بليّ: قبيلة كبيرة من قضاعة، يُنسبون إلى بلى بن عمرو بن قضاعة، ومن بلى جماعة من الصحابة. (قلائد الجمان، ص ٤٥، وفتح الباري ٨/ ٧٤).

(٣) بنو عذرة: قبيلة كبيرة من قضاعة، ينسبون إلى عذرة بن سعد، وكانوا معروفين بشدّة العشق، وغلبة الهوى. (القلقشندي: قلائد الجمان، ص ٤٩، ابن حجر: فتح: ٨/ ٧٤).

(٤) أخرجه أحمد (المسند، حديث: ١٧٧٣٠)، والبخاري، (الأدب المفرد، ص ٩٧)، والحاكم، (المستدرك ٢/ ٣).

(٥) الطبراني، المعجم، ٢٠/ ٣٤٠، ابن هشام، سيرة، ٤/ ٦١٢.

(٦) ابن هشام، سيرة، ٤/ ٣٣٧ - ٣٣٩، زاد المعاد، ٣/ ٢٨٤.

(٧) ابن سعد، طبقات، ٢/ ٨٨، الواقدي، مغازي، ٢/ ٥٥٦.

(٨) ابن سعد، طبقات، ٢/ ٨٨، الواقدي، مغازي، ٢/ ٥٥٦.

(٩) أي: ليّن الخُلق، سمحه.

لعمرو بن العاص "[1].

وتذكر بعض الروايات[2] أنّ ذلك الأمر لم يرق لبعض المهاجرين باعتبار أسبقيتهم للإسلام، ورأوا أن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ استبدّ بالإمارة دون أبي عبيدة بن الجراح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأنّه دارت مناقشات حول هذا الموضوع، ولكنّ أبا عبيدة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وبما عُرِفَ عنه من الحكمة والكياسة، استطاع إقناعهم بالحُسنى بأنّه آثر الطاعة والامتثال لأمر النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خشية الفرقة والفتنة بين المسلمين[3].

فأطاع الجيش كله لعمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فكان عمرو يُصَلّي بالناس، وكان الجوّ شاتياً شديد البرودة في تلك المناطق، ويوماً مّا: "أصابهم بردٌ شديدٌ، لَمْ يُرَ مثله، فخرج لصلاة الصّبْح فقال: والله لقد احتلمت البارحة، ولكنّي والله ما رأيت برداً مثل هذا، أهل مرَّ على وجوهكم مثله؟ قالوا: لا. فغسل مغابنه[4] وتوضّأ وضوءه للصلاة، ثُمَّ صلّى بهم". وفي رواية: «فتيمَّم»[5].

وكان قبل ذلك قد أصدر أوامره بمنع إشعال النيران في المعسكر لمدّة ثلاثة أيام رغم حاجتهم للتدفئة، فغضب عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وقال لأبي بكر: "لِمَ لَمْ يدَع عمرو الناس أن يوقدوا ناراً ألا ترى إلى هذا الذي منع الناس منافعهم؟. فقال أبو بكر: دعه قائماً، ولاّه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علينا لعلمه بالحرب"[6]. "فهدأ عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ"[7].

ثم أنّ المسلمين انطلقوا: حتّى نزلوا جبل طيء، فقال عمرو: انظروا إلى رجل دليل بالطريق، فقالوا: ما نعلمه إلاّ رافع بن عمرو، فإنّه كان ربيلاً في الجاهلية"[8].

---

(١) ابن سعد، طبقات، ٢/ ٨٨، الواقدي، مغازي، ٢/ ٥٥٦.

(٢) انظر رواية الشعبي عند أحمد، المسند ١/ ١٩٦، ورواية الزهري عند عبد الرّزّاق (المصنّف ٥/ ٤٥٢ - ٤٥٤).

(٣) كان ممّا قال أبو عبيدة رضي الله عنه: "إن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عهد إليّ وإليه أن لا تتعاصيا، فخشيت إن لم أُطعه أن أعصى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويدخل بيني وبينه الناس. وإني والله لأطيعنه حتى أقفل". تاريخ مدينة دمشق، ٢/ ٧٠.

(٤) المغابن: الأرفاغ. وهي بواطن الأفخاذ عند الحوالب. (الجوهري: الصحاح، وابن الأثير: النهاية، مادة: غبن).

(٥) أخرجه أبو داود (انظر: عون المعبود ١/ ٥٣٢)، والحاكم (المستدرك ١/ ٢٨٥) وهذا لفظه.

(٦) أخرجه ابن أبي شيبه (المصنف ١٢/ ٥٣١).

(٧) أخرجه الحاكم (المستدرك ٣/ ٤٥).

(٨) أي: كان لِصّاً في الجاهلية.

- بإمعان المسلمين في طلب القوم حتّى وصلوا إلى تلك المنطقة البعيدة نسبياً عن المنطقة المحدَّدة سلفاً لعمليات السّرية ، ويُشير إليه طلب القائد البحث عن دليل بالطريق - ثُمَّ إنّهم لقوا في آخر ذلك جمعاً فحمل عليهم المسلمون فهربوا في البلاد وتفرّقوا فنهاهم عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن يتبعوا العدوّ مخافة أن يكون لهم كمين من وراء الجبل "[1] .

ويبدو أنّ نتيجة ذلك الإمعان في طلب العدوّ وتقصّيهم حتّى آخر بلادهم ، نفذ تموين الجيش ، فيقول عوف بن مالك الأشجعي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: " فأصابتنا مخمصة[2] شديدة فانْطَلَقتُ ألتمس المعيشة فالتَقَيتُ قوماً يريدون أن ينحروا جزوراً لهم ، فقلت: إن شئتم كفيتكم نحرها وعملها وأعطوني منها ، ففعلتُ فأعطوني منها شيئاً فصنعته ، ثُمّ أتيت عمرو بن العاص فسألني مِن أين هو؟ فأخبرته . فقال: أسمعك قد تعجّلت أجرك ، وأبى أن يأكله ، ثُمّ أتيت أبا عبيدة بن الجرّاح فأخبرته ، فقال لي مثلها ، وأبى أن يأكله ، فلمّا رأيت ذلك تركتها "[3] .

وبعد أن أدّت السرية مهمّتها على أكمل وجهٍ ، رجع عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بالجيش قافلاً إلى المدينة ، وكان قد: "بعث عوف بن مالك الأشجعي بريداً إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يبشّره بما فتح الله عليهم "

قال عوف: "فلمّا قفل الناس من ذلك السفر كنت أوّل قادم على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فجئته وهو يصلّي في بيته . فقلت: السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته "[4] .

قال: صاحب الجزور ، ولم يزد عليَّ شيئاً "[5] .

وتلك معجزة من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فقد ذكر له خبر الجزور ، قبل أن يتكلم ويخبره عن خبرهم في تلك السّرية .

وأثناء عودة الجيش إلى المدينة ، وفي الطريق أراد رافع الطائي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ دليل المسلمين في السرية - أن يصحب رجلاً صالحاً من أفرادها ينفعه الله به ، فتوسّم في

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبه (المصنف ١٢/ ٥٣١) .

(٢) أي: جوع شديد .

(٣) البيهقي (الدلائل ٤/ ٤٠٥) .

(٤) ابن هشام ، سيرة ، ٤/ ٦٢٥ - ٦٢٦ ، ابن كثير ، البداية ٤/ ٢٧٤ ، البيهقي ، دلائل ٤/ ٤٠٤ .

(٥) البيهقي ، الدلائل ٤/ ٤٠٥ .

أبي بكر الصّدّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خيراً، فصحبه، يقول رافع: "فوفّق لي أبو بكر فكان يُنيِّمني على فراشه، ويلبسني كساء له من أكسية فدك"[1].

"فلمّا دنونا من المدينة قافلين قال: قلت: يا أبا بكر! إنّما صحبتك لينفعني الله بك، فانصحني وعلّمني. قال: لو لم تسألني ذلك لفعلت"[2]. قال: أتحفظ أصابعك الخمس؟ قلت: نعم. قال: تشهد ألاّ إله إلاّ الله، وأن محمّداً عبده ورسوله، وتقيم الصلوات الخمس، وتؤتي الزكاة إن كان لك مال، وتحجّ البيت، وتصوم رمضان. حفظت؟ قلت: نعم. قال: وأخرى لا تُؤَمَّرَنَّ على اثنين. قلت: هل تكون الإمرة إلاّ فيكم أهل بدر؟ قال: يوشك أن تفشو حتّى تبلغك ومَن هُو دونك، إنّ الله لَمّا بعثَ نبيَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دخل الناس في الإسلام، فمنهم من دخل فهداه الله، ومنهم مَن أكرهه السيف، فهم عوّاذ الله[3]، وجيران الله في خفارة الله[4]، إن الرجل إذا كان أميراً فتظالم الناس بينهم فلم يأخُذ لبعضهم من بعض، انتقمَ الله منه. إنّ الرجل لتُؤخذ شاة جاره فيظل ناتئ عضلته[5] غضباً والله من وراء جاره"[6].

قال: ففارقته على ذلك"[7].

فلمّا قدموا على النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "سأل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كيف وجدتم عمراً وصحابته لكم، فأثنوا عليه خيراً، وقالوا: يا رسول الله! صلّى بنا وهو جنب، فأرسل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى عمرو فسأله، فأخبره بذلك وبالذي لقي مِنَ البرد، فقال: يا رسول الله! إنّ الله قال: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٢٩]. ولو اغتسلت مُت. فضحك رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى عمرو"[8].

كما ذكروا للنّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما صنعه عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من منعه إيّاهم إشعال النيران في معسكرهم رغم البرد الشديد، وحاجتهم للنار في التدفئة،

---

(١) أخرجه ابن خزيمة، كما ذكر ابن حجر (إصابة ١/ ٤٩٧).
(٢) ابن هشام، سيرة ٤/ ٦٢٤ - ٦٢٥.
(٣) أي: في عصمة الله ومنعه.
(٤) أي: في حراسة الله تبارك وتعالى.
(٥) أي: بارزاً عصب وجهه وحلقه، كنّى بذلك عن شدّة الغضب فإنه يبلغ من الشخص هذا المبلغ. والعضلة: هي كلّ لحمة مكتنزة غليظة.
(٦) أخرجه الطبراني، المعجم ٥/ ٢١، الهيثمي، مجمع ٥/ ٢٠٢.
(٧) ابن هشام، سيرة ٤/ ٦٢٤ - ٦٢٥.
(٨) أخرجه أبو داود، انظر، عون المعبود ١/ ٥٣٢، والحاكم (المستدرك ١/ ٢٨٥) وهذا لفظه.

ومنافعهم الأخرى، وشكوا إليه - أيضاً - منعه إيّاهم إتباع العدوّ رغم هزيمته وفراره[1].

فقال: يا رسول الله إنّي كرهت أن آذن لهم أن يوقدوا ناراً فيرى عدوّهم قِلّتهم، وكرهت أن يتبعوهم فيكون لهم مدد فيعطفوا عليهم، فحمد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمره. فقال: يا رسول الله! من أحبّ الناس إليك؟ قال: «لِمَ؟» قال: لأُحبَّ مَنْ تُحبّ. قال: «عائشة». قال: من الرجال؟ قال: «أبو بكر»[2].

قال عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "قلت: ثُمَّ مَنْ؟ قال: «عمر». فعدّ رجالاً فسكتُّ مخافة أن يجعلني في آخرهم"[3].

الأحكام المستنبطة:

- جواز تأمير المفضول على الفاضل:

قال ابن حجر: وفي الحديث جواز تأمير المفضول على الفاضل، إذا امتاز المفضول بصفة تتعلق بتلك الولاية، ومنقبة لعمرو بن العاص لتأميره على جيش فيهم أبو بكر وعمر، وإن كان ذلك لا يقتضي أفضليته عليهم، لكن يقتضي أنّ له فضلاً في الجملة[4].

- مزية أبي بكر على الرجال، وبنته عائشة على النساء:

وقال ابن حجر - أيضاً: وفي الحديث مزية أبي بكر على الرجال، وبنته عائشة على النساء[5].

- تفضيل أبي بكر، ثُمَّ عمر على جميع الصحابة:

- وقال النووي: وفيه دلالة تنبيه لأهل السُّنّة في تفضيل أبي بكر، ثُمَّ عمر على جميع الصحابة[6].

---

(١) الهيثمي (مجمع ٥/ ٣١٩)، ورواية ابن أبي شيبه (المصنف ١٢/ ٥٣١)، ورواية ابن حبان (كتاب السير، حديث ٤٥٢٣)، والحاكم (المستدرك ٣/ ٤٥).

(٢) خرجه ابن حبان (انظر: الإحسان، حديث ٤٥٢٣).

(٣) أخرجه البخاري (الصحيح ٤/ ١٩٢، ٥/ ١١٣) وقد أخرجه مسلم (الصحيح ٥/ ٩) وأحمد (المسند، حديث: ١٧٧٧).

(٤) فتح الباري ٨/ ٧٥.

(٥) فتح الباري ٨/ ٧٥.

(٦) صحيح مسلم بشرح النووي ١٥/ ١٥٣.

وكان الصحابة - رضوان الله تعالى عليهم - يعرفون هذا الأمر جيِّداً، ومتداوَلٌ بينهم، حتّى إنّ الشّباب من صغار الصحابة كانوا يُفَاضلون بين الصحابة بين يدي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فيقدّمون أبا بكر، ثم عمر، ثم عثمان، فلا يُنكر عليهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقد أخرج البخاري في الصحيح عن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: "كُنَّا نخيّر بين الناس في زمن النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فنخيّر أبا بكر، ثُمّ عمر بن الخطاب، ثم عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ"[1].

ونقل البيهقي عن الشافعي أنّه قال: "أجمع الصحابة وأتباعهم على أفضلية أبي بكر، ثُمّ عمر، ثُمّ عثمان، ثُم عليّ"[2].

وفي قصّة رافع الطائي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يظهر جليّاً تميُّز الصّدّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في هيئته، ومظهره، وتعامله مع الناس، ذلك التميّز الواضح القويّ لاحظه رافع، فاختاره صاحباً له من بين جميع أفراد السرية، وهذا إن دلّ على شيء فإنّما يدلّ على المواهب العظيمة التي حباها الله عز وجل لذلك الرجل العظيم. حيث عرف الناس فضله وتميُّزه، سواء القريبون منه في مجتمع المدينة الذين كانوا يرون بأعينهم، ويسمعون بآذانهم، ويلاحظون بحواسهم، تقديم المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ له وتفضيله إيّاه، وحديثه الدائم عنه عن أعماله الخيِّرة في خدمة الإسلام منذ اللحظة التي صدّق فيها رسولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

أخرج البخاري في الصحيح حديث أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذي فيه: فقال النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنّ الله بعثني إليكم، فقلتم: كذبت، وقال أبو بكر: صدق، وواساني بنفسه وماله...**» الحديث[3].

أو الذين يرافقونه في البعوث والسرايا من الإعراب، فيلاحظون ذلك التميُّز المُلْفِت للنظر لشخصية الصِّدِّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من خلال ما يرونه ويتوسّمونه فيه من خلال الخير، وأعمال البرِّ، وحُسن الخُلُق، وكرامة المظهر، وحُسن التعامل، كما حدث هذا في هذه السرية، والله تعالى أعلم[4].

---

(١) فتح الباري ٧/ ١٦، ٥٣.
(٢) ذكر ذلك ابن حجر: (فتح الباري ٧/ ١٧)، نقلاً عنه.
(٣) البخاري، الفتح ٧ (٣٦٦١).
(٤) غزوة مؤتة والسرايا والبعوث النبوية الشمالية، ص ٤٢٧.

جواز التيمم لمن يتوقع من استعمال الماء الهلاك:

وفي حديث عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأنه صلّى بأصحابه وهو جُنُب لخوفه من شدّة البر.

قال ابن حجر: "وفي هذا الحديث جواز التيمّم لمن يتوقع من استعمال الماء الهلاك سواء كان لأجل البرد أم غيره"[1].

وقال الخطابي: "وفيه من الفقه أنه جعل عدم إمكان استعمال الماء كعدم عين الماء، وجعله بمنْزلة مَن خاف العطش ومعه ماء، فأبقاه لشقته وتيمّم خوف التلف، وقد اختلف العلماء في هذه المسألة: فشدّد فيه عطاء بن أبي رباح وقال: يغتسل وإن مات، واحتجّ بقوله: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُباً فَاطَّهَّرُوا﴾ [المائدة: ٥]. وقال الحسن نحواً من قول عطاء. وقال مالك وسفيان: يتيمّم، وهو بمنْزلة المريض وأجازه أبو حنيفة في الحضر وقال صاحباه: لا يجزيه في الحضر، وقال الشافعي: إذا خاف على نفسه مِن شدّة البرد تيمّم وصلّى وأعاد كلّ صلاةٍ صلاّها كذلك، ورأى أنّه من العُذْر النّادر، وإنما جاءت الرّخص التامّة في الأعذار العامّة"[2].

جواز صلاة المتيمم بالمتوضئين وجواز الاجتهاد في زمن النبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

وقال ابن حجر أيضاً: "وفي الحديث جواز صلاة المتيمِّم بالمتوضّئين، وجواز الاجتهاد في زمن النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ"[3].

البعد عن الإمارة والرياسة:

وفي حديث رافع الطائي - رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى -، وقصته مع أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تنفيرٌ من التّعرُّض للرياسة، والوعيد لأهلها، وأمرهم بالاستقامة[4]. وقد وردت في معناه أحاديث كثيرة عن النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، من ذلك قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأبي ذرّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "يا أبا ذرّ! أراك ضعيفاً، وإني أُحِبّ لك ما أُحِبّ لنفسي، فلا تأمرنّ على اثنين، ولا تـولينّ مال اليتيم". وعنه قال: "قلت: يا رسول الله! ألا استعملني؟ فضرب على منكبي فقال: يا «**أبا ذرّ! إنّك ضعيف، وإنّها أمانة، وإنّها**

(١) فتح الباري ١/ ٤٥٤.
(٢) حاشية سنن أبي داود ١/ ٢٣٨ - ٢٣٩.
(٣) فتح الباري ١/ ٤٥٤.
(٤) العامري، بهجة المحافل ١/ ٣٦٥.

يوم القيامة حسرة وندامة إلاّ مَن أخذها بحقّها، وأدّى الذي عليه فيها» .[1]

قال النووي: "هذا الحديث وما أشبهه أصلٌ عظيمٌ في اجتناب الولايات"[2] .

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إنّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إنّكم ستحرصون على الإمارة، وستكون ندامة يوم القيامة»[3] .

الدروس من هذه السرية:

- إخلاص عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ :

قال عمرو بن العاص: بعث إليَّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: «**خذ عليك ثيابك، وسلاحك، ثم ائتني**» ، فأتيته ، وهو يتوضأ ، فصعَّد فيَّ النظر ، ثم طأطأ ، فقال: «**إني أريد أن أبعثك على جيش**[4]**، فيسلمك الله ويغنمك، وأرغب لك في المال رغبة صالحة**» ، قال: قلت: يارسول الله ما أسلمت من أجل المال ، ولكني أسلمت رغبة في الإسلام ، وأن أكون مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ياعمرو نعم المال الصالح للمرء الصالح**»[5] .

فهذا الموقف يدل على قوة إيمان وصدق وإخلاص عمرو بن العاص للإسلام وحرصه على ملازمة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وقد بين له رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن المال الحلال نعمة إذا وقع بيد الرجل الصالح ، لأنه يبتغي به وجه الله ويصرفه في وجوه الخير ويُعفُّ به نفسه وأسرته[6] .

- الاتحاد قوة والتنازع ضعف:

عندما وصل المدد الذي بعثه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقيادة أبي عبيدة بن الجراح لجيش عمرو في ذات السلاسل ، أراد أبو عبيدة أن يؤم الناس ويتقدم عمرو ، فقال له عمرو: إنما قدمت علي مدداً لي ، وليس لك ان تؤمني ، وأنا الأمير ، وإنما أرسلك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إليَّ مدداً ، فقال المهاجرون كلا ، بل أنت

---

(١) مسلم (الصحيح ٤/ ١٠٥) .
(٢) شرح صحيح مسلم .
(٣) البخاري (الصحيح ٨/ ١٠٦) .
(٤) جيش سرية ذات السلاسل .
(٥) رواه ابن حبان كما في الموارد ٢٢٧٧ ؛ صحيح السيرة ، ص٥٠٨ . صححه الألباني ، صحيح الأدب المفرد .
(٦) التاريخ الإسلامي للحميدي (٧/ ١٣٣) .

أمير أصحابك وهو أمير أصحابه ، فقال عمرو: لا ، بل أنتم مدد لنا ، فلما رأى أبو عبيدة الاختلاف وكان حسن الخلق ، لين الطبع قال: لتطمئن ياعمرو وتعلمن أن آخر ماعهد إليَّ رسول الله أن قال: إذا قدمت على صاحبك فتطاوعا ولا تختلفا وأنك والله ان عصيتني ، لأطيعنك فأطاع أبو عبيدة ، فكان عمرو يصلي بالناس[1] .

لقد أدرك أبو عبيدة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن أي اختلاف بين المسلمين في سرية ذات السلاسل يؤدي إلى الفشل ومن ثم تغلب العدو عليهم ، ولهذا سارع إلى قطع النزاع وانضم جنديا تحت إمرة عمرو بن العاص امتثالاً لأمر الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لاتختلفا[2] .

- عبقرية عمرو بن العاص:

ظهرت عبقرية عمرو العسكرية في ذات السلاسل في حرصه على وحدة الصف ، وفي حرصه على سلامة قوته ويتجلى ذلك في عدة صورة منها:

١ - أنه كان يسير ليلاً ويختفي نهاراً:

كان عمرو يدرك بثاقب بصره وبعد نظره أن العدو يمكن أن يسعى إلى معرفة أخباره قبل اللقاء بينهما ، فيستعد للقاء جيش المسلمين ولهذا رأى عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن السير ليلاً والاختفاء نهاراً هو أفضل أسلوب للمحافظة على قواته وحقق بذلك أمرين مهمين:

- إخفاء تحركاته عن عدوه وبذلك يضمن سلامة قواته .

- حماية الجند من شدة الحر وحتى يبقى لهم نشاطهم فيصلون إلى مكان المواجهة ، وهم أقوياء على مجابهة أعدائهم .

٢ - عدم السماح للجند بإيقاد النار:

عندما طلب الجنود من عمرو أن يسمح لهم بإيقاد النار لحاجتهم الماسة إلى التدفئة منعهم من ذلك معتمداً في ذلك على خبرته الحربية وعمق فكره العسكري وخوفاً من وقوع مفسدة أعظم من تلك المصلحة وهي أن يمتد الضوء فيكشف المسلمين - وهم قلة - لأعدائهم فيهجموا عليهم ويتجلى هذا الفقه في حزمه الشديد ، مع أصحابه عندما كلمه أبو بكر في ذلك ، فقال: لايوقد أحد منهم ناراً

(١) ابن سعد ، طبقات ، ٢/ ٨٨ ، الواقدي ، مغازي ، ٢/ ٥٥٦ .
(٢) غزوة الحديبية لأبي فارس ، ص٢٠٩ .

إلا قذفته فيها ، فلما رجعوا إلى المدينة ذكروا ذلك لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فسأله رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: كرهت أن آذن لهم أن يوقدوا ناراً فيرى عدوهم قلتهم ، فأقره النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على فعله .

٣ - منع الجند من مطاردة أعدائهم:

عندما هزم المسلمون أعدائهم طمعوا فيهم ، فأرادوا مطاردتهم وتتبع فلولهم ولكن قائد السرية منع جنده من ذلك لئلا يترتب على هذه المطاردة مفسدة أعظم منها وهي أن يقع المسلمون في كمين ويتجلى هذا الفقه في قول عمرو بن ا لعاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ للرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: وكرهت أن يتبعوهم فيكون لهم مدد ، فأقره النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على هذا التصرف الحكيم الذي حقق للجيش الأمن والحماية[١] .

سرية أبي حَدْرَد الأسلمي إلى الغابة:

وفي أعقاب سرية ذات السلاسل ، تحدثت المصادر التي تعنى بالسيرة والتاريخ عن سريتين أخريين قبل فتح مكة ، أولهما سرية ابن حدرد إلى الغابة .

وقد وقع الخلاف بين أهل المغازي في هذه السرية ، فذكر الواقدي أنها كانت بقيادة أبي قتادة بن ربعي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وذكر فيها مشاركة عبد الله بن أبي حدرد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا الذي جاء يستعين رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على نكاحه ، فأرسله مع هذه السرية إلى غطفان نحو نجد لعله يصيب مهر زوجته ، وفعلاً غنموا في تلك السرية نَعَمًا كثيرة وغنما بحيث كانت سُهمَانهم اثني عشر بعيرا[٢] .

وكذلك أخرج الإمام مسلم في صحيحه[٣] . رواية مشابهة غير أنه لم يذكر فيها اسم الصحابي المستعين برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[٤] ، ولكن هناك بعض

---

(١) القيادة العسكرية في عهد الرسول ، ص٥٤٠ .

(٢) الواقدي ، مغازي ، ٢/ ٧٧٧ - ٧٨٠ ، الهيثمي ، مجمع ، ٦/ ٢٠٦ - ٦٠٧ .

(٣) النووي على مسلم ، ٩/ ٢١٠ - ٢١١ .

(٤) اختلفت الروايات في تسمية الصحابي المستعين برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فرواية ابن خياط والطبري عن ابن إسحاق ، والواقدي ، وابن حجر ورد اسمه عندهم (عبد الله بن أبي حدرد) ونسبته رواية ابن هشام إلى أبيه ، بينما وقع اسمه في رواية أحمد ، ورواية البيهقي عن ابن إسحاق (أبو حدرد الأسلمي) ولعل الخلاف وقع لكون كل منهما له صحبة ، فلعله اشتبه على بعض الرواة فجعلهما واحدا ، أو أن كلمة ابن سقطت من بعض النساخ فتلقفها من بعده أبو حدرد ، وباعتبار أن كليهما له صحبة لم يشك في الأمر وأمضاه . والله

القرائن الدالة على وحدة القصة مثل التاريخ الذي ذكره الواقدي للسرية لا يتعارض مع إمكانية رواية أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ للخبر في الصحيح[1].

كما أن منطقة عمليات السرية وهدفها الذي توجهت إليه يكاد يكون واحدا في كلا الروايتين، ففي رواية الصحيح أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعثهم إلى بني عبس، وفي رواية الواقدي أنه بعثهم إلى غطفان نحو نجد، ومعلوم أن بني عبس من غطفان ومسكنهم في نجد[2] فرواية الصحيح أخص وأدق من رواية الواقدي.

وكذلك كون المرأة من الأنصار في الروايتين، وتقارب قيمة المهر المدفوع فيهما هو مائتا درهم في رواية الواقدي، وأربع أواق في رواية الصحيح، وقد صرح ابن حجر في "الإصابة" في رواية مختصرة ولكنها مماثلة لرواية الصحيح - خاصة فيما يتعلق بقيمة المهر - أنه ابن أبي حدرد نفسه[3].

فكل هذه القرائن[4] تعطينا بعض الدلائل التي يمكن بواسطتها الحكم بوحدة القصة[5] إضافة إلي أن الحلبي اعتبرها قصة واحدة[6].

وقد ذكر ابن إسحاق أن هذه السرية بعثها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى الغابة[7] بقيادة عبد الله بن أبي حدرد نفسه، وذلك لاستطلاع خبر رجل من جشم بن معاوية يقال له رفاعة بن قيس - أو قيس بن رفاعة - كان قد أقبل "في بطن عظيم من جشم حتى نزل بقومه ومن معه بالغابة، يريد أن يجمع قيسًا على

تعالى أعلم .انظر: بريك بن محمد بريك أبو مايلة العمري، السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة، ص١٩٢.

(١) لأن أبا هريرة رضي الله عنه لم يهاجر إلا بعد خيبر، والتاريخ الذي ذكره الواقدي للسرية هو شعبان سنة ثمان، كما أن ابن حجر قد ذكر أن أول مشاهد عبد الله الحديبية ثم خيبر.

(٢) الكلبي، جمهرة النسب، ص٤١٤.

(٣) ابن حجر، الإصابة، ٢/ ٢٩٥.

(٤) استدل بعض أهل المغازي بقرينة واحدة هي عدد سهمان الجيش على جعل هذه السرية هي السرية التي خرج فيها ابن عمر رضي الله عنهما وجاء ذكرها في الصحيحين. انظر ابن سيد الناس، عيون، ٢/ ٢٠٩، والشامي، سبل، ٦/ ٢٩٠، وابن حجر، فتح، ٨/ ٥٦، والزرقاني، شرح، ٢/ ٢٨٤.

(٥) انظر: بريك بن محمد بريك أبو مايلة العمري، السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة، ص١٩٢.

(٦) انظر الحلبي، سيرة، ٣/ ٢٠٦.

(٧) الغابة: هي أرض من مقصر جبل أحد إذا أكنع في قناة إلى الشمال، تشمل مدفع وادي النقمي في الخليل، ويمكن اعتبار الخليل كله من الغابة. البلادي، معجم، ٣٢٢.

حرب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكان عبد الله بن أبي حدرد قد استعان برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في صداق امرأة تزوجها وأصدقها مائتي درهم، فلم يجد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما يعينه به، فلما أقبل هذا الرجل بقومه، استدعاه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وبعثه ورجلين معه في هذه السرية، وفي الغابة تطورت المهمة وباجتهاد من أصحاب السرية من الاستطلاع إلى هجوم ليلي مكثف على حاضر القوم بعد قتل صاحبهم رفاعة بن قيس فنجحوا في ذلك وفر الأعراب بنسائهم وأطفالهم وما خف من أموالهم تاركين نَعَمًا كثيرة خلفهم[1].

ويروي لنا أبو حدرد قصة هذه الغزوة بقوله، قال: تزوجت امرأة من قومي فأصدقتها مائتي درهم، فأتيت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أستعينه على نكاحي، فقال: «**كم أصدقت؟**» فقلت: مائتي درهم، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**سبحان الله والله لو كنتم تأخذونها من واد ما زاد، لا والله ما عندي ما أعينك به**»، فلبثت[2] أياما ثم أقبل رجل من جشم بن معاوية يقال له رفاعة بن قيس، أو قيس بن رفاعة في بطن[3] عظيم من جشم حتى نزل بقومه ومن معه بالغابة يريد أن يجمع قيسا على حرب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وكان ذا اسم وشرف في جشم، فدعاني رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ورجلين من المسلمين فقال: «**اخرجوا إلى هذا الرجل حتى تأتوا منه بخبر وعلم**»، وقدم لنا شارفا[4] عجفاء، فحمل عليها أحدنا فوالله ما قامت به ضعفا، حتى دعمها الرجال من خلفها بأيديهم، حتى استقلت وما كادت، وقال: تبلغوا على هذه، فخرجنا، ومعنا سلاحنا من النبل[5] والسيوف حتى إذا جئنا قريبا من الحاضر مع غروب الشمس فكمنت في ناحية وأمرت صاحبي فكمنا في ناحية أخرى من حاضر القوم وقلت لهما: إذا سمعتماني قد كبرت وشددت في العسكر فكبروا وشدا معي، فوالله إنا لكذلك ننتظر أن نرى غرة أو نرى شيئا وقد غشينا الليل حتى ذهبت فحمة العشاء، وقد كان لهم راع قد سرح في ذلك البلد فأبطأ عليهم حتى تخوفوا عليه، فقام صاحبهم رفاعة بن قيس فأخذ سيفه فجعله في عنقه وقال: والله لأتبعن أثر راعينا هذا، ولقد أصابه شر فقال نفر ممن معه: والله لا تذهب، نحن نذهب نكفيك، فقال: لا

(١) انظر ابن هشام، سيرة، ٤/ ٦٢٩.
(٢) اللبث: الإبطاء والتأخير والانتظار والإقامة.
(٣) البطن: الفرع من القبيلة.
(٤) الشارف: الناقة المسنة التي ارتفع لبنها.
(٥) النبل: السهام.

يذهب إلا أنا، قالوا: فنحن معك، فقال: والله لا يتبعني منكم أحد، وخرج حتى يمر بي فلما أمكنني نفحته بسهم فوضعته في فؤاده، فوالله ما تكلم فوثبت إليه فاحتززت رأسه، ثم شددت في ناحية العسكر وكبرت وشد صاحباي، وكبروا فوالله ما كان إلا النجاء ممن كان فيه عندك بكل ما قدروا عليه من نسائهم وأبنائهم، وما خف معهم من أموالهم واستقنا إبلا [1] عظيمة، وغنما كثيرة، فجئنا بها إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وجئت برأسه أحمله معي، فأعطاني من تلك الإبل ثلاثة عشر بعيرا [2] في صداقي [3] فجمعت إلي أهلي [4].

وذكر المؤرخون أن هذه السرية كانت في شعبان سنة ثمان [5]

سرية أبي قتادة بن ربعي إلى بطن أضم:

أما السرية الثانية، فهي سرية أبي قتادة إلى بطن أضم [6] وكانت في أول رمضان سنة ثمان من الهجرة [7]، فقبل خروج رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى مكة، قام بعملية استعراضية مرسومة القصد منها تحويل انتباه قريش وحلفائها عن خطته لغزوها [8].

حيث أرسل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سرية إلى أضم وادٍ من أودية أشجع "[9]

---

(١) الإبل: الجمال والنوق ليس له مفرد من لفظه.

(٢) البعير: ما صلح للركوب والحمل من الإبل، وذلك إذا استكمل أربع سنوات، ويقال للجمل والناقة.

(٣) الصداق: المهر.

(٤) البيهقي، الدلائل، ٤/ ٤٢٠.

(٥) ابن كثير، البداية والنهاية ٤/ ٢٤٩ - ٥٠، ابن هشام، السيرة ٤/ ٣٦٧ - ٣٦٩، أحمد، المسند ٦/ ١١ - ١٢، الواقدي، مغازي ٢/ ٧٧٧، البيهقي، دلائل النبوة ٤/ ٣٠٣ - ٣٠٤، الطبري، تاريخ، ٣/ ٣٤.

(٦) ماء على طريق مكة - اليمامة عند السمينة، ياقوت - معجم، ١/ ٢٨١، وحدد ابن سعد في (الطبقات ٣/ ١٧٩) المسافة بينها وبين المدينة بثلاثة برد.

(٧) الواقدي، مغازي ٢/ ٧٩٧ بإسناد متصل، ابن سعد، الطبقات ٢/ ١٣٣.

(٨) ذكر ذلك الواقدي أثناء سياقه لغزوة الفتح حيث لم يفرد لهذه السرية فصلا خاصًا بها، فقال: وبعث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أبا قتادة بن ربعي في ثمانية نفر إلى بطن أضم، ليظن ظان أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ توجه إلى تلك الناحية، ولأن تذهب بذلك الأخبار. المغازي، ٢/ ٧٩٦ - ٧٩٧.

(٩) ذكر الشريف: أن وادي أضم من أعظم أودية الحجاز، ويسمى اليوم وادي الحمض، وهو يسيل من الجنوب الشرقي لحرة خيبر، ويسير نحو الجنوب الغربي حتى يقارب (يثرب)

يشير الواقدي إلى أنها كانت بقوة ثمانية أفراد منهم عبد الله بن أبي حدرد الأسلمي ومحلِّم بن جثَّامة الليثي، وكانوا تحت قيادة أبي قتادة بن ربعي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[1]. فخرجوا حتى إذا توسطوا وادي أضم، مرَّ بهم رجل أشجعي يقال له عامر بن الأضبط على جمل له ومعه زاده ومتاعه، فسلم عليهم بتحية الإسلام فأمسك عنه القوم." وحمل عليه محلم بن جثامة، فقتله لشيء كان بينه وبينه، وأخذ بعيره، ومتاعه"[2] ويذكر الواقدي[3]: أنهم لم يلقوا جمعًا، فانصرفوا راجعين حتى انتهوا إلى ذي خشب[4]، فبلغهم أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد توجه إلى مكة، فيمموا شطر مكة حتى لحقوا بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالسقيا[5].

وتلاحقت أحداث الفتح، ثم غزوة حنين، وبينما فرغ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من صلاة الظهر، إذ" عمد إلى ظل شجرة فجلس تحتها، وهو بحنين، فقام إليه الأقرع بن حابس، وعيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر، يختصمان في عامر بن أضبط الأشجعي، عيينة يطلب بدم عامر، وهو يومئذ رئيس غطفان، والأقرع بن حابس يدفع عن محلم بن جثامة لمكانه من خندف، فتداولا الخصومة عند رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "[6]" ثم ارتفعت الأصوات، وكثرت الخصومة واللغط "[7]، "فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لقوم عامر بن الأضبط

المدينة. حيث تتصل به أودية فرعية منها وادي العقيق، ويتصل به كذلك وادي القرى. وهو يستمد مياهه من السيول التي تنحدر إليه من العيون التي عند خيبر، ثم يتجه غربا حيث يصب في البحر الأحمر جنوب قرية الوجه، ويبلغ طول وادي الحمض زهاء (٩٠٠) كيلو متر، الشريف، مكة والمدينة، ص ٢٦.

(١) الواقدي، مغازي (٢/ ٧٩٧)، وابن سعد، طبقات (٢/ ١٣٣).

(٢) ابن هشام، سيرة (٤/ ٦٢٦)، البلاذري، أنساب، ص٣٨٥، البيهقي، دلائل (٤/ ٣٠٥).

(٣) انظر الواقدي، مغازي (٢/ ٧٩٧).

(٤) ذي خشب: وادٍ على مسيرة ليلة من المدينة. الحموي، معجم البلدان (٢/ ٣٧٢).

(٥) السقيا: قرية جامعة وهي في طريق مكة بينها وبين المدينة، وقال كثير: إنما سميت السقيا بما سقيت من الماء العذب وهي كثيرة الآبار والعيون والبرك، وبالسقيا مسجد لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى جنب الجبل وعنده عين وهي تجري إلى صدقات الحسين، عليها نخل كثير.

انظر الحربي، المناسك، ص ٤٥٠، والبكري، المعجم (٣/ ٧٤٢ - ٧٤٣)، وعبد الله بن خميس، الحجاز بين اليمامة والحجاز (ص ٢٩٦).

(٦) ابن هشام، سيرة (٤/ ٣٢٧).

(٧) البيهقي، دلائل (٤/ ٣٠٨).

الأشجعي: «**هل لكم أن تأخذوا منا خمسين بعيرا، وخمسين إذا رجعنا إلى المدينة؟**» فقال عيينة بن بدر: والله لا أدعه حتى أذيق نساءه من الحرقة[1] مثل ما أذاق نسائي".

"فقام رجل من بني ليث يقال له ابن مكيتل[2]، وهو قصد من الرجال، فقال: يا رسول الله، ما أجد لهذا القتيل مثلاً في غرة الإسلام[3]، إلا كغنم وردت فرميت أولادها فنفرت أخراها، اسنن اليوم، وغيِّر غدًا، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**هل لكم أن تأخذوا خمسين بعيرًا الآن، وخمسين إذا رجعنا إلى المدينة؟**» فلم يزل بهم حتى رضوا بالدية، قال قوم محلم: ائتوا به حتى يستغفر له رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: فجاء رجل طوال ضرب اللحم[4] في حلة قد تهيأ فيها للقتل"[5]، "فجلس بين يدي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعيناه تدمعان، فقال: يا رسول الله إني قد فعلت الذي بلغك وإني أتوب إلى الله، فاستغفر لي يا رسول الله. فقال رسول الله: «**أقتلته بسلاحك في غرة الإسلام: اللهم لا تغفر لمحلم. بصوت عال**»[6] فقام وإنه ليتلقى دموعه بطرف ثوبه"[7].

قال راوي الحديث: "فأما نحن بيننا فنقول: قد استغفر له، ولكنه أظهر ما أظهر ليدع الناس بعضهم من بعض"[8].

وقد ذكر أصحاب المغازي أنه نزل فيه قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ فَتَبَيَّنُوا وَلا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلامَ لَسْتَ مُؤْمِناً تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا . .**﴾ [النساء: ٩٩][9].

---

(١) الحرقة: التوجع والألم والحرارة. (اللسان: حرق).
(٢) مكيتل رجل قصير مجموع. انظر البنا، الفتح (١٦/ ٥٠)، والبلاذري، أنساب، ص ٣٨٥.
(٣) غرة الإسلام: أوله. ابن الأثير، النهاية (٣/ ٣٥٤).
(٤) ضرب اللحم: خفيفه. (القاموس: ضربه).
(٥) البيهقي، دلائل (٣/ ٣٠٦ - ٣٠٧).
(٦) أبي داود، سنن (٤/ ٦٤٣).
(٧) البيهقي، دلائل (٣/ ٣٠٦ - ٣٠٧).
(٨) الهيثمي، مجمع (٧/ ٨). البنا، الفتح الرباني (١٦/ ٥٠)، وأبو داود، سنن (٤/ ٦٤١ - ٦٤٣)، وابن أبي شيبة، المصنف (٤/ ٥٤٧ - ٥٤٨)، وابن هشام، سيرة (٤/ ٦٢٧ - ٦٢٨)، والبلاذري، أنساب (٣٨٥)، والبيهقي، سنن (٩/ ١١٦)، ودلائل (٣/ ٣٠٦ - ٣٠٧).
(٩) اختلف في سبب نزول هذه الآية، وفيمن نزلت فيه اختلافا كبيرا. قال السهيلي: "وأما

عن الحسن قال: "فو الله ما مكث محلم بن جثامة إلا سبعا حتى مات فلفظته - والذي نفس الحسن بيده - الأرض. ثم عاد والله فلفظته، فلما غل قومه عمدوا إلى صدَّين[1] فسطحوه[2] بينهما، ثم رضموا عليه الحجارة حتى واروه، قال: بلغ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شأنه، فقال: والله إن الأرض لتطابق على من هو شر منه، ولكن الله أراد أن يعظكم في حرم ما بينكم فيما أراكم منه"[3].

وفي لفظ الأرض لهذا القاتل بعد دفنه الزجر والتهديد والعظة ما يجعل دماء المسلمين من أعظم المحرمات التي لا يجوز التساهل فيها كما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«ولكن الله أراد أن يعظكم ويريكم عظم الدم عنده»**.

* * * * *

الذي نزلت فيه الآية: ﴿لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ﴾ والاختلاف فيه شديد، فقيل اسمه فليت، وقيل: هو محلم كما تقدم، وقيل: نزلت في المقداد بن عمرو، وقيل في أسامة، وقيل: في أبي الدرداء. ولا يستقيم نزولها في أسامة رضي الله عنه لأنه لم يكن مشركا بل ولد في الإسلام. واختلف أيضا في المقتول، فقيل: مرداس بن سهيل، وقيل: عامر بن الأضبط. والله أعلم. انظر: الروض (٧/ ٥٢٩). والألباني، صحيح سنن الترمذي (٣/ ٤٠)، وقال عنه الألباني: صحيح، والحاكم، المستدرك (٢/ ٢٣٥).

(١) صدَّين: جبلين صغيرين، (القاموس: صدّ).

(٢) فسطحوه بينهما: بسطوه وأضجعوه بينهما. (القاموس: السطح).

(٣) رواه ابن هشام، سيرة (٤/ ٦٢٨)، وابن أبي شيبة، المصنف (١٤/ ٥٤٨ - ٥٤٩)، والطبري، تفسير (٩/ ٧٢ - ٧٣). السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة، ص ٢٧٤.